(سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصِر ١٤)

كتاب

الفِتْنة ووقْعَة الجَمَل

لسَيْف بْن عُمَر الأَسَدي التَّمِيمي

(٩٠ – ١٨٠ هـ)

خَدَمَه وعلَّق عليه

محمَّد علي أبو زَهْرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمَّا كانت كتبُ التاريخ مشحونةً بكثيرٍ من الأخبار المكذوبة على الصحابة الأخيار وتُصوِّر ما جرى بينهم على أنه نزاع دنيوي كان واجب المسلم أنْ يقرأ ويمحِّص ويَستبِين

كان الصحابة قبل وقعة الجمل إخواناً

وظلُّوا مِنْ بعدِها إخواناً

(إخوانُنا بَغَوا علينا)

تمهيد

مازالت فتنةُ مقتل أمير المؤمنين عثمانَ بنِ عفَّان – رضي الله عنه – تجلب الحزنَ والأسى لمن يتذكَّرها مِنَ المسلمين[1]، وبخاصة ما تبعها من فتنة لا تقلُّ خطراً عن الأولى وهي فتنة الحرب بين المؤمنين فيما عرف بموقعة الجَمَل، بين الفريق المطالب بدم عثمانَ، وفيهم أمُّ المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها وطلحةُ والزبيرُ، وجيش أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضِي الله عنه.

ولخطورة هذه الفتنة وآثارها على الأمة اهتم بها المؤرخون والمحدِّثون، وكتبوا عنها كثيراً. وكان من أوائل الكتب التي أرَّخت لهذه الفتنة كتاب (الفتنة ووقعة الجمل) لسَيْف بْن عُمَر الأسَدي التَّمِيمي المتوفى سنة (١٨٠هـ). وتأتي أهميته

---

[1] تسببت هذه الفتنة في حدوث نزاعات وحروب وكان لها أثر كبير في تحويل المسار في التاريخ الإسلامي، فتسببت لأول مرة بتوقف الفتوحات وانشغال المسلمين بقتال بعضهم البعض، كما تسببت ببداية النزاع المذهبي بين المسلمين، فبرز الخوارج لأول مرة كجماعة تطالب بالإصلاح وردع الحاكم الجائر والخروج عليه، كما برزت جماعة السبئية المتطرفة التي اتفقت على تقديم أهل البيت على جميع الناس وغالت في حبهم. كما كان من آثار الفتنة مقتل عددٍ مهول من الصحابة على رأسهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب. كما كانت من أبرز تحولات المسار، وانتهاء عصر دولة الخلافة الراشدة والخلافة الشوريَّة، وقيام الدولة الأموية وبروز الخلافة الوراثيَّة.

من تاريخ تأليفه المتقدم نسبياً، وريادة مؤلِّفه في التأريخ، وأن الكتاب يمثل (رواية متسلسلة تسرد القصة الكاملة) لهذا الحدث الجلل[1].

وإنْ كان معتقد أهل السُّنة والجماعة الإمساك عمَّا جرى بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والترضِّي عنهم جميعاً، واعتقاد أنهم مجتهدون في طلب الحق، للمصيب منهم أجران، وللمخطئ أجر واحد[2]؛ فإنَّ هذا لم يمنعِ المؤرخين أنْ يبسُطوا هذه المسألة ويبيِّنوا وجه الحقِّ فيها، ويسجِّلوا ما وصلهم فيها، وكلٌّ نِيَّتُه إلى ربِّه، حتى كثرتِ المؤلفاتُ في ذلك، سواء في كتب مُفرَدة أو موسوعات تاريخية كبيرة مثل تاريخ الطبري وتاريخ دمشق لابن عساكر والكامل لابن الأثير والبداية والنهاية لابن كثير وغيرهم.

---

[1] هناك كتب كثيرة أرَّخت للفتنة قبل هذا الكتاب، ولكنها فُقدت ولم تصل إلينا. وكان سبب وصول هذا الكتاب إلينا أن الطبري نقله كاملاً في تاريخه الشهير (تاريخ الأمم والملوك). حتى أن محقق الكتاب الأستاذ أحمد راتب عرموش طابق بين الكتاب ورواية الطبري له، وأفاد كثيراً من رواية الطبري كما قال في مقدمة التحقيق كما أن ابن عساكر في تاريخ دمشق نقل كثيراً من هذا الكتاب، وأيضاً فعل ذلك ابن الأثير في الكامل، وابن كثير في البداية والنهاية.

[2] قال ابن تيمية: المسلمون يُمسِكون عما شَجَرَ بين الصحابة، ويقولون إن هذه الآثارَ المرويةَ في مَساوئهم منها ما هو كَذِب، ومنها ما قد زيد فيه ونُقِص، وغُيِّرَ عن وجْهه، والصحيحُ منه هم فيه مَعْذورون؛ إمّا مجتهدون مُصيبون، وإمّا مُجتهدون مُخطئون. ولهم من السَّوابقِ والفضائلِ ما يوجِبُ مَغْفرةَ ما يَصْدُرُ عنهم إنْ صَدَر، حتى إنهم يُغْفَر لهم مِنَ السيئاتِ ما لا يُغْفَر لِمَن بَعْدَهم؛ لأنَّ لهم مِنَ الحَسَنات التي تَمْحو السيئاتِ مما ليس لمن بَعْدَهم.

المؤلفات في الفتنة

هذا وإن المصادر التي تناولت فتنة مقتل عثمانَ رضي الله عنه تنقسم إلى قسمين[1]؛ منها ما هو عن الفتن عامَّةً، ومنها ما هو عن فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه خاصةً، ومنها ما هو مفقود، وما هو موجود.

ومما أُلِّف في الفتن (عامةً):

١ – (الفتن) لعثمان بن أبي شيبة، المتوفى سنة ٢٢٧ هـ.

٢ – (الفتن) لعبد الله بن محمد بن أبي شيبة، المتوفى سنة ٥٣٢ هـ.

٣ – (الفتن) لإسماعيل بن عيسى العطار البغدادي.

وأما المصادر التي ألفت في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه (خاصةً) فمنها:

١ – (الشورى) ومقتل عثمان لأبي مخنف لوط بن يحيى المتوفى سنة ١٥٧هـ.

٢ – (مقتل عثمان) لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي المتوفى سنة ٢١٠هـ.

٣ – (مقتل عثمان بن عفان) للمدائني أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن أبي يوسف المتوفى سنة ٢١٥هـ.

---

[1] انظر: فتنة مقتل عثمان بن عفان، لمحمد بن عبد الله غبان الصبحي، (رسالة ماجستير – كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الإسلامية ١٤١١ هـ).

٤ – (مقتل عثمان) لعمر بن شبة بن عبيد بن ريطة المتوفى سنة ٢٦٢ هـ.

٥ – (سيرة عثمان) للعياشي أبي النظر محمد بن مسعود، المتوفى سنة ٣٢٠هـ.

٦ – (المقتل) لأبي الحسن محمد بن إبراهيم بن يوسف بن أحمد بن يوسف الكاتب، المولود سنة ٢٨١ هـ.

٧ – (المقتل) لعيسى بن مهران.

وهذه الكتب السابقة كلها مفقودة، أما الكتب الموجودة فمنها:

١ – (الطبقات) لابن سعد، المتوفى سنة ٢٣٠ هـ.

٢– (التاريخ) لخليفة بن خياط، المتوفى سنة ٢٤٠ هـ.

٣ – (تاريخ الأمم والملوك) لمحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ.

٤ – (المحن) لأبي عرب المتوفى سنة ٣٣٣ هـ.

٥– (تاريخ دمشق) لابن عساكر المتوفى سنة ٤٩٩هـ.

٦– (الكامل في التاريخ) لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ.

٧– (الرياض) النضرة للمحب الطبري، المتوفى سنة ٦٩٤ هـ.

٨– (التمهيد) والبيان في مقتل الشهيد عثمان، لمحمد بن يحيى بن محمد بن يحيى الأشعري المالكي المعروف بابن بكر، المتوفى سنة ٧٤١ هـ.

٩– (البداية والنهاية)، للحافظ ابن كثير، المتوفى سنة ٧٧٤ هـ.

هذا الكتاب

أفرَدَ سيفُ بن عمر هذا الكتابَ للحديث عن فتنة مقتل الخليفة عثمان بن عفان، بدءاً من الأحداث التي سبقت هذا الأمر ومهَّدت له، من تساهُل عثمان رضي الله عنه مع أهل المدينة والسماح لهم بالخروج منها بعدما كان عمر بن الخطاب يمنعهم من ذلك، وإقامة عثمان الحدودَ على بعض صغار الصحابة، ما أغار صدورَهم عليه، وتوسُّع عثمان في نفي وتسيير بعضهم خارج المدينة، والأهمُّ من ذلك كله ظهور الطابور الخامس بقيادة ابن سبأ اليهودي ومخططه لضرب الإسلام، ونجاحه في تحزيب ضعاف الإيمان من مِصر والكوفة والبصرة، وهو ما انتهى باجتماعهم المتفق عليه وحصارهم لبيت الخليفة وقتلهم إياه.

ثم أتبع سيفُ بنُ عمر هذا بما أصاب المسلمين في المدينة بعد مقتل عثمان على أيدي المنشقين والسبئيين من ترهيب وتفزيع حتى كانوا كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية، وكيف أنهم هدَّدوا عليّاً وكبارَ الصحابة في المدينة بالقتل إن لم يَقبل عليٌّ بالخلافة، وكيف أخذوا البيعةَ لعليٍّ منهم واللُّجُ (السيف) فوق الأعناق، وما تبع هذا من خروج بعضهم إلى مكة واجتماعهم على ضرورة القصاص من قتلة عثمان. وكيف تكوَّن جيشُ الزبير وطلحة وعائشة في مكة، وكيف وقع الاختيارُ على البدء بالبصرة، لإخراج من شاركوا من أهلها في حصار عثمان وقتلِه، ثم إتباع ذلك بسائر البلدان التي شاركت في دم عثمان،

وكيف تلقى أميرُ المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه هذا الخبر، وخروجُه لمقابلتهم في الطريق وإقناعهم بتأخير هذا المطلب حتى تتهيأ الظروف لهذا، وكيف أنهم فاتُوه إلى البصرة ودخلوها وقتلوا ستمائة من قتلة عثمان إلا واحداً، وكيف أن أمير المؤمنين أرسل إلى طلحة والزبير وعائشة بإغماد السيوف وحفظ دماء المسلمين والاكتفاء بما سال منها، وإيثار الألفة والجماعة، فأرسلوا إليه بالموافقة، فدخل بجيشه البصرة، وقابل الزبير وطلحة واتفقوا على ما كان بينهم من مراسلات، وبات كل منهم في معسكره راضياً بما توصلوا إليه من حل سلمي، وكيف أن السَّبئيين لم يرضُوا بهذا الصُّلح فأنشَبُوا القتال في الليل، وغدَّوه بالنهار، حتى كانت معركة الجَمَل التي كانت نتيجتها مقتل عشرة آلاف من المسلمين: خمسة آلاف من جيش أمير المؤمنين، وخمسة آلاف من جيش أم المؤمنين، أبرزهم طلحة والزبير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وما تعرض له جَمَلُ أم المؤمنين وهَوْدَجُها. وختم المؤلف بزيارة أمير المؤمنين أمَّ المؤمنين بعد الواقعة وإشرافه بنفسه على تأمين عودتها إلى المدينة في صحبة أبنائه.

التعريف بالمؤلف

سيف بن عمر التميمي (٩٠ – ١٨٠ هـ): من قدماء مؤرخي العرب، قال فيه الذهبي: «كان سيف إخباريًا عارفاً». ويعد أحد كبار من دون التاريخ العربي الإسلامي، وهو من طبقة ابن إسحاق وأبي مخنف. ضعَّفه المحدِّثون،

شأنه شأن الإخباريين، ولكنهم وثقوه في التاريخ، وفي ذلك قال ابن حجر:«ضعيف الحديث، عمدة في التاريخ».

عاش النصف الأول من حياته في المدينة المنورة، ثم غادرها إلى العراق. واستقر بمدينة الكوفة، وهناك أخذ عن شيوخها الكثير من معارفه الأدبية. وذاع صيته وهو حي، وقد نقل عنه المؤلفون المعاصرون له أمثال أبو مخنف (نحو ١١٠ – ١٧٠ هـ)، والشيعي نصر بن مزاحم (١٣٠ – ٢١٢ هـ). كما روى عنه خليفةُ بنُ خياط (١٦٠ – ٢٤٠ هـ)، كما نقل عنه آخرون بعد موته دون إسناد.

وقد وثقه المستشرق فريد دونر وعدَّه من كبار مؤرخي العرب. وقال فيه جواد علي: « سيف بن عمر: مؤرخ نشيط من مؤرخي القرن الثاني الهجري. كان مثل زملائه نهماً في التفتيش عن أخبار الماضين، وتتبع أمورهم، والكتابة عن الأموات مثل جماعتنا أصحاب التاريخ، لم يترك التاريخ حتى أحبه واصطفاه من بين الناس فمات سنة ١٨٠ الهجرة».

وقد اعتمد الطبري بشكل أساسي على كتاب "الردة والفتوح" لسيف، وورد اسم سيف في أكثر من (٣٠٠) موضع من تاريخ الطبري، فقد ورد لأول مرة في حوادث سنة ١٠ هـ وهي السنة التي بدأ مسيلمة فيها بادعاء النبوَّة في حياة الرسول. وورد اسمه لآخر مرة في حوادث سنة ٣٦ هـ عند ابتداء

عليٍّ بن أبي طالب بالخروج إلى صفين. كما اقتبس البلاذري عن سيف بعض الأخبار.

وكان سيفٌ وأبو مخنف يتفقان إذا نقلا نفس الخبر عن أساتذتهم المشتركين، ويختلفان إذا نقلا عن رجال قبائلهم، فنجد سيف يُعلي من تميمًا، وأبو مخنف يُعلي الأزد. يقول جواد علي: «كان سيف كأكثر أصحاب الأخبار عاطفيَّ المزاج، متعصباً لقبيلته، يرفع من شأنها، ويضيف إليها، ويجعلها بطلة في كل الحوادث، مثله في ذلك مثل أكثر مؤرخي زمانه، الذين أضافوا إلى قبائلهم ما لا يدخل في حسابها».

وقد ولد سيفٌ في حدود سنة ٩٠ هـ، وقد نشأ وتلقى تعليمه الأولي في المدينة المنوَّرة، وأخذ عن كبار علمائها وبخاصة في أخبار الرِّدة، أمثال: الإخباري والمحدِّث القاسم بن محمد –حفيد الخليفة أبي بكر– وقد أخذ عنه بعض أخباره، فلما مات القاسم سنة ١٠٧ هـ، أخذ سيفٌ كثيرًا عن تلميذه سهل بن يوسف الأنصاري، وسهلٌ هذا له نقوش باسمه في المدينة المنورة. وأخذ سيف عن عبد الله بن سعيد الأنصاري حفيد ثابت بن الجذع المقتول في غزوة حنين. وأخذ سيفٌ عن كبار الإخباريين المدنيين أمثال: موسى بن عقبة، كما أخذ عن هشام بن عروة كثيرًا. وروى عن عبيد الله بن عمر العمري وخلقٍ من أهل المدينة المنورة.

ثم غادر سيفٌ المدينةَ المنورة إلى العراق أواخر خلافة بني أمية، وارتحل إلى الكوفة نحو سنة ١٣٠ هـ، كما ارتحل في تلك الفترة أيضًا محمد بن إسحاق وأبو معشر المدني. وأخذ سيفٌ عن أهل الكوفة والعراق، فسمع من جابر بن يزيد الجعفي (ت ١٣٢ هـ) وروى عنه عدة روايات. وجالس المغيرة بن مقسم الضبي (ت ١٣٤ هـ) وروى عنه. وأخذ عن المستنير بن يزيد النخعي (٥٠ – ١٣٥ هـ) وهو حفيد الصحابي أرطاة بن كعب النخعي صاحب لواء النخع في معركة القادسية الذي قُتل وأخذ اللواء أَخوه دريد بن كعب فقُتلَ أيضًا، وفي تاريخ الطبري روى سيفٌ عن المستنير (١٥ رواية) فيها خبر ردة اليمن وبلاء نخع في القادسية وغيره. وأخذ عن المعمر عبد الملك بن عمير (٣٣ هـ – ١٣٦ هـ) عدة روايات.

وأخذ سيفٌ عن القاضي أشعث بن سوار الكوفي (ت ١٣٦ هـ) عدة روايات. وأخذ عن أبي إسحاق الشيباني (ت ١٣٨ هـ). وأخذ عن صاحب التفسير عطية بن الحارث الهمداني (٥٠ هـ – ١٣٨ هـ)، الذي أدرك الصحابي عدي بن حاتم (نحو ٣٠ ق.هـ – ٦٨ هـ) وروى عنه، وكان عطية من كبار شيوخ سيف ونقل عنه عشرات الروايات وهي محفوظة في تاريخ الطبري، كما كان عطية من أساتذة أبي مخنف. وروى عن عثمان بن حكيم الأنصاري (١٣٩ هـ) بعض حديث.

وعن سعيد بن المرزبان البقال (ت ١٤٠ هـ) له نحو خمس عشرة رواية في تاريخ الطبري. وروى عن القاسم بن الوليد الهمداني (ت ١٤١ هـ) عدة روايات. وعن طلحة بن الأعلم الكوفي (ت ١٤٢ هـ) – تلميذ الشعبي – وأكثر سيفٌ عنه وروى عشرات الأخبار.

وكان أكبر أساتذة سيف في الكوفة مجالد بن سعيد (ت ١٤٤ هـ)، وقد روى عنه عشرات الروايات في تاريخ الطبري عن عامر الشعبي، وأشهر تلاميذ مجالد اثنان هما سيف وأبو مخنف وهما يكثران الرواية عنه، وحديثهما يتشابه عندما ينقلان عنه. وأخذ سيفٌ عن إسماعيل بن أبي خالد مولى بجيلة (ما يزيد على عشر روايات في الطبري).

وروى سيفٌ عن الأعمش (٦١ – ١٤٨) خمس روايات. وأخذ عن يونس بن أبي إسحاق (٧٠ – ١٥٩ هـ) وروى عنه عدة روايات.

وفي البصرة، أخذ عن خالد بن مهران (١٤١ هـ) عدة روايات. وعن محمد بن راشد السلمي (١٤٢ هـ) عدة روايات. وعن عاصم بن سليمان (١٤٢ هـ) روى عدة روايات. ونقل عن الإخباري البصري أبي بكر الهذلي (١٥٩ هـ) عدة روايات.

وله مؤلفات غير هذا الكتاب منها: كتاب الردة، والفتوح الكبير، والجمل.

وتوفي سيف بن عمر في خلافة هارون الرشيد وقد عاش طويلاً، وقيل إنه عمي في آخر حياته، وفي ذلك قال ابن حجر: «سيف بن عمر صاحب كتاب الردة، من الثامنة، مات في زمن الرشيد». رحمه الله.

ابن سَبأ والسَّبئية

تعرَّض سيفُ بنُ عمر لهجومٍ واسع (وبخاصة من باحثي العصر الحديث) من منكري شخصية عبدالله بن سبأ اليهودي (ابن السوداء) لأن سيفاً كان من أوائل من أفردوا لهذه الشخصية صفحات واسعة للحديث عن دوره في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه وتسيير الأحداث فيها وإنشاب القتال في معركة الجَمَل في البصرة. بل هناك من زعم انفراد سيف بن عمر من بين قدامى الإخباريين والمؤرخين بذكر تلك الشخصية في رواياته.

وقد ثبت بالبحث العلمي أن سيف بن عمر لم يكن المصدر الوحيد الذي استأثر بأخبار عبد الله بن سبأ، بل ورد ذكر أخبار ابن سبأ وطائفته منقولة عن علماء متقدمين ورواة غير سيف بن عمر مثل[1]:

- سويد بن غفلة أبو أمينة الجعفي الكوفي المتوفى عام (٨٥ هـ)، مخضرم ثقة، من أصحاب علي - رضي الله عنه - جاء في طوق الحمامة لحيي بن حمزة الزيدي واللفظ للبرقاني أنه دخل على علي في إمارته فقال: إني مررت بنفر

[1] انظر: عبد الله بن سبأ رأس الرفض في ميزان البحث العلمي. أ.د. محمد أمحزون.

يذكرون أبا بكر وعمر، يرون أنك تضمر لهما مثل ذلك، منهم عبد الله بن سبأ، فقال علي: ما لي ولهذا الخبيث الأسود، ثم قال: معاذ الله أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل، ثم أرسل إلى ابن سبأ فسيره إلى المدائن، ونهض إلى المنبر حتى إذا اجتمع الناس أثنى عليهما خيراً، ثم قال: أو لا يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلا جلدته حد المفتري.

- زيد بن وهب الجهني أبو سليمان الكوفي المتوفى قبل عام (٩٥هـ)، روى عن علي بن أبي طالب، وهو من جلة التابعين، متفق على الاحتجاج به، أخرج ابن عساكر في "تاريخ دمشق" عنه قال: قال علي بن أبي طالب: ما لي ولهذا الخبيث الأسود، يعني عبد الله بن سبأ، وكان يقع في أبي بكر وعمر.

- إبراهيم بن يزيد النخعي أبو عمران الكوفي الفقيه الثقة المتوفى عام (٩٦ هـ)، روى ابن سعد في "طبقاته" أن رجلاً كان يأتيه فيتعلم منه، فيسمع قوماً يذكرون أمر عليٍّ وعثمان، فقال: أنا أتعلم من هذا الرجل وأرى الناس مختلفين في أمر علي وعثمان، فسأل إبراهيم النخعي عن ذلك فقال : ما أنا بسبئي ولا مرجئ.

- الشعبي عمر بن شراحيل الحميري اليمني المتوفى عام (١٣٥هـ)، من رواة الأنساب والأخبار الثقات. أخرج عنه ابن عساكر في "تاريخ دمشق" قال: أول من كذب عبد الله بن سبأ.

– سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي المدني المتوفى عام (١٠٣ هـ)، كان أحد فقهاء التابعين، ثبتاً فاضلاً، روى يعقوب بن سفيان الفسوي في كتابه "المعرفة والتاريخ" قال: قال أبو الوليد: سألني سالم بن عبد الله بن عمر: ممن أنت؟ فقلت: من أهل الكوفة، فقال: بئس القوم بين سبئي وحروري.

– أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي الصحابي المعمَّر المتوفى عام (١١٠هـ)، روى عن علي بن أبي طالب، قال فيه الحافظ الذهبي: وبه ختم الصحابة في الدنيا. أخرج ابن عساكر عنه قال: رأيت المسيِّب بن نجبة أتى به ملبِّبَه، يعني ابن السوداء، وعليٌّ على المنبر، فقال عليٌ: ما شأنه؟ فقال : يكذب على الله ورسوله.

– حُجية بن عدي الكندي أبو الزعراء الكوفي، روى عن عليٍّ وجابر وهو من الطبقة الثالثة. ذكر ابن عساكر عنه أنه رأى علياً على المنبر، وهو يقول: من يعذرني من هذا الحميت الأسود الذي يكذب على الله ورسوله، يعني ابن السوداء.

– أبو الجلاس الكوفي، روى عن علي بن أبي طالب، من الطبقة الثالثة. نقل ابن عساكر عنه قال: سمعت علياً يقول لعبد الله بن سبأ: ويلك! والله ما أفضِيَ إليَّ بشيء كتمتُه أحداً من الناس، ولقد سمعتُه يقول: إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً وإنك لأحدهم.

– قتادة بن دعامة السدوسي المتوفى عام (١١٧ هـ)، من ثقات التابعين وحفَّاظهم، روى عن أبي الطفيل وأنس بن مالك، كان آية في الحفظ والرواية، نقل الإمام الطبري في تفسير قوله: وكان قتادة إذا قرأ هذه الآية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ قال: إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري.

– أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي المتوفى عام (١٥٧ هـ). نقل الإمام الطبري عنه في "تاريخه" رواية يصف فيها أشراف أهل الكوفة لخصومهم من أصحاب المختار بالسبئية.

ومن شيعة آل البيت المعاصرين زعم السيد مرتضى العسكري أنه ناقش جميع من ذهبوا إلى وجود عبد الله بن سبأ وخرج بنتيجة هي أن ابن سبأ (شخصية وهمية خرافية ابتدعها واختلقها سيف بن عمر) وصنف كتاباً خاصاً بابن سبأ بعنوان (عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى). وقد رد عليه كثيرون منهم الباحث سعدي بن مهدي الهاشمي في كتابه: (ابن سبأ حقيقة لا خيال)، ففنَّد شبهات مرتضى العسكري ورد عليها وعلى غيره من المعاصرين من مستشرقين وغيرهم[1]، ثم أفرد فصلاً بعنوان (موقف أهل بيت النبي الكريم من ابن سبأ)

[1] ومن غير المستشرقين: الدكتور طه حسين – الدكتور محمد كامل حسين – الدكتور حامد حفني داود – الشيعة الذين ينكرون ابن سبأ – محمد جواد مغنية – مرتضى العسكري – الدكتور علي الوردي – الدكتور كامل الشيبي – الدكتور عبد الله فياض – طالب الرفاعي.

قال فيه: وتصدى أهل بيت النبي الكريم لعبد الله بن سبأ كما تصدى له أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فكذَّبوه وتبرؤوا من مقالاته وضلاله:

– فقد روى الكشي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: "لعن الله عبد الله بن سبأ إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين وكان والله أمير المؤمنين عبد الله طائعا، الويل لمن كذب علينا وإن قوماً يقولون فينا ما لا نقول في أنفسنا نبرأ إلى الله منهم".

– وروى الكشي بسنده أيضاً عن علي بن الحسين: "لعن الله من كذب علينا إني ذكرت عبد الله بن سبأ فقامت كل شعرة في جسدي لقد ادَّعى أمراً عظيماً، ما له لعنه الله! كان عليٌّ عبداً لله صالحاً، أخا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما نال الكرامة من الله إلا بطاعته لله ولرسوله، وما نال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرامة إلا بطاعة الله".

– وروى أيضا الكشي بسنده عن أبي عبد الله: "إنا أهل بيت صديقون لا نخلوا من كذَّاب يكذب علينا ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق الناس لهجة وأصدق البرية كلها، وكان مسيلمة يكذب عليه وكان أمير المؤمنين أصدق من برأ الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الذي يكذب عليه ويعمل في تكذيب صدقه ويفتري على الله الكذب عبد الله بن سبأ لعنه الله". ا. هـ

عملي في هذا الكتاب

- اعتمدتُ نسخة "المكتبة الشاملة" في توثيق نص الكتاب، وهي نسخة موافقة للمطبوع، عن طبعة دار النفائس بتحقيق الأستاذ أحمد راتب عرموش.
- صحَّحتُ أخطاء نسخة الشاملة وهي كثيرة، وذلك بالرجوع إلى النسخة المحققة وكتب التاريخ الشهيرة التي ذكرت هذه الروايات مثل الطبري وابن عساكر وابن الأثير.
- أضفت عناوين فرعية زيادة على عناوين المحقق والطبري.
- خرَّجتُ الأحاديث النبوية الشريفة من كتب الأحاديث، وإذا جاء الحديث مختصراً أوردتُ روايتَه كاملةً مع الشرح المبسط له.
- عزوتُ الأبياتَ الشعرية الواردة في الكتاب إلى أصحابها قدر الإمكان وشرحت ما يحتاج منها إلى شرح.
- عرَّفتُ بالأعلام الذين وردت أسماؤهم في الكتاب.
- أوضحتُ معاني الكلمات والألفاظ والعبارات التي تحتاج إلى بيان وشرح وتفسير، من خلال كتب اللغة والمعاجم.
- ضبطتُ الضروريَّ من ألفاظ الكتاب، تيسيراً على القارئ المعاصر ومساعدةً له في إقامة اللغة التراثية المروية في الكتاب.

- هذا وإن الْمُطالع في كتب التاريخ كمن يمشي في أرض ذات شوك، فعليه أن ينتبه لقدميْه، وإلا فالنتيجة معروفة[1]، وكُتب التاريخ مُترعة بالصحيح والضعيف والموضوع؛ من أجل ذلك كنت أدقِّق في بعض الأخبار التي يظهر عليها جلياً الوضعُ والصَّنعة، معلقاً عليها برأيي فيها.

وهو المنهج الذي التزمتُه وأخذتُ به نفسي فيما وفَّقني الله في إخراجه من كتب التراث، في المشروع الذي تبنَّيتُه وسميتُه (سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصر) وهذا هو الكتاب الرابعَ عشرَ – بفضل الله – في هذه السلسلة[2]. رحم الله الخليفة عثمان بن عفان وإخوانه الشهداء الذين لحقوا

---

[1] النتيجة سماها ابن العربي في العواصم من القواصم: الموتُ الأحمر والداءُ الأكبر (لمن يصدق كل ما جاء فيها).

[2] وقد سبقه لي ثلاثة عشر عملاً في الجمع والدراسة والاختصار هي: (التعازي والمراثي للمبرد – محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني – الداء والدواء لابن القيم – أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي – النساء لابن قتيبة – بهجة المجالس لابن عبد البر – تهذيب تاريخ ابن خياط – مختصر زاد المعاد لابن القيم – قصة الإيمان منذ آدم حتى محمد – تحقيق العواصم من القواصم لابن العربي – حقوق آل البيت في مفهوم ابن تيمية – الشواهد الشعرية في معجم البلدان لياقوت الحموي – مختصر فضائل القرآن لأبي عبيد) إضافة إلى كتابين آخرين خارج السلسلة هما: علماء معاصرون نصروا الإسلام، وكتاب غرباء. وكلها كتب منشورة على مواقع نشر الكتب الإلكترونية مثل موقع: نور، وموقع فولة بوك (في صفحة: محمد علي أبو زهرة).

به نتيجة هذه الفتنة، وحقن دماء المسلمين ووحَّد كلمتهم، ورضي عن صحابة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، ومن تبعهم بإحسان، ونحن معهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبو زهرة

الكويت – مايو ٢٠٢٣م

أول الكتاب

تسيير[1] أهلِ الفتنة مِنَ الكوفة إلى الشام

قالَ سيفُ بنُ عُمَر[2]:

كان سعيدُ بنُ العاص[3] (والي عثمانَ على الكُوفة) لا يَغْشاه إلا نازلةُ أهل الكوفة ووجوهُ أهل الأيام وأهلُ القادسية وقرَّاءُ أهلِ البصرة والمتسَمِّتون[4]، وكان هؤلاء دَخَلَتَه[5] إذا خلا، فأمَّا إذا جَلَسَ للناسِ فإنه يَدْخُل عليه كلُّ أحد،

---

[1] التسيير: النفي والإبعاد خارج البلد. وقد بدأ عثمان مسألة النفي والتسيير سنه ٣٣هـ وفيها سير من سير من أهل العراق إِلَى الشام كما سيأتي.

٢ قدم سيف بن عمر كتابه بالمقدمات التي سبقت مقتل عثمان رضي الله عنه وانتهت بمقتله ومنها التوسع في سياسة النفي خارج البلد.

[3] سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي (٢ هـ – ٥٩ هـ): مات أبوه يوم بدر في جيش قريش، وهو صحابي صغير مات النبي صلى الله عليه وسلم وله تسع سنين، كان أحد أشراف قريش وأجوادها وفصحائها الممدَّحين، ولي الكوفة في عهد عثمان بن عفان قرابة خمس سنين، وغزا طبرستان فافتتحها، ولما وقعت فتنة الخلافة بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان اعتزل الفتنة، وأقام بمكة، وكان معاوية يقدمه من بين رجالات قريش، وولاه المدينة المنورة سنة ٤٢ هـ لأكثر من مرة مناوبةً مع مروان بن الحكم. مات سعيد في قصره بالعرصة على بعد ثلاثة أميال من المدينة ودفن في البقيع بناء على وصيته سنة ٥٩هـ.

[4] المتسمتون: أهل الخير والوقار. والسمت: حُسن الهيئة.

[5] خواصه الداخلين عليه.

فجلس للناسِ يوماً فدَخلوا عليه، فبَيْنا هم جلوسٌ يتحدَّثون قال خنيسُ بنُ فلان[1]: ما أجودَ[2] طلْحةَ بنَ عُبيدِ الله![3] فقال: سعيدُ بنُ العاص: إنَّ مَنْ له مثلُ النَّشاستَج[4] لَحقيقٌ أن يكونَ جَواداً، واللهِ لو أنَّ لي مثلَه لأعاشكم اللهُ عيشاً رغداً.

---

[1] خنيس بن فلان الأسدي.

[2] يعني ما أعظم جوده وكرمه، فهو جواد.

[3] طلحة بن عبيد اللَّه بن عثمان التيمي، القرشي المدني: صحابي، شجاع، من الأجواد، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وأحد الثمانية السابقين إلى الإسلام، ولد سنة ٢٨ هـ، كان من دهاة قريش ومن علمائهم، وكان يقال له ولأبي بكر: القرينان، وذلك لأن نوفل بن حارث وكان أشد قريش رأى طلحة وقد أسلم خارجاً مع أبي بكر من عند النبي صلى اللَّه عليه وسلم فأمسكهما وشدَّهما في حبل. ويقال له: طلحة الجود، وطلحة الخير، وطلحة الفياض، وكل ذلك لقَّبه به رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في مناسبات مختلفة، ودعاه مرة: الصَّبيح المِليح الفَصيح. شهد أُحُداً وثبت مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وبايعه على الموت، وأصيب بأربعة وعشرين جرحاً، وسَلِمَ، شهد الخندق وسائر المشاهد. كانت له تجارة وافرة مع العراق، ولم يكن يدع أحداً من بني تيم عائلاً إلا كفاه مؤونته ومؤونة عياله، ووفَّى دينه، قتل يوم الجَمل وهو بجانب عائشة سنة ٣٦ هـ، ودفن في البصرة.

[4] النشاستج: ضَيْعة بالكوفة كانت لطلحة بن عبيد الله التيمي، وكانت عظيمة الدخل اشتراها من أهل الكوفة المقيمين بالحجاز بما كان له بخيبر، وعمرها، فعظم دخلها.

فقال عبدُ الرحمن بنُ خُنَيْس[1] – وهو حَدَث[2] –: واللهِ لودِدْتُ أنَّ هذا الْمِلْطاطَ[3] لكَ[4] – يَعْنِي مَا كَانَ لآلِ كِسْرَى عَلَى جَانِبِ الْفُرَاتِ الَّذِي يَلِي الْكُوفَةَ – قَالُوا[5]: فَضَّ اللَّهُ فَاكَ! وَاللَّهِ لَقَدْ هَمَمْنَا بِكَ، فَقَالَ خُنَيْسٌ: غُلامٌ فَلا تُجَازُوهُ[6]، فَقَالُوا: يَتَمَنَّى لَهُ مِنْ سَوَادِنَا! قَالَ وَيَتَمَنَّى لَكُمْ أَضْعَافَهُ، قَالُوا: لا يَتَمَنَّى لَنَا وَلا لَهُ، قَالَ: مَا هَذَا بِكُمْ! قَالُوا: أَنْتَ وَاللَّهِ أَمَرْتَهُ بِهَا، فَثَارَ إِلَيْهِ

---

[1] تابعي روى عن عبد الله بن مسعود، وقَالَ: رأيت ابن مسعود نظيف الثوب طيب الريح.

[2] صغير السن.

[3] المِلطاط: ساحل النهر. وكان يقال لظهر الكوفة وما ولي الفرات منه الملطاط.

[4] يعني لسعيد بن العاص؛ حتى يجود بمثل ما كان يجود به طلحة بن عبيد اللَّه.

[5] يعني أعيان الكوفة ووجهاؤهم الحاضرون مجلس سعيد.

[6] يعني لا تؤاخذوه ولا تحاسبوه على ما قال.

الأَشْتَرُ[1]، وابنُ ذي الحبكة[2]، وجُندُب[3]، وصَعْصَعة[4]، وابنُ الكوَّاء[5]، وكُمَيلُ بنُ زياد[1]، وعُميرُ بن ضابئ[2] فَأَخَذُوهُ[3]، فَذَهَبَ أَبُوهُ لِيَمْنَعَه مِنْهُم فَضَرَبُوهُمَا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِمَا، وَجَعَلَ سَعِيدٌ يُنَاشِدُهُمْ وَيَأْبَوْنَ، حَتَّى قَضَوْا مِنْهُمَا وَطَرًا.

---

[1] مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي، المعروف بالأشتر: كان رئيس قومِه، أدرك الإسلام، سكن الكوفة، وكان له نسل فيها، أصيب في معركة اليرموك فشُترت عينُه بالسيف فعُرف بالاشتر. كان ممن ألَّبَ على عثمان وحضر حصاره في المدينة وشارك في قتله، شهد يوم الجَمَل، وأيام صفِّين مع عليٍّ رضي الله عنه، وولاَّه على مصر فقصدها، فمات في الطريق سنة ٣٧ هـ.

[2] ابن ذي الحبكة كعب بن ذي الحبكة النهدي: شاعر من أهل الكوفة، في صدر الاسلام. اتهم بما يسمى ''النيرنج'' من أنواع السحر. وبلغ خبرُه الخليفةَ عثمان بن عفان. فأرسل إلى الوليد بن عقبة (والي الكوفة) ليسأله فإن أقر بذلك فليوجعه ضرباً ويغرِّبه ففعل الوليد وأقر كعب فضربه وغرَّبه إلى دنباوند (وهو جبل شاهق قرب الري) فظل فيه إلى أن عزل الوليد (سنة ٢٩) فأطلقه خلفُه وأكرمه. فلما كانت الفتنة في المدينة، وقتل عثمان، كان ابن ذي الحبكة من رؤوس تلك الفتنة.

[3] جُندب بن زهير الأزدي الكوفي: شهد صفين مع عليٍّ أميراً، كان على الرجَّالة، فقُتل يومئذ.

[4] صعصعة بن صوحان بن الحارث بن عبد القيس العبدي. وأخوه زيد بن صوحان، وهما معروفان بـ (ابنا صوحان) وآل صوحان من أسرة تنتمي إلى قبيلة (عبد القيس) من (ربيعة) التي عرفت بولائها الخالص لأمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه. ولصعصعة أخوان هما: زيد وسيحان، أما زيد فقد استشهد مع أمير المؤمنين في موقعة الجمل عام (٣٦ هجرية) واستشهد معه أخوه سيحان في نفس الواقعة.

[5] عبد الله بن الكواء اليشكري: كان من رؤوس الخوارج، وله أخبار كثيرة مع عليٍّ وكان يلزمه ويعنِّته في الأسئلة. وقد رجع عن مذهب الخوارج وعاود صحبة عليٍّ رضي الله عنه.

[1] كُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ النَّخْعِيُّ الكُوْفِيُّ (١٢ – ٨٢ هـ): ولد باليمن وأسلم صغيرًا وأدرك النبي ولم يره، ارتحل مع قبيلته إلى الكوفة في بدء انتشار الإسلام، كان من سادات قومه، وله مكانة ومنزلة عظيمة عندهم، ابتدأ ظهوره في عهد عثمان بن عفان، إذ كان أحد أعضاء الوفد القادم من الكوفة للاحتجاج على تصرفات والي الكوفة عند عثمان. بايع عليَّ بن أبي طالب بعد مقتل عثمان، وأخلص في البيعة، وكان من ثقاته.

[2] عُمَيْر بن ضابئ بن الحارث البرجمي الحنظلي التميمي: شاعر من سكان الكوفة. كان أبوه قد مات في سجن عثمان بن عفان، لقتله صبياً بدابَّته، ولهجائه قوماً من الأنصار. وعلم الحجاج الثقفي بعد ذلك، وهو في الكوفة، أن عميراً هذا كان ممن دخل على «عثمان» يوم مقتله، ووطئه برجله، وأن أباه هو القائل وهو في السجن:

هممتُ ولم أفعَل، وكدتُ، وليتني تركت على عثمانَ تبكي حلائلهْ

وَقَائِلَةٍ: لاَ يُبْعِدُ اللهُ ضَابِئًا وَلاَ يَبْعُدَنْ أَخْلاَقُهُ وَشَمَائِلُهْ

فأمر الحجاج بضرب عنقه سنة ٧٥ هـ وهو شيخ كبير.

[3] أي بطشوا به.

فَسَمِعَتْ بِذَلِكَ بَنُو أَسَدٍ، فجاءوا[1] وفيهم طُلَيْحَةُ[2]، فَأَحَاطُوا بِالْقَصْرِ، وَرَكِبَتِ الْقَبَائِلُ، فَعَاذُوا[3] بِسَعِيدٍ، وقالوا: أفلِتْنا وخلِّصْنا.

فخرج سعيدٌ إلى الناسِ فقال: أيُّها الناسُ! قومٌ تنازَعوا وتهاوَوا[4]، وقد رَزَقَ اللهُ العافيةَ[5].

---

[1] جاءوا حَمِيَّة قبليَّة لخنيس وولده لأنهما أسديَّان.

[2] طُلَيْحة بن خويلد الأسدي، من أسد خزيمة: متنبِّئ (ادعى النبوة)، شجاع، من الفصحاء، توفي سنة ٢١ هـ. يقال له: طُلَيْحة الكذاب، كان من أشجع العرب، يُعَدُّ بألف فارس، قدم على النبي صلى اللَّه عليه وسلم في وفد بني أسد سنة ٩ هـ، وأسلموا، ولما رجعوا ارتد طُلَيْحة، وادَّعى النبوة في حياة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فوجَّه إليه ضرار بن الأزور، فضربه ضرار بسيف يريد قتله، فنبا السيف، فشاع بين الناس أن السلاح لا يؤثر فيه. ومات النبي صلى اللَّه عليه وسلم فكثر أتباع طُلَيْحة من أسد وغطفان وطيئ وكان يقول: إن جبريل يأتيه، وتلا على الناس أسجاعاً أمرهم فيها بترك السجود في الصلاة وكانت رايته حمراء. طمع بامتلاك المدينة، فهاجر بعض أشياعه، فردهم أهلها، غزاه أبو بكر وسيَّر إليه خالد بن الوليد فانهزم طُلَيْحة وفرَّ إلى الشام، ثم أسلم بعد أن أسلمت أسد وغطفان كافة، وفد على عمر وبايعه في المدينة، وخرج إلى العراق، فَحَسن بلاؤه في الفتوح، واستشهد بنهاوند.

[3] أي الملأ الذين كانوا في مجلس سعيد وضربوا خنيساً وولده.

[4] تهاووا: استجابوا لهواهم في النزاع.

[5] تعبير قديم معناه أن الله سلَّم ومضت الأمور بخير ومعافاة.

ثم قعدُوا وعادُوا في حديثِهم وتراجَعُوا[1]، فساءَهمْ وردَّهم[2]. وأفاق الرجلانِ فقال: أبِكما حياةٌ؟ قالا: قتلَتْنا غاشيتُك[3]، قال: لا يَغْشَوني والله أبداً، فاحفَظا عليَّ ألسنتَكما ولا تجرِّئا عليَّ الناسَ، ففَعَلا.

ولما انقطع رجاءُ أولئك النَّفَر مِنْ ذلك[4] قَعدوا في بيوتهم وأقبلوا على الإذاعة[5]، حتى لامَه أهلُ الكوفةِ في أمرِهم فقال: هذا أميرُكم وقد نهاني أن أحرِّك شيئاً، فمن أراد منكم أنْ يحرِّك شيئاً فليحرِّكْه.

---

[1] يعني تعاتبوا.

[2] يعني منعهم سعيد عن الخوض فيما شجر بينهم.

[3] غاشيتك: الذين يترددون عليك.

[4] يعني الذين منعهم سعيد من حضور مجلسه.

[5] وقيل: بل كان السبب في ذلك أنه كان يسهر عند سعيد بن العاص وجوه أهل الكوفة منهم مالك بن كعب والأسود بن يزيد ، وعلقمة بن قيس، ومالك الأشتر وغيرهم. فقال سعيد: إنما هذا السواد بستان قريش، فقال الأشتر: أتزعم أن السواد الذي أفاءه اللَّه علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك، وتكلم القوم معه. فقال عبد الرحمن الأسدي وكان على شرطة سعيد: أتردون على الأمير مقالته؟ وأغلظ عليهم. فقال الأشتر: مَنْ ههنا؟ لا يفوتنكم الرجل، فوثبوا عليه، فوطأوه وطءاً شديداً حتى غُشي عليه. ثم جرّوه برجله فنُضِح بماء فأفاق. فقال: قتلتني من انتخبت. فقال: واللَّه لا يسمر عندي أحد أبداً، فجعلوا يجلسون في مجالسهم يشتمون عثمان وسعيداً. واجتمع إليهم الناس حتى كثروا، فكتب سعيد وأشراف أهل الكوفة إلى عثمان في إخراجهم. ومن هنا يتضح أن الفتنة قد بلغت عندئذٍ حداً عظيماً في الكوفة فضعف مركز الوالي، ولم يقدر أن يؤدبهم، حتى

فكتب أشرافُ أهلِ الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمانَ في إخراجِهم، فكتب: إذا اجتمع مَلَؤكم[1] على ذلك فألحِقوهم بمعاويةَ.

فأخرَجوهم فذَلُّوا وانقادُوا، حتى أتوْه[2] – وهم بضعةَ عشرَ – فكتبُوا بذلك إلى عثمانَ، وكتب عثمانُ إلى معاويةَ: إنَّ أهلَ الكوفة قد أخرَجُوا إليك نفراً خُلِقوا للفتنة، فرُعْهم[3] وقمْ عليهم، فإنْ آنستَ منهم رُشْداً فاقبَلْ منهم، وإن أعيَوْك فاردُدْه عليهم.

فلما قدِموا على معاويةَ رَحَّب بهم وأنزلهم كنيسةً تُسمى "مريم"[4]، وأجرى عليهم بأمرِ عثمانَ ما كان يجري عليهم بالعراق، وجَعل لا يزال يتغدَّى ويتعشَّى معهم.

فقال لهم يوماً: إنكم قومٌ من العَرب لكم أسنانٌ وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شَرفاً وغلبتمُ الأممَ وحَويتمْ مراتبَهم ومَواريثَهم، وقد بَلَغني أنكم نقمْتُم

اجترأوا أن يضربوا من رد عليهم ضرباً مبرِّحاً من غير أن يستطيع أن يبدي حراكاً، ولما منع الاجتماع أخذوا يشتمونه ويشتمون الخليفة (انظر: عثمان بن عفان ذو النورين. لمحمد رضا).

[1] الملأ: جماعة القوم وأشرافهم.

[2] يعني معاوية.

[3] يعني خوِّفهم.

[4] كاتدرائية القديسة مريم، في مدينة دمشق بالقرب من الباب الشرقي: واحدةً من أقدم الكنائس الأرثوذكسية وأجملها في بلاد الشام.

قريشاً[1]، وإنَّ قريشاً لو لم تكن عُدُتم أذلةً كما كنتم، إنَّ أئمتَكم لكم إلى اليوم جُنَّة[2] فلا تشذُّوا عن جُنَّتكم، وإنَّ أئمتَكم اليومَ يصبرون لكم على الجَوْر ويحتملون منكم المؤونة[3]، واللهِ لتنتهُنَّ أو لَيبتلينَّكم اللهُ بمن يسومُكم ثم لا يحمدُكم على الصبر[4]، ثم تكونون شركاءَ لهم فيما جررْتم على الرعيَّة في حياتِكم وبعد موتِكم.

فقال رجلٌ مِنْ القوم[5]: أمَّا ما ذكرتَ مِنْ قريشٍ فإنها لم تكن أكثرَ العرب ولا أمنعَها في الجاهلية فتخوِّفَنا، وأما ما ذكرتَ من الجُنَّة فإن الجُنَّة إذا اختُرِقَتْ خُلِصَ إلينا.

فقال معاويةُ: عرفتُكم الآن، علمتُ أنَّ الذي أغراكم على هذا قِلةُ العقول، وأنتَ خطيبُ القوم ولا أرى لكَ عقلاً، أعَظِّمُ عليكَ أمرَ الإسلام وأذكِّرُكَ به وتذكِّرُني الجاهليةَ! وقد وعظتُك، وتزعم لَمَا يُجِنَّك أنه يُخترَق، ولا يُنسب ما يُخترق إلى الجُنَّة! أخزى اللهُ أقواماً أعظَموا أمرَكم ورَفَعوا إلى خليفتِكم،

---

[1] يعني عَابوها وكَرِهوها أشَدّ الكَراهَة.

[2] جنة: وقاية.

[3] يعني يتحملون عنكم تكاليف عيشكم.

[4] يسومُكم ثم لا يحمدُكم على الصبر: يعني يهينكم.

[5] هو صعصعة بن صوحان.

افقهوا – ولا أظنُّكم تفقهون – أنَّ قريشاً لم تُعزَّ في جاهليةٍ ولا إسلام إلا باللهِ عزَّ وجلَّ، لم تكن بأكثرِ العربِ ولا أشدَّهم، ولكنهم كانوا أكرمَهم أحساباً وأمحضَهم أنساباً وأعظمَهم أخطاراً وأكملَهم مُروءةً، ولم يمتنِعوا في الجاهليةِ والناسُ يأكلُ بعضُهم بعضاً إلا باللهِ الذي لا يُستَذَلُّ مَنْ أعزَّ ولا يوضَعُ من رَفَعَ، فبوَّأهم حَرَماً آمناً يُتخطَّفُ الناسُ من حولهم، هل تعرفون عَرباً أو عَجماً أو سُوداً أو حُمراً إلا قد أصابه الدَّهرُ في بلدِه وحُرمتِه بدولةٍ[1]، إلا ما كان مِنْ قريشٍ فإنه لم يُرِدْهم أحدٌ من الناس بكيدٍ إلا جعل اللهُ خدَّه الأسفلَ، حتى أراد اللهُ أنْ يستنقِذَ مَنْ أكرمَ واتَّبَع دينَه مِنْ هَوانِ الدنيا وسُوءِ مَرَدِّ الآخرة، فارتضى لذلك خيرَ خَلْقِه[2]، ثم ارتضى له أصحاباً فكان خيارُهم قريشاً، ثم بنى هذا الْمُلكَ عليهم، وجعلَ هذه الخلافةَ فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان اللهُ يحوطُهم في الجاهليةِ وهم على كفرِهم باللهِ، أفتراهُ لا يحوطُهم وهم على دينِه؟ وقد حاطهم في الجاهلية مِنَ الملوك الذين كانوا يدينونكم! أفٍّ لكَ ولأصحابِك! ولو أنَّ متكلماً غيرَك تكلَّم ولكنَّكَ ابتدأتَ، فأمَّا أنت يا صَعْصَعةُ فإن قريتَك شَرُّ قُرى عربية[3]: أنتنُها نَبتاً وأعمقُها وادياً وأعرفُها بالشرِّ وألأمُها جيراناً، لم يسكنْها شريفٌ قطُّ ولا وضيعٌ إلا

---

[1] دال الزمان دولة: انقلب من حال إلى حال. وأصابه الدهر بدولة: أي غيَّر حاله إلى أسوأ.

[2] صلى الله عليه وسلم.

[3] كان صعصعة من بلدة القطيف على ساحل الخليج.

سُبَّ بها وكانت عليه هُجْنةً[1]، ثم كانوا أقبحَ العربِ ألقاباً وألأمَها أصهاراً، نِزاعُ الأمم[2] وأنتم جيرانُ الخَطِّ وفَعَلةُ فارِس[3]، حتى أصابتْكم دعوةُ[4] النبي صلى الله عليه وسلم ونَكبَتْكَ[5] دعوتُه، وأنت نزيعٌ شطيرٌ[6] في عُمان لم تسكنِ البحرينَ فتشرَكَهم في دعوة النبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ فأنت شرُّ قومِك، حتى إذا أبرزك الإسلامُ وخلَطكَ بالناس وحمَلَك على الأمم التي كانت عليكَ أقبلتَ تبغي دينَ الله عِوَجاً وتنزِع إلى اللآمة[7]! ولا يَضَع ذلك قريشاً[8]، ولن يضرَّهم ولن يمنعَهم من تأدية ما عليهم. إنَّ الشيطانَ عنكم غيرُ غافل، قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناسَ وهو صارعُكم. لقد علم أنه لا يستطيع أنْ يردَّ بكم قضاءً قضاه اللهُ ولا أمراً أراده اللهُ، ولا تُدرِكون بالشرِّ أمراً أبداً إلا فتح اللهُ عليكم شَرّاً منه وأخزى.

---

[1] الهجنة: العيب.

[2] نزاع: جمع نازع، والنازع والنزيع: الغريب.

[3] فعلة: عمال وخدم.

[4] دعوة الإسلام. وقد يكون المقصود دعاء النبي لأهل البحرين بأن يسلموا.

[5] نكبتك: ابتعدت عنك.

[6] الشطير: الغريب.

[7] اللآمة: اللؤم.

[8] لا يضع ذلك قريشا: لا يخفض منزلتها.

ثُمَّ قَامَ وَتَرَكَهُمْ، فَتَذَامَرُوا، فَتَقَاصَرَتْ إِلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَاهُمْ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ فَاذْهَبُوا حَيْثُ شئتم، لا واللهِ لا ينفعُ اللهُ بِكُمْ أَحَدًا وَلا يَضُرُّهُ، وَلا أَنْتُمْ بِرِجَالِ مَنْفَعَةٍ وَلا مَضَرَّةٍ، وَلَكِنَّكُمْ رِجَالُ نَكِيرٍ وَبُعْدٍ، فَإِنْ أَرَدْتُمُ النَّجَاةَ فَالْزَمُوا جَمَاعَتَكُمْ، وَلْيَسَعْكُمْ مَا وَسِعَ الدَّهْمَاءَ[1]، وَلا يُبْطِرَنَّكُمُ الإِنْعَامُ، فَإِنَّ الْبَطَرَ لا يَعْتَرِي الْخِيَارَ، اذْهَبُوا حَيْثُ شِئْتُمْ، فَإِنِّي كَاتِبٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ.

فَلَمَّا خَرَجُوا دَعَاهُمْ فَقَالَ: إِنِّي مُعِيدٌ عَلَيْكُمْ، إِنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كَانَ مَعْصُومًا فَوَلَّانِي، وَأَدْخَلَنِي فِي أَمْرِهِ، ثُمَّ اسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَلَّانِي، ثُمَّ اسْتُخْلِفَ عُمَرُ فَوَلَّانِي، ثُمَّ اسْتُخْلِفَ عُثْمَانُ فَوَلَّانِي، فَلَمْ أَلِ لأَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَمْ يُوَلِّنِي إِلا وَهُوَ رَاضٍ عَنِّي، وَإِنَّمَا طَلَبَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لِلأَعْمَالِ أَهْلَ الْجَزَاءِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ وَالْغَنَاءِ[2]، وَلَمْ يَطْلُبْ لَهَا أَهْلَ الاجْتِهَادِ وَالْجَهْلِ بِهَا وَالضَّعْفِ عَنْهَا، وَإِنَّ اللَّهَ ذُو سَطَوَاتٍ وَنَقَمَاتٍ يَمْكُرُ بِمَنْ مَكَرَ بِهِ، فَلا تَعْرِضُوا لأَمْرٍ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ غَيْرَ مَا تُظْهِرُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ غَيْرُ تَارِكِكُمْ حَتَّى يَخْتَبِرَكُمْ وَيُبْدِي لِلنَّاسِ سَرَائِرَكُمْ، وَقَدْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: «الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ».

---

[1] الدهماء: العوام.

[2] الغناء: الكفاية والقدرة.

وَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عُثْمَانَ: إِنَّهُ قَدِمَ عَلَيَّ أَقْوَامٌ لَيْسَتْ لَهُمْ عُقُولٌ وَلا أَدْيَانٌ، أَثْقَلَهُمُ الإِسْلامُ، وَأَضْجَرَهُمُ الْعَدْلُ، لا يُرِيدُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ، وَلا يَتَكَلَّمُونَ بِحُجَّةٍ، إِنَّمَا هَمُّهُمُ الْفِتْنَةُ وَأَمْوَالُ أَهْلِ الذِّمَّةِ، وَاللَّهُ مُبْتَلِيهِمْ وَمُخْتَبِرُهُمْ، ثُمَّ فَاضِحُهُمْ وَمُخْزِيهِمْ، وَلَيْسُوا بِالَّذِينَ يَنْكُونَ[1] أَحَدًا إِلا مَعَ غَيْرِهِمْ، فَانْهَ سَعِيدًا وَمَنْ قِبَلَهُ عَنْهُمْ، فَإِنَّهُمْ ليسُوا أكثرَ مَنْ شَغِبَ أَوْ تَكَبَّرَ.

وَخَرَجَ الْقَوْمُ مِنْ دِمَشْقَ فَقَالُوا: لا تَرْجِعُوا إِلَى الْكُوفَةِ، فَإِنَّهُمْ يَشْمَتُونَ بِكُمْ، وَمِيلُوا بِنَا إِلَى الْجَزِيرَةِ[2]، وَدَعُوا الْعِرَاقَ وَالشَّامَ فَاءْوُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ.

وَسَمِعَ بِهِمْ عبدُ الرحمن بنُ خالدِ بنِ الوليد[3] – وكان مُعَاوِيَةُ قَدْ وَلَّاهُ حِمْصَ وَوَلَّى عَامِلَ الْجَزِيرَةِ حَرَّانَ وَالرَّقَّةَ – فَدَعَا بِهِمْ، فَقَالَ: يَا آلَةَ الشَّيْطَانِ، لا مَرْحَبًا بِكُمْ وَلا أَهْلاً! قَدْ رَجَعَ الشَّيْطَانُ مَحْسُورًا وَأَنْتُمْ بَعْدُ نِشَاطٌ، خَسَّرَ اللهُ عبدَ الرحمن إِنْ لم يؤدِّبْكم حَتَّى يُحَسِّرَكُمْ، يَا مَعْشَرَ مَنْ لا أَدْرِي أَعَرَبٌ أَمْ عجَمٌ، لِكَيْ لا تَقُولُوا لِي مَا يَبْلُغُنِي أَنَّكُمْ تَقُولُونَ لِمُعَاوِيَةَ، أَنَا ابْنُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ،

---

[1] نكَأَ العدوَّ: جَرَحَهَ وقَتَلَه وأصابه.

[2] الجزيرة الفراتية، شمال شرق سوريا.

[3] ابن الصحابي البطل خالد بن الوليد.

أَنَا ابْنُ مَنْ قَدْ عَجمَتْهُ الْعَاجِمَاتُ[1] أنا ابنُ فاقِئِ الرِّدَّة[2]، والله لئن بَلَغني يا صَعْصَعةُ بنَ ذُلٍّ[3] أنَّ أحداً ممن معي دقَّ أنفَكَ ثم أمَصَكَّ[4] لأطُيِّرَنَّ بك طَيْرَةً بَعيدةَ المهوَى[5]. فَأَقَامَهُمْ أَشْهُرًا كُلَّمَا رَكِبَ أَمْشَاهُمْ، فَإِذَا مَرَّ بِهِ صَعْصَعَةُ قال: يابنَ الْحُطَيْئَةِ[6]، أَعَلِمْتَ أَنَّ مَنْ لَمْ يُصْلِحْهُ الْخَيْرُ أَصْلَحَهُ الشَّرُّ! مَا لَكَ لا تَقُولُ كَمَا كَانَ يَبْلُغُنِي أَنَّكَ تَقُولُ لِسَعِيدٍ وَمُعَاوِيَةَ! فَيَقُولُ وَيَقُولُونَ: نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ، أَقِلْنَا[7] أَقَالَكَ اللَّهُ! فَمَازَالُوا بِهِ حَتَّى قَالَ: تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ.

وَسَرَّحَ الأَشْتَرَ إِلَى عُثْمَانَ، وَقَالَ لَهُمْ: مَا شِئْتُمْ، إِنْ شِئْتُمْ فَاخْرُجُوا، وَإِنْ شِئْتُمْ فَأَقِيمُوا. وَخَرَجَ الأَشْتَرُ، فَأَتَى عُثْمَانَ بِالتَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ وَالنُّزُوعِ عَنْهُ وَعَنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: سَلَّمَكُمُ اللَّهُ.

---

[1] يعني قوَّته الشدائد وعجمت عوده فازداد صلابة.

[2] كان خالد بطل حروب الردة وقتال المرتدين.

[3] تحقيراً له.

[4] أمصَّك: كلمة مستقبحة كانت تقال في مواقف السب، ومعناها: قال له مُصَّ بظْر أمِّك.

[5] كلمة تهديد.

[6] الحطيئة: القصير الدميم. وقد وردت الكلمة في بعض الروايات: الحَطيئة.

[7] سامحنا.

وَقَدِمَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ، فَقَالَ عُثْمَانُ لِلأَشْتَرِ: احْلِلْ حَيْثُ شِئْتَ، فَقَالَ: مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَالِدٍ، وَذَكَرَ مِنْ فَضْلِهِ، فَقَالَ: ذَاكَ إِلَيْكُمْ، فَرَجَعَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ[1].

وفي رواية أخرى:

لما قدِم مُسَيَّرَةُ[2] أهلِ الكوفةِ علَى مُعَاوِيَةَ، أَنْزَلَهُمْ دَارًا، ثُمَّ خَلا بِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ وَقَالُوا لَهُ، فَلَمَّا فَرَغُوا قَالَ: لَمْ تُؤْتَوْا إِلا مِنَ الْحُمْقِ، وَاللَّهِ مَا أَرَى مَنْطِقًا سَدِيدًا، وَلا عُذْرًا مُبِينًا، وَلا حِلْمًا وَلا قُوَّةً، وَإِنَّكَ يَا صَعْصَعَةُ لأَحْمَقُهُمْ، اصْنَعُوا وَقُولُوا مَا شِئْتُمْ مَا لَمْ تَدَّعُوا شَيْئًا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ يُحْتَمَلُ لَكُمْ إِلا مَعْصِيَتَهُ، فَأَمَّا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ فَأَنْتُمْ أُمَرَاءُ أَنْفُسِكُمْ.

فَرَآهُمْ بَعْدُ وَهُمْ يَشْهَدُونَ الصَّلاةَ، وَيَقِفُونَ مَعَ قَاصِّ الْجَمَاعَةِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ يَوْمًا وَبَعْضُهُمْ يُقْرِئُ بَعْضًا، فَقَالَ: إِنَّ فِي هَذَا لَخَلَفًا مِمَّا قَدِمْتُمْ بِهِ عَلَيَّ مِنَ النِّزَاعِ إِلَى أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، اذْهَبُوا حَيْثُ شِئْتُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ لَزِمْتُمْ جَمَاعَتَكُمْ سَعِدْتُمْ بِذَلِكَ دُونَهُمْ، وَإِنْ لَمْ تَلْزَمُوهَا شَقِيتُمْ بِذَلِكَ دُونَهُمْ، وَلَمْ تَضُرُّوا أَحَدًا، فَجَزَوْهُ خَيْرًا[3] وأثْنَوا عليه، فقال: يابنَ الْكَوَّاءِ، أَيُّ رَجُلٍ أَنَا؟ قَالَ: بَعِيدُ الثَّرَى،

---

[1] ذلك أن عبد الرحمن بن خالد قد كان أشد عليهم من معاوية، وقد تابوا على يديه.

[2] المسيَّرة: المنفيون.

[3] قالوا له: جزاك الله خيراً.

كَثِيرُ الْمَرْعَى، طَيِّبُ الْبَدِيهَةِ، بَعِيدُ الْغَوْرِ، الْغَالِبُ عَلَيْكَ الْحِلْمُ، رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلامِ، سُدَّتْ بِكَ فُرْجَةٌ مُخُوفَةٌ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِ الإِحْدَاثِ مِنْ أَهْلِ الأَمْصَارِ فَإِنَّكَ أَعْقَلُ أَصْحَابِكَ، قَالَ: كَاتَبْتُهُمْ وَكَاتَبُونِي، وَأَنْكَرُونِي وَعَرَفْتُهُمْ، فَأَمَّا أَهْلُ الإِحْدَاثِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فَهُمْ أَحْرَصُ الأُمَّةِ عَلَى الشَّرِّ، وَأَعْجَزُهُ عَنْهُ، وَأَمَّا أَهْلُ الإِحْدَاثِ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَإِنَّهُمْ أَنْظَرُ النَّاسِ فِي صَغِيرٍ، وَأَرْكَبُهُ لِكَبِيرٍ، وَأَمَّا أَهْلُ الإِحْدَاثِ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَإِنَّهُمْ يَرِدُونَ جَمِيعًا، وَيَصْدُرُونَ شَتَّى، وَأَمَّا أَهْلُ الإِحْدَاثِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ فَهُمْ أَوْفَى الناسِ بشرٍّ، وَأَسْرَعُهُ نَدَامَةً، وَأَمَّا أَهْلُ الإِحْدَاثِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَأَطْوَعُ النَّاسِ لِمُرْشِدِهِمْ، وَأَعْصَاهُ لِمُغْوِيهِمْ.

تسيير المشاغبين من أهل البَصرة إلى الشام:

لَمَّا مَضَى من إمارةِ ابنِ عامر[1] (والي عثمانَ على البصرة) ثلاثُ سنينَ بلَغَه أنَّ في عبدِ القيْس[2] رجلاً نازلاً على حُكَيْم بنِ جَبَلة[3] وكان حُكَيْمُ بنُ جَبَلةَ

---

[1] عبد الله بن عامر بن كريز: صحابي جليل فتح جميع إقليم خراسان وكان والياً على البصرة في عهد عثمان حتى عزله معاوية، وهو شريفٌ في قومه بارٌ بهم جوادٌ كريمٌ من أجود رجال قريش والعرب.

[2] قبيلة عبدالقيس ينحدر منها أهل البحرين قديماً.

[3] حُكَيْم بن جَبَلة العَبْدي: هو حكيم بن جبلة بن حصن بن أسود بن كعب العبدي من بني عبد القيس. أحد المنتفضين ضد عائشة حين جاءت إلى البصرة، حيث هب ومعه جمع من سبعمائة

رجلاً لصّاً إذا قفلتِ الجيوشُ خَنَسَ عنهم فسَعَى في أرضِ فارس، فيُغِير على أهلِ الذِّمة ويتنكَّر لهم ويُفسِد في الأرض ويُصيب ما شاء ثم يَرجِع، فشكاه أهلُ الذِّمة وأهل القِبْلة[1] إلى عثمانَ، فكتب إلى عبدِ الله بنِ عامر: أنِ احبِسْه ومَنْ كان مثلَه لا يخرُجُنَّ مِنَ البصرةِ حتى تأنسُوا منه رُشْداً، فحبَسَه فكان لا يستطيع أن يخرجَ منها.

فلمَّا قدِم ابنُ السوداءِ[2] نزل عليه واجتمع نفرٌ إليه، فطرَحَ لهم ابنُ السوداء ولم يصرِّح، فقبِلوا منه واستعظمُوه، وأرسلَ إليه ابنُ عامرٍ فسأله: ما أنتَ؟ فأخبرَه أنه رجلٌ من أهلِ الكتابِ رغِبَ في الإسلام ورغِبَ في جوارِك، فقال: ما يَبلُغني ذلك[3]، اخرُجْ عني، فخرج حتى أتى الكوفةَ فأُخرِج منها، فاستقر بمصرَ وجَعَلَ يكاتبُهم ويكاتِبونَه ويختلفُ الرجالُ بينهم[4].

فارس. هاجر مع قومه إلى البصرة في عهد عمر بن الخطاب، وكان من جملة الثائرين على عثمان وقتلته، وذلك بعد أن وضعه عثمان تحت الإقامة الجبرية في البصرة ومنعه من مغادرتها.

[1] أهل الذمة من اليهود والنصارى، وأهل القبلة من المسلمين.

[2] هو عبد الله بن سبأ الذي سيرد ذكره ودوره مفصلاً.

[3] يعني لا أقدر عليه ولا أضمنه لك.

[4] يختلف الرجالُ بينهم: يتبادلون الزيارات.

خبر حُمران بن أبان مع عامر بن قيس

ثم إنَّ حُمْرانَ بنَ أبان[1] تزوَّج امرأةً في عِدَّتها فنَكَّل به[2] عثمانُ وفرَّق بينهما وسيَّره إلى البَصرة، فلزِم ابنَ عامِر، فتذاكروا يوماً الركوبَ والمرورَ بعامرِ بنِ عبد قيس[3] – وكان منقبِضاً عن الناس[4] – فَقَالَ حُمْرَانُ: أَلا أَسْبِقُكُمْ فَأُخْبِرَهُ! فَخَرَجَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ فِي الْمُصْحَفِ، فَقَالَ: الأَمِيرُ أَرَادَ أَنْ يَمُرَّ بِكَ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ، فَلَمْ يَقْطَعْ قِرَاءَتَهُ وَلَمْ يُقْبِلْ عَلَيْهِ، فَقَامَ مِنْ عِنْدِهِ خَارِجًا. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْبَابِ لَقِيَهُ ابْنُ عَامِرٍ، فَقَالَ[5]: جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ امْرِئٍ لا يَرَى لآلِ إِبْرَاهِيمَ[6] عَلَيْهِ فَضْلاً، وَاسْتَأْذَنَ ابْنُ عَامِرٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، وَجَلَسَ إِلَيْهِ،

---

[1] حمران بن أبان (ت ٧٥ هـ): مولى عثمان بن عفان، تابعي، أسِر في فتح العراق عند معركة عين التمر أيام خلافة أبي بكر مع ٣٩ غلاماً آخر في سنة ١٢ للهجرة ، سباهم خالد بن الوليد من كنيسة لليهود يتعلمون فيها الكتابة في حصن سمى بـ (قصر سابور)، وهم أوّل سبي دخلوا المدينة المنورة بعد رسول الله من قبل المشرق، كان من حصّة المسيّب بن نجبة الفزاري، فابتاعه منه عثمان بن عفّان، وعلّمه الكتابة واتّخذه كاتباً وحاجباً حتى صار خاتم عثمان عنده وكان يفتح على عثمان في الصلاة إذا نسي. وروى صفة وضوء رسول الله عن عثمان.

[2] نكل به: ضربه وجعله عبرة.

[3] عامر بن عبد قيس التميمي العنبري البصري: كان زاهداً عابداً بعيداً عن أبواب الأمراء.

[4] في عزلة عنهم.

[5] القائل حمران.

[6] يعني يرى نفسه فوق الأنبياء.

فَأَطْبَقَ عَامِرٌ الْمُصْحَفَ، وَحَدَّثَهُ سَاعَةً، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَامِرٍ: أَلا تَغْشَانَا؟ فَقَالَ: سَعْدُ بْنُ أَبِي الْعَرْجَاءِ يُحِبُّ الشَّرَفَ، فَقَالَ: أَلا نَسْتَعْمِلُكَ؟ فَقَالَ: حُصينُ بنُ أَبِي الْحُرِّ يُحِبُّ الْعَمَلَ، فَقَالَ: أَلا نُزَوِّجُكَ! فَقَالَ: رَبِيعَةُ بْنُ عسلٍ يُعْجِبُهُ النِّسَاءَ[1]، قال: إنَّ هذا[2] يزعمُ أنك لا ترى لآلِ إبراهيمَ عليك فضلاً، فتصفَّحَ المصحفَ[3] فكان أولَ ما وقع عليه وافتَتَحَ منه: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ} فلما رُدَّ حُمرانُ تتبَّع ذلك منه فسَعَى به[4] وشهِد له أقوامٌ، فسيَّره[5] إلى الشام، فلما علِموا عِلمَه أذِنوا له فأبى ولزِم الشامَ.

وفي رواية أخرى:

أَنَّ عُثْمَانَ سَيَّرَ حُمْرَانَ بْنَ أَبَانٍ، أَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً فِي عِدَّتِهَا، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا، وَضَرَبَهُ وَسَيَّرَهُ إِلَى الْبَصْرَةِ، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَأَتَاهُ عَنْهُ الَّذِي يُحِبُّ،

---

[1] والمعنى أن هؤلاء المذكورين أولى بهذه الأمور مني؛ فهم يطلبونها وأنا لا اطلبها.

[2] يعني حمران.

[3] يعني فتحه.

[4] يعني لما عاد حمران إلى المدينة وشى بعامر، فنفاه عثمان إلى الشام. ولما ظهرت الحقيقة سمحوا له بالعودة فأبى ولزم الشام.

[5] عثمان.

أَذِنَ لَهُ[1]، فَقَدِمَ عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ، وَقَدِمَ مَعَهُ قَوْمٌ سَعَوْا بِعَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ، أَنَّهُ لا يَرَى التَّزْوِيجَ، وَلا يَأْكُلُ اللَّحْمَ، وَلا يَشْهَدُ الْجُمُعَةَ – وَكَانَ مَعَ عامرٍ انقباضٌ[2] وَكَانَ عَمَلُهُ كُلُّهُ خِفْيَةً– فَكَتَبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ بِذَلِكَ، فَأَلْحَقَهُ بِمُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ[3] وَافَقَهُ وَعِنْدَهُ ثَرِيدَةٌ[4] فَأَكَلَ[5] أَكْلاً غَرِيبًا، فَعَرَفَ أَنَّ الرَّجُلَ مَكْذُوبٌ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يا هذا، هل تدري فيمَ أُخْرِجْتَ؟ قَالَ: لا، قَالَ: أُبْلِغَ الْخَلِيفَةُ أَنَّكَ لا تَأْكُلُ اللَّحْمَ، وَرَأَيْتُكَ وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ كُذِبَ عَلَيْكَ، وَأَنَّكَ لا تَرَى التَّزْوِيجَ، وَلا تَشْهَدُ الْجُمُعَةَ، قَالَ: أَمَّا الْجُمُعَةُ فَإِنِّي أَشْهَدُهَا فِي مُؤَخَّرِ الْمَسْجِدِ ثُمَّ أَرْجِعُ فِي أَوَائِلِ النَّاسِ، وَأَمَّا التَّزْوِيجُ فَإِنِّي خَرَجْتُ وَأَنَا يُخْطَبُ عَلَيَّ، وَأَمَّا اللَّحْمُ فَقَدْ رَأَيْتَ، وَلَكِنِّي كُنْتُ امْرَأً لا آكُلُ ذَبَائِحَ

---

[1] سمح له بالعودة.

[2] يعني إيثار العزلة عن الناس.

[3] على معاوية.

[4] الثريدة والثريد: الخبز المكسور في المرق. قال الشاعر: إِذَا ما الخُبْزُ تَأْدُمُهُ بِلَحْمٍ ... فَذَاكَ أَمَانَةَ اللهِ الثَّرِيدُ

[5] قيس.

الْقَصَّابِينَ[1] مُنْذُ رَأَيْتُ قَصَّابًا يَجُرُّ شَاةً إِلَى مَذْبَحِهَا، ثُمَّ وَضَعَ السِّكِّينَ عَلَى مَذْبَحِهَا، فَمَا زَالَ يَقُولُ: النِّفَاقَ النِّفَاقَ[2]، حتى وجَبَتْ[3].

قَالَ معاويةُ: فَارْجِعْ، قَالَ: لا أَرْجِعُ إِلَى بَلَدٍ اسْتَحَلَّ أَهْلُهُ مِنِّي مَا اسْتَحَلُّوا، وَلَكِنِّي أُقِيمُ بِهَذَا الْبَلَدِ الَّذِي اخْتَارَهُ اللَّهُ لِي، وَكَانَ يَكُونُ فِي السَّوَاحِلِ، وَكَانَ يَلْقَى مُعَاوِيَةَ، فَيُكْثِرُ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَقُولَ: حَاجَتَكَ؟ فَيَقُولُ: لا حَاجَةَ لِي، فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ، قَالَ: تَرُدُّ عَلَيَّ مِنْ حَرِّ الْبَصْرَةِ[4] لعلَّ الصومَ أنْ يشتدَّ عليَّ شيئاً فإنِّه يخِفُّ عليَّ في بلادِكم[5].

اجتماع الثوار على عثمان:

لما أرجعَ معاويةُ المسَيَّرينَ قالوا: إنَّ العراقَ والشامَ ليسا لنا بدارٍ، فعليكم بالجزيرة، فأَتَوْها اختياراً، فغدا عليهم عبدُ الرحمن بنُ خالدٍ فسامَهم الشدةَ

---

[1] الجزارين.

[2] النفاق: الموت، من قولهم نَفَقَت الدَّابة: ماتت وزهقت روحها. والمعنى أن الجزار أخافها حتى ماتت ولم يذبحها وباع لحمها ميتة، فلما رأى عامر ذلك أصابه خوف من الجزارين وذبائحهم.

[3] وجبت: ماتت.

[4] يعني تعفيني من العودة إلى البصرة شديدة الحر وتبقيني في الشام الباردة.

[5] الشاهد من هذه القصة أن عثمان رضي الله عنه نفى عامر بن قيس دون التأكد من تهمته، فكان ذلك شاهداً من الشواهد على أن عثمان توسع في نفي الناس من بلادهم.

فضَرِعوا له[1] وتابَعوه، وسرَّح الأشترَ إلى عثمانَ فدعا به وقال: اذهبْ حيثُ شئتَ، فقال: أرجِعُ إلى عبدِ الرحمن، فرَجَعَ.

عُمَّال عثمان

ووفِد سعيدُ بنُ العاص إلى عثمانَ في سنةِ إحدى عشرةَ من إمارة عثمانَ، وقبل مخرجِ سعيدِ بنِ العاصِ من الكوفةِ بسنةٍ وبعضِ أخرى بَعَثَ[2] الأشْعثَ بنَ قيسٍ[3] على أذربيجانَ، وسعيدَ بنَ قيسٍ[4] على الرَّيّ، وكان سعيدُ بنُ قيسٍ على هَمَدانَ فعُزِلَ، وجَعَلَ عليها النُّسيرَ العِجْلي[5]، وعلى أصبهانَ السائبَ بنَ

---

[1] ضَرِعَ إِلَيْهِ: ذَلَّ، وَخَضَعَ إِلَيْهِ.

[2] عثمان.

[3] الأشعث بن قيس: صحابي أسلم عام الوفود. واسمه معديكرب، ولقب بالأشعث لأنه كان أشعث الرأس دائمًا. كان أحد ملوك كندة حتى الإسلام،. وهو زوج أخت أبي بكر الصديق. تولى ولاية أذربيجان في عهد عثمان بن عفان وكان كبير أمراء موقعة صفّين.

[4] سعيد بن قيس الهمداني: تابعي من عِلِيَة هَمْدان وكبرائها، اشترك في فتح نَهاوَند سنة (١٩ هـ) ، وكان صاحب راية همدان في معركة الجمل، كما شارك في عقر الجمل. وكان من أَحَدِ الخمسة الذين أيَّدوا أمير المؤمنين علياً في المسير إلى الشام (صفِّين)، وقد عُقد له اللواء على همدان. توفي سنة ٤٥ هـ.

[5] نسير بن ثور العجلي: (من بني عجل). صحابي. شارك في فتوح العراق في عهد عمر بن الخطاب، ومنها معركة القادسية، كما فتح قلعة نهاوند.

الأقرع[1]، وعلى ماه[2] مالكَ بنَ حبيبٍ اليربوعيَّ[3]، وعلى الموصلِ حكيمَ بنَ سلامةَ الحزاميَّ[4]، وجرير بن عبد الله[5] على قرقيسياء[6]، وسلمانَ بنَ ربيعةَ[7]

---

[1] السائب بن الأقرع الثقفي: صحابي، كوفي، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ومسح برأسه. شهد فتح نهاوند مع النعمان بن مقرن ، واستعمله عمر على المدائن.

[2] مدينة في إيران.

[3] مالك بن حبيب اليربوعي التميمي (ت٤٠ هـ): صحابي، من قادات الفتوح الإسلامية في بلاد فارس. وكان من أصحاب علي بن أبي طالب المقربين، وصاحب شرطته.

[4] حكيم بن سلامة الحزامي: والي الموصل في الفترة بين ٣٤ – ٣٦ هـ. شهد معركة القادسية وفتوح العراق. ثم كانت وقعة الجمل وأرسله عليّ بن أبي طالب يدعو أهل الجمل مع مالك بن حبيب اليربوعي، أن يكفوا عن القتال، للألفة والجماعة والمحبة.

[5] جرير بن عبد الله البجلي: صحابي جليل من صحابة رسول الله ومِنْ أحبِّهم إليه، كان سيد قومه بجيلة، وكان جميل الوجه حتى أن عمر بْن الخطاب رضي اللَّه عنه قال «جرير يوسف هذه الأمة»، دعا له النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالثبات والهدى، وجعله من رسله إلى الملوك، وكان له في القادسية أثر عظيم، وكانت بجيلة متفرقة، فجمعهم عمر بن الخطاب، وجعل عليهم جريراً. سكن الكوفة وابتنى فيها داراً، ثم ولاه عثمان على همدان وبقي فيها إلى أن استدعاه علي بن أبي طالب وأرسله سفيراً إلى معاوية ليدعوه إلى الدخول في الطاعة. ثم اعتزل الفتنة بين علي ومعاوية وارتحل بأهله إلى «قرقيسيا» على نهر الفرات حيث بقي فيها حتى توفاه الله سنة ٥١هـ.

[6] مدينة أثرية سورية.

[7] سلمان بن ربيعة بن يزيد بن عمرو الباهلي: قائد وقاضٍ مسلم. شهد فتوح العراق والشام، واستقر في العراق. عيّنة الخليفة عمر بن الخطاب قاضياً على الكوفة. وولي غزو أرمينية في عهدي عمر، وعثمان. وفتح ما بين أذربيجان إلى باب الأبواب. توفي سنة ٣١ هـ.

على الباب[1]، وعلى الحرب[2] القعقاعَ بنَ عمرٍو[3]، وعلى حلوان[4] عتيبةُ بنُ النهاس[5]، وخَلَت الكوفةُ مِنَ الرؤساءِ إلا منزوعاً أو مفتوناً.

فخرج يزيدُ بنُ قيسٍ[6] وهو يريدُ خلعَ عثمانَ، فدخل المسجدَ فجلس فيه، وثاب إليه الذين كان فيهمُ ابنُ السوداء يكاتبُهمُ، فانقضَّ عليه القعقاعُ فأخذ يزيدَ بنَ قيسٍ فقال: إنما نستعفي[7] مِن سعيدٍ، قال: هذا ما لا يعرض لكم فيه، لا تجلسْ لهذا[8] ولا يجتمعنَّ إليكَ واطلبْ حاجتَك، فلعَمري لتُعطَيَنَّها،

---

[1] مدينة الباب (باب الأبواب) شمال الشام.

[2] يعني جيش الفتوحات.

[3] القعقاع بن عمرو بن مالك التميمي: فارس وقائد مسلم، وبطل عربي مشهور، شهد حروب الردة والفتوحات الإسلامية وله بلاء عظيم في معركة القادسية واليرموك. وفتح حلوان (العراق) ودمشق ومصر وكثيراً من البلدان. ومات في المنزلة بمصر (الدقهلية) وقبره فيها.

[4] حلوان: مدينة بالعراق. وهي غير حلوان مصر.

[5] عتيبة بن النهاس العِجْلي: له إدراك ومشاهد في خلافة أبي بكر وخالد بن الوليد باليمامة، وكان من الكماة الشجعان. وأخوه عتَّاب كان شريفًا وابنه المغيرة بن عتبة كان قاضي الكوفة.

[6] يزيد بن قيس الأرحبي الكوفي: كان من عِلِيَة هَمْدان وكبرائها، واشترك في الثورة ضد عثمان. وكان من أصحاب علي بن أبي طالب، وشهد معه الجَمَل وصفِّين والنهروان، ولاه شرطته، ثم ولاه بعد ذلك على الري، وهمدان، وإصفهان.

[7] نطلب إعفاءه من إمارة الكوفة.

[8] ابن السوداء.

فرَجَعَ إلى بيتِه واستأجر رجلاً وأعطاه دراهمَ وبغلاً على أن يأتيَ المسيَّرينَ وكتب إليهم: لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا؛ فإنَّ أهلَ الْمَصْر قد جامعونا[1]. فانطلق الرجلُ فأتى عليهم وقد رجع الأشترُ، فدفع إليهم الكتابَ، فقالوا: ما اسمُك؟ قال: بَغْثَر[2]، قالوا: ممَّن؟ قال: من كلب، قالوا: سبعٌ ذليلٌ يبغِثر النفوسَ، لا حاجةَ لنا بك.

وخالفَهم الأشترُ ورجَع عاصياً، فلما خرج قال أصحابُه: أخرَجَنا أخرَجَه اللهُ، لا نجد بُدّاً مما صنَع، إنْ علِمَ بنا عبدُ الرحمن لم يصدِّقْنا ولم يستقِلْها[3]، فاتَّبعوه فلم يلحَقوه، وبلغ عبدَ الرحمن أنهم قد رحلوا، فطلبهم في السواد، فسار الأشترُ سَبعاً والقومُ عشراً، فلم يفجأ الناسَ في يومِ جمعة إلا والأشترُ على بابِ المسجد يقول: أيُّها الناس! إني قد جئتُكم من عندِ أمير المؤمنين عثمانَ، وتركتُ سعيداً يريدُه[4] على نقصانِ نسائكم إلى مائةِ درْهم، وردِّ أهلِ البلاءِ[5] منكم إلى ألفينِ، ويقول: ما بالُ أشرافِ النِّساء، وهذه العلاوةُ بين هذين

---

[1] جامعونا: اجتمعوا معنا.

[2] البَغْثَرُ: الأحمق الضعيف.

[3] اِسْتَقالَهُ عَثْرَتَهُ: سَأَلَهُ أَن يُنْهِضَهُ مِنْ عَثْرَتِهِ، ويغفرها له.

[4] يعني يراوده ويطلب منه.

[5] أهل البلاء: الفرسان المحاربون في جيش المسلمين.

العِدْلين، ويزعمُ أن فَيئكم بستانُ قريش، وقد سايرْتُه مرحلةً فمازال يَرْجُز[1] بذلك حتى فارقتُه يقول:

ويلٌ لأشرافِ النِّساءِ مِنِّي ... صَمَحْمَحٌ[2] كأنَّني مِنْ جِنِّ

فاستخفَّ الناسَ[3]، وجعل أهلُ الحِجى ينهَوْنَه فلا يَسمعُ منهم، وكانت نفْجَةٌ[4]، فخرج يزيدُ وأمرَ منادياً ينادي: مَنْ شاء أن يلحقَ بيزيدِ بنِ قيس لردِّ سعيدٍ وطلبِ أميرٍ غيرِه فليفعلْ، وبقِيَ حلماءُ الناس وأشرافُهم ووجوهُهم في المسجد، وذهب مَنْ سِواهم، وعمرُو بنُ حُريث يومئذ الخليفة[5]، فصعِد المنبرَ فحمِد اللهَ وأثنى عليه وقال: (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم

---

[1] يرجز: ينشد الشعر.

[2] صمحمح: غليظ شديد.

[3] استخف الناس: قال لهم فقبلوا منه ما قال، وهو مثل قوله تعالى: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ). والمقصود الأشتر.

[4] نفجة: ضجة وفتنة.

[5] يعني خليفة سعيد، استخلفه بعد سفره إلى عثمان. وهو: عمرو بن حريث المخزومي القرشيّ، صحابي وابن صحابي، قبض النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ ابْن اثنتي عشرة سنة، أمره عمر بن الخطاب أن يؤم النساء في رمضان. سكن الكوفة وتولى أعمالاً لبني أمية بالْكوفَةِ، وَكَانُوا يَمِيلون إِلَيه، وَيثقونَ به. ومات عام ٨٥هـ في زمن عبد الملك بن مروان.

مِّنْهَا) فلا تعُودوا في شرٍّ قد استنقَذَكمُ اللهُ عزَّ وجلَّ منه، أبعْدَ الإسلامِ وهدْيِه وسُنتِّه لا تَعرفون حقاً ولا تُصيبون بابَه! فقال القعقاعُ بنُ عمرو: أتردُّ السيلَ عن عُبابه[1]؟ فاردُدِ الفُراتَ عن أدراجِه، هيهات! لا والله لا تُسكِنُ الغوغاءَ إلا المشرفيةُ[2] ويوشِك أن تُنْتَضَى، ثم يعجُّون عجيجَ العتدان[3] ويتمنون ما هم فيه فلا يردُّه الله عليهم أبداً، فاصبِر، فقال: أصبرُ.

وتحوَّل إلى منزله[4]، وخرج يزيدُ بنُ قيس حتى نزل الجَرَعَةَ[5] ومعه الأشترُ، وقد كان سعيدٌ تلبَّث في الطريق فطلع عليهم سعيدٌ وهم مقيمون له معسكِرون، فقالوا: لا حاجةَ لنا بك، فقال: فما اختلفتم الآن، إنما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أميرِ المؤمنين رجلاً وتضعوا إليَّ رجلاً، وهل يخرُجُ الألفُ لهم عقولٌ إلى رجلٍ؟ ثم انصرفَ عنهم.

---

[1] عُبابه: مصبّه المرتفع.

[2] المشرفية: السيف.

[3] العتدان: الغنم.

[4] يعني عمرو بن حريث.

[5] بالقرب من القادسية.

وتحسَّوا[1] بمولًى له على بَعيرٍ قد حَسَر[2] فقال: والله ما كان ينبغي لسعيدٍ أن يرجِع، فضربَ الأشترُ عنقَه، ومضى سعيدٌ حتى قدِم على عثمانَ فأخبره الخبرَ، فقال: ما يريدون؟ أَخَلَعوا يداً من طاعة؟ قال: أظهَروا أنهم يريدون البَدَلَ. قال: فمن يريدون؟ قال: أبا موسى[3]، قال: أثْبَتْنا أبا موسى عليهم، ووالله لا نجعلُ لأحدٍ عذراً ولا نتركُ لهم حُجةً ولنصبرنَّ كما أُمِرْنا حتى نبلغَ ما يريدون. ورجعَ من قُربِ عملِه من الكوفةِ، ورجع جريرٌ من قرقيسياء، وعتيبةُ من حلوان.

وقام أبو موسى فتكلَّمَ بالكوفةِ فقال: أيُّها الناسُ! لا تنفِروا في مثل هذا، ولا تعودوا لمثلِه، الزَمُوا جماعتَكم والطاعةَ، وإياكمْ والعَجَلةَ، اصبِروا، فكأنكم بأميرٍ، قالوا: فصَلِّ بنا، قال: لا، إلا على السمعِ والطاعةِ لعثمانَ بنِ عفان، قالوا: على السمعِ والطاعةِ لعثمانَ.

---

[1] تحسوا به: شعروا به ووجدوه.

[2] حسر: ظهر عليه التعب من طول السفر.

[3] أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري: صحابي، وَلَّاهُ النبي على زبيد وعدن، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة، وولاه عثمان بن عفان على الكوفة، وكان المحكّم الذي اختاره علي بن أبي طالب من بين حزبه يوم صفين. كان يقرئ القرآن ويقضي بين الناس، ولم يكن بالكوفة أعلم منه.

وقامَ عبدُ الله بنُ عميرٍ الأشجعيُّ[1] في المسجدِ[2] في الْفِتْنَةِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، اسْكُتُوا؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "مَنْ خَرَجَ وَعَلَى النَّاسِ إِمَامٌ – وَاللَّهِ مَا قَالَ عَادِلٌ – لِيَشُقَّ عَصَاهُمْ، وَيُفَرِّقَ جَمَاعَتَهُمْ، فَاقْتُلُوهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ"[3].

وفي رواية أخرى:

لما استعوى[4] يَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ النَّاسَ عَلَى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، خَرَجَ مِنْهُ ذِكْرٌ لِعُثْمَانَ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو حَتَّى أَخَذَهُ، فَقَالَ: مَا تُرِيدُ؟ أَلَكَ عَلَيْنَا فِي أَنْ نَسْتَعْفِيَ سَبِيلٌ؟ قَالَ: لا، قال: فَهَلْ إلا ذَلِكَ؟ قَالَ: لا، قَالَ: فَاسْتَعْفِ. وَاسْتَجْلَبَ يَزِيدُ أَصْحَابَهُ مِنْ حَيْثُ كَانُوا، فَرَدُّوا سَعِيدًا، وَطَلَبُوا أَبَا مُوسَى، فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ عُثْمَانُ:

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمْ مَنِ اخْتَرْتُمْ، وَأَعْفَيْتُكُمْ مِنْ سَعِيدٍ، وَاللَّهِ لأَفْرِشَنَّكُمْ عِرْضِي، وَلأَبْذلَنَّ لَكُمْ صَبْرِي، وَلأَسْتَصْلِحَنَّكُمْ

---

[1] عبد الله بن عمير الأشجعي: صحابي من أهل المدينة، سَمِعَ رَسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " إِذَا خرج عليكم خارج يشق عصا المسلمين ويفرق جماعتهم، فاقتلوه، ما استثنى أحدًا". أَخْرَجَهُ الثلاثة.

[2] يعني أبو موسى.

[3] الحديث رواه مسلم في الصحيح.

[4] اسْتَعْوَاهُمْ: صَاحَ بهم إلى الفتنة.

بِجَهْدِي، فَلا تَدَعُوا شَيْئًا أَحْبَبْتُمُوهُ لا يُعْصَى اللَّهُ فِيهِ إِلا سَأَلْتُمُوهُ، وَلا شَيْئًا كَرِهْتُمُوهُ لا يُعْصَى اللَّهُ فِيهِ إِلا اسْتَعْفَيْتُمْ مِنْهُ، أَنْزِلُ فِيهِ عند ما أَحْبَبْتُمْ، حَتَّى لا يَكُونَ لَكُمْ عَلَيَّ حُجَّةٌ".

وَكَتَبَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي الأَمْصَارِ، فَقَدِمَتْ إِمَارَةُ أَبِي مُوسَى وَغَزْوُ حُذَيْفَةَ، وَتَأَمَّرَ أَبُو مُوسَى، وَرَجَعَ الْعُمَّالُ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، وَمَضَى حُذَيْفَةُ إِلَى الْبَابِ.

دعوة عبد الله بن سبأ:

كان عبدُ الله بنُ سبأٍ يهودياً من أهلِ صَنعاء، أمُّه سوداءُ، فأسلمَ زمانَ عثمانَ، ثم تنقَّل في بلدانِ المسلمين يحاولُ ضلالتَهم[1]، فبدأ بالحجازِ ثم البصرةِ ثم الكوفةِ ثم الشامِ، فلم يقدِرْ على ما يريدُ على أحدٍ من أهلِ الشام فأخرَجُوه، حتى أتى مِصْرَ فاغْتَمَزَ فيهم[2]، فقال لهم فيما يقول: لعَجَبٌ ممن يزعمُ أن عيسى يرجِعُ، ويكذِّبُ بأنَّ محمداً يرجِعُ وقد قال اللهُ عز وجل: {إِنَّ

---

[1] قال محقق الكتاب: ويستنتج من هذا الكلام، أن عبد الله بن سبأ لم يكن إلا أحد أفراد جماعة سرية مؤلفة من اليهود وغيرهم. كانت تعمل جاهدة وفق مخطط مدروس لتحطيم الوحدة الإسلامية والقضاء على دولة المسلمين من داخلها بعد ما عجزت تلك القوى عن مجابهة المسلمين في ميادين القتال.

[2] في المطبوعة: اعتمر. والتصويب من تاريخ دمشق لابن عساكر. واغْتَمَزَ ما فعله غيرهُ: طعن في الفاعل ووجد بذلك مَغْمَزًا.

الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ}[1] فمحمدٌ أحقُّ بالرجوعِ من عيسى، فقُبِل ذلك عنه، ووضَع لهم الرَّجْعةَ، فتكلموا فيها.

ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان أَلفُ نبيٍّ ولكلِّ نبيٍّ وصيٌّ، وكان عليٌّ وصيَّ محمدٍ.

ثم قال: محمدٌ خاتمُ الأنبياء وعليٌّ خاتمُ الأوصياء.

ثم قال بعد ذلك: مَنْ أظلمُ ممن لم يُجِزْ وصيةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ووثبَ على وصيِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتناول أمرَ الأمُّة.

ثم قال لهم بعد ذلك: إنَّ عثمانَ أخذَها بغيرِ حقٍّ، وهذا وصيُّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فانْهَضُوا في هذا الأمرِ فحرِّكوه وابدؤوا بالطعنِ على أمرائكم وأظهِروا الأمرَ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكَر تَسْتميلوا الناسَ، وادعوهم إلى هذا الأمر.

فبثَّ دعاتِه، وكاتبَ مَنْ كان استفْسَدَ مِنَ الأمصارِ وكاتَبوه، ودَعَوا في السرِّ إلى ما عليه رأيُهم، وأظْهروا الأمرَ بالمعروف والنهْيِ عن المنكَر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصارِ كُتُباً يضعونَها في عيوبِ وُلاتِهم، ويكاتبُهم إخوانُهم بمثلِ ذلك، ويكتبُ أهلُ كلِّ مَصْر منهم إلى مَصْرٍ آخرَ بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارِهم وهؤلاء في أمصارِهم، حتى تناولوا بذلك المدينةَ، وأوسعُوا الأرضَ

[1] قال المفسرون: المعاد مكة.

إذاعةً، وهم يريدون غيرَ ما يُظهِرون، ويُسرِّون غيرَ ما يُبدون، فيقول أهلُ كل مَصْرٍ: إنا لفي عافيةٍ مما ابتُلي به هؤلاء، إلا أهلَ المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصارِ فقالوا: إنا لفي عافيةٍ مما فيه الناس.

وجامَعَه محمدٌ وطلحةُ مِنْ هذا المكان[1] فأَتَوا عثمانَ فقالوا: يا أميرَ المؤمنين! أيأتيكَ عن الناسِ الذي يأتينا؟ قال: لا واللهِ ما جاءني إلا السلامةُ، قالوا: فإنَّا قد أتانا، وأخبرُوه بالذي أسقَطوا إليهم، قال: فأنتم شركائي وشهودُ المؤمنين فأشِيروا عليَّ، قالوا: نشيرُ عليك أن تبعثَ رجالاً ممن تثقُ بهم إلى الأمصارِ حتى يرجِعوا إليكَ بأخبارِهم.

[1] محمد بن مسلمة وطلحة بن عبيد الله.

فدعا محمَّدَ بنَ مَسْلَمةَ[1]، فأرسلَه إلى الكوفةِ، وأرسل أسامةَ بنَ زيد[2] إلى البصْرةِ، وأرسل عمَّارَ بنَ ياسرٍ[3] إلى مِصرَ، وأرسل عبدَ الله بنَ عمرَ[4] إلى

---

[1] محمد بن مسلمة (ت ٤٦ هـ): صحابي من بني حارثة من الأوس، أسلم قديمًا، وشهد المشاهد كلها إلا غزوة تبوك، وشارك في الفتح الإسلامي لمصر، وكان المبعوث الخاص لعمر بن الخطاب إلى ولاته. اعتزل محمد بن مسلمة فتنة مقتل عثمان، قُتل محمد بن مسلمة في صفر ٤٦ هـ بالمدينة، وعمره يومها ٧٧ سنة،. وكان الذي قتله رجل من أهل الأردن تغيّظ اعتزاله للفتنة، فاقتحم عليه منزله، وقتله. وصلى عليه مروان بن الحكم.

[2] أسامة بن زيد بن حارثة (٧ ق.هـ – ٥٤ هـ) صحابي أسلم مع والده زيد بن حارثة. وأمه أم أيمن حاضنة النبي، ولد أسامة في الإسلام وولّاه النبي قيادة جيش المسلمين المتوجه لغزو الروم في الشام سنة إحدى عشرة من الهجرة. وعندما نشبت الفتنة – بعد مقتل عثمان – بين علي ومعاوية التزم أسامة بن زيد موقف الحياد المطلق.

[3] عمار بن ياسر: صحابي من الموالي ومن السابقين إلى الإسلام. كان من المستضعفين الذين عُذّبوا ليتركوا دين الإسلام هو وأمُّه سمية، وفيهم قال النبي صلى الله عليه وسلم "صبراً آل ياسر". هاجر إلى الحبشة، وشارك مع النبي في غزواته كلها. كما شارك في حروب الردة، وولاّه عمر بن الخطاب الكوفة وشارك في آخر عمره إلى جانب علي بن أبي طالب في حربه مع معاوية بن أبي سفيان إلى أن قُتل في وقعة صفين وسِنه ٩٣ سنة وفيه قول النبي "تقتله الفئة الباغية".

[4] عبد الله بن عمر بن الخطاب (١٠ ق.هـ – ٧٣ هـ): محدِّث وفقيه وصحابي من صغار الصحابة، وابن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وأحد المكثرين في الفتوى وفي رواية الحديث النبوي. وكان من أكثر الناس اقتداءً بسيرة النبي وتتبُّعًا لآثاره. شارك في فتوح الشام والعراق وفارس ومصر وإفريقية، وشهد معركة اليرموك وفتح نهاوند، وأذربيجان، ثم عاد فسكن المدينة المنورة، ودعاه الخليفة الثالث عثمان بن عفان ليتولى القضاء، فاعتذر. ولما حُوصِرَ عثمان وقت الفتنة، تقلد سيف أبيه

الشام، وفرَّق رجالاً سِواهم، فرجعوا جميعاً قبل عمَّار، فقالوا: أيُّها الناس ما أنكرْنا شيئاً ولا أنكرَه أعلامُ المسلمين ولا عوامُّهمَ، وقالوا جميعاً: الأمرُ أمرُ المسلمين إلا أنَّ أمراءهم يُقسِطون بينهم ويقومون عليهم.

واستبطأ الناسُ عمَّاراً، حتى ظنُّوا أنه قد اغتِيلَ، فلم يفجَأهم إلا كتابٌ من عبدِ الله بنِ سعدِ بنِ أبي سَرْحٍ[1] يخبرُهم أن عمَّاراً قد استمالَه قومٌ بمصرَ، وقد انقطعوا إليه، منهم عبدُ اللهِ بنُ السوداء، وخالدُ بنُ ملجِم، وسودانُ بنُ حمرانَ، وكنانةُ بنُ بشر.

ودافع عن عثمان يوم الدار. وبعد مقتل عثمان ورفض معاوية بن أبي سفيان مبايعة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب واستئثاره بحكم الشام، ومطالبته بالقصاص لعثمان، جاء علي إلى ابن عمر يسأله الخروج إلى الشام أميرًا، فاعتذر، وخرج إلى مكة، ولم يشهد مع عليّ شيئًا من حروبه، حتى لا ينخرط في الفتنة.

[1] عبد الله بن سعد بن أبي السَرْح القرشي (ولد سنة ٢٣ قبل الهجرة بمكة): صحابي وقائد عسكري وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة ووالي مصر في عهد خلافته. وهو فاتح إفريقية وهزم الروم في معركة ذات الصواري وشارك في فتح مصر حيث كان صاحب الميمنة في جيش عمرو بن العاص، وكان فارس بني عامر بن لؤي المعدود فيهم وروى للنبي عدة أحاديث، كما أنه أخو الصحابي وهب بن سعد الذي كان أحد شهداء غزوة مؤتة. وبعد مقتل عثمان اعتزل عبد الله السياسة ونجا بنفسه من الفتنة، وخرج إلى عسقلان فظل فيها عابداً ودعا الله فقال: اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الفجر فتوضأ في ليلته وصلَّى وقرأ في الركعة الأولى أم القرآن (سورة الفاتحة) والعاديات وفي الثانية أم القرآن وسورة، ثم سلَّم عن يمينه وذهب يسلِّم عن يساره فقبض ومات ودُفِن في عسقلان سنة ٣٦ هـ.

مشاورات عثمان مع ولاته

كَتَبَ عُثْمَانُ إِلَى أَهْلِ الأَمْصَارِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي آخُذُ الْعُمَّالَ بِمُوَافَاتِي فِي كُلِّ مَوْسِمٍ[1]، وَقَدْ سَلَّطْتُ الأُمَّةَ مُنْذُ وُلِّيتُ عَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَلا يُرْفَعُ عَلَيَّ شَيْءٌ وَلا عَلَى أَحَدٍ مِنْ عُمَّالِي إِلا أَعْطَيْتُهُ[2]، وَلَيْسَ لِي وَلِعِيَالِي حَقٌّ قِبَلَ الرَّعِيَّةِ إِلا مَتْرُوكٌ لَهُمْ، وَقَدْ رَفَعَ إِلَيَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَنَّ أقواماً يُشتَمون، وآخرون يُضرَبون، فيا مَنْ ضُرِبَ سِرًّا، وَشُتِمَ سِرًّا، مَنِ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَلْيُوَافِ الْمَوْسِمَ فَلْيَأْخُذْ بِحَقِّهِ حَيْثُ كَانَ، مِنِّي أَوْ مِنْ عُمَّالِي، أَوْ تَصَدَّقُوا فإنَّ اللهَ يَجْزي المتصدقين.

فَلَمَّا قُرِئَ فِي الأَمْصَارِ أَبْكَى النَّاسَ، وَدَعَوْا لِعُثْمَانَ، وَقَالُوا: إِنَّ الأُمَّةَ لَتَمْخَضُ بِشَرٍّ[3].

وَبَعَثَ إِلَى عُمَّالِ الأَمْصَارِ فَقَدِمُوا عَلَيْهِ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ، وَمُعَاوِيَةُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ، وَأَدْخَلَ مَعَهُمْ فِي الْمَشُورَةِ سَعِيدًا وَعَمْرًا[4]، فَقَالَ: وَيْحَكُمْ! مَا هَذِهِ الشِّكَايَةُ؟ وَمَا هَذِهِ الإِذَاعَةُ؟ إِنِّي وَاللَّهِ لَخَائِفٌ أَنْ تَكُونُوا مَصْدُوقًا عَلَيْكُمْ،

---

[1] موسم الحج.

[2] يعني لا يرفعون إليَّ شكوى إلا حققت فيها.

[3] يعني يقترب خروج شر فيها.

[4] عمرو بن العاص.

وَمَا يَعْصِبُ[1] هَذَا إِلا بِي، فَقَالُوا لَهُ: أَلَمْ تَبْعَثْ! أَلَمْ نَرْجِعْ إِلَيْكَ الْخَبَرَ عَنِ الْقَوْمِ! أَلَمْ يَرْجِعُوا وَلَمْ يُشَافِهْهُمْ أَحَدٌ بِشَيْءٍ! لا وَاللَّهِ مَا صَدَقُوا وَلا بَرُّوا، وَلا نَعْلَمُ لِهَذَا الأَمْرِ أَصْلاً، وَمَا كُنْتَ لِتَأْخُذَ بِهِ أَحَدًا فَيُقِيمَكَ عَلَى شَيْءٍ، وَمَا هِيَ إِلا إِذَاعَةٌ لا يَحِلُّ الأَخْذُ بِهَا، وَلا الانْتِهَاءُ إِلَيْهَا.

قَالَ: فَأَشِيرُوا عَلَيَّ، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ: هَذَا أَمْرٌ مَصْنُوعٌ يُصْنَعُ فِي السِّرِّ، فَيُلْقَى بِهِ غَيْرُ ذِي الْمَعْرِفَةِ، فَيُخْبَرُ بِهِ، فَيُتَحَدَّثُ بِهِ فِي مَجَالِسِهِمْ، قَالَ: فَمَا دَوَاءُ ذَلِكَ؟ قَالَ: طَلَبُ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ، ثُمَّ قَتْلُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَخْرُجُ هَذَا مِنْ عِنْدِهِمْ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ: خُذْ مِنَ النَّاسِ الَّذِي عَلَيْهِمْ إِذَا أَعْطَيْتَهُمُ الَّذِي لَهُمْ، فَإِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ: قَدْ وَلَّيْتَنِي فَوَلِيتُ قَوْمًا لا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ إِلا الْخَيْرُ، وَالرَّجُلانِ أَعْلَمُ بِنَاحِيَتَيْهِمَا[2] قالَ: فَمَا الرَّأْيُ؟ قَالَ: حُسْنُ الأَدَبِ[3].

---

[1] يعصب به: يحيط وينزل.

[2] يعني سعيد وعبدالله اللذان تكلما قبله.

[3] يعني التأديب.

قَالَ: فَمَا تَرَى يَا عَمْرُو؟ قَالَ: أَرَى أَنَّكَ قَدْ لِنْتَ لهم، وتراخيتَ عَنْهُمْ، وَزِدْتَهُمْ عَلَى مَا كَانَ يَصْنَعُ عُمَرُ، فَأَرَى أَنْ تَلْزَمَ طَرِيقَةَ صَاحِبَيْكَ[1]، فَتَشْتَدَّ فِي مَوْضِعِ الشِّدَّةِ، وَتَلِينَ فِي مَوْضِعِ اللِّينِ، إِنَّ الشِّدَّةَ تَنْبَغِي لِمَنْ لا يَأْلُو النَّاسَ شَرًّا، وَاللِّينُ لِمَنْ يَخْلُفُ النَّاسَ بِالنُّصْحِ، وَقَدْ فَرَشْتَهُمَا جَمِيعًا اللِّينَ[2].

وَقَامَ عُثْمَانُ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: كُلُّ مَا أَشَرْتُمْ بِهِ عَلَيَّ قَدْ سَمِعْتُ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ بَابٌ يُؤْتَى مِنْهُ، إِنَّ هَذَا الأَمْرَ الَّذِي يُخَافُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ كَائِنٌ، وَإِنَّ بَابَهُ الَّذِي يُغْلَقُ عَلَيْهِ فَيُكَفْكَفُ بِهِ اللِّينُ وَالْمُؤَاتَاةُ وَالْمُتَابَعَةُ، إِلَّا فِي حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، الَّتِي لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُبَادِيَ بِعَيْبِ أَحَدِهَا، فَإِنْ سَدَّهُ شَيْءٌ فَرَفُقَ، فَذَاكَ وَاللَّهِ لَيُفْتَحَنَّ، وَلَيْسَتْ لأَحَدٍ عَلَيَّ حُجَّةُ حَقٍّ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي لم آلُ الناسَ خيراً[3]، ولا نفسي، ووالله إِنَّ رَحَى الْفِتْنَةِ لَدَائِرَةٌ، فَطُوبَى لِعُثْمَانَ إِنْ مَاتَ وَلَمْ يُحَرِّكْهَا، كَفْكِفُوا النَّاسَ، وَهَبُوا لَهُمْ حُقُوقَهُمْ، وَاغْتَفِرُوا لَهُمْ، وَإِذَا تُعُوطِيَتْ حُقُوقُ اللَّهِ فَلا تُدْهِنُوا فِيهَا[4].

---

[1] صاحباه: أبو بكر وعمر.

[2] يعني تعاملت باللين في الحالين.

[3] لم أقصر في نصحهم وخيرهم.

[4] تلينوا وتجاملوا.

فلمَّا نَفَرَ عثمانُ[1] أَشْخَصَ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدٍ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَرَجَعَ ابْنُ عَامِرٍ وَسَعِيدٌ مَعَهُ. وَلَمَّا اسْتَقَلَّ عُثْمَانُ رَجَزَ الْحَادِي:

قد عَلِمَتْ ضَوامِرُ الْمَطِيِّ وضامِراتٌ عوّجُ القِسِيِّ
أنَّ الأميرَ بعدَهُ عليُّ وفي الزُّبَيرِ خَلَفٌ رَضِيُّ
وطلحةُ الحامي لها وليُّ

فقال كعبٌ[2] وَهُوَ يَسِيرُ خَلْفَ عُثْمَانَ: الأَمِيرُ وَاللَّهِ بَعْدَهُ صَاحِبُ الْبَغْلَةِ، وَأَشَارَ إِلَى مُعَاوِيَةَ.

قال سيفٌ: ما زال معاويةُ يطمعُ فيها بعد مقدِمِه على عثمانَ حين جَمَعَهم فاجتمعوا إليه بالموسِم، ثم ارتحل فحَدا به الراجِز:

أنَّ الأميرَ بعدَه عليُّ ... وفي الزُّبيرِ خَلَفٌ رَضِيُّ

---

[1] نفَر الحُجَّاجُ من مِنَى: اندفعوا إلى مكّة.

[2] كعب الأحبار، كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري، أبو إسحاق (نحو ٧٢ ق هـ – ٣٢ هـ) إخباريّ عالم بسِيَر الأنبياء والرُّسل. كان يهودياً مخضرماً أدرك الجاهلية والإسلام. أسلم في خلافة أبي بكر الصِّدّيق، وقدم المدينة في دولة عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الغابرة وكثيراً من «الإسرائيليات». خرج إلى الشام، فسكن حمص، وتوفي فيها، عن عُمُرٍ مئةً وأربعَ سنين.

قال كعبٌ: كذَبْتَ! صاحبُ الشهباء بعدَه – يعني معاويةَ – فأُخبِر معاويةُ فسأله عن الذي بلغَه، قال: نعم أنتَ الأميرُ بعدَه ولكنها واللهِ لا تصلُ إليك حتى يُكَذَّبَ[1] بحديثي هذا، فوقعَتْ في نفسِ معاوية[2].

فلمَّا وَرَدَ عثمانُ المدينةَ ردَّ الأمراءَ إلى أعمالهم فمَضَوا جميعاً، وأقام سعيدٌ بعدَهم، فلمَّا ودَّع معاويةُ عثمانَ خرج من عندِه وعليه ثيابُ السَّفَر، متقلِّداً سيفَه، متنكِّباً قوسَه، فإذا هو بنَفَرٍ من المهاجرين فيهم طلحةُ والزبيرُ وعليٌّ، فقام عليهم فتوكَّأ على قوسِه بعدما سلَّم عليهم، ثم قال: إنكم قد علمتُم أن هذا الأمر[3] كان إذِ الناسُ يتغالبون إلى رجال، فلم يكن منكم أحدٌ إلا وفي فصيلته[4] مَنْ يرأسُه ويستبدُّ عليه ويقطعُ الأمرَ دونَه، ولا يُشهِده ولا يُؤامِره، حتى بعث اللهُ جلَّ وعزَّ نبيَّه صلى الله عليه وسلم، وأكرمَ به مَنِ اتَّبَعَه، فكانوا يرأسون مَنْ جاء مِنْ بعدِه وأمرُهم شورى بينهم، يتفاضلون بالسابقةِ والقُدْمة[5] والاجتهاد، فإن أَخَذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمرُ أمرَهم والناسُ تبعٌ لهم،

---

[1] في الأصل المطبوع: تُكَذِّب. والتصويب من ابن عساكر.

[2] يعني تمناها ولاقت هوى في نفسه. وهذه القصة إن صحّت فلا بد أن يكون لدى كعب فيها خبر، فهذا مما لا يقال بالرأي.

[3] يعني ظهور الإسلام.

[4] الفصيلة: القبيلة.

[5] القدمة: السَّابِقَةُ في الأمْرِ.

وإنْ أَصْغَوا إلى الدنيا[1] وطلبوها بالتغالُب سُلِبوا ذلك وردَّه الله إلى من كان يرأسُهم، وإلا فليحذَروا الغِيَر[2]؛ فإنَّ الله على البَدَل قادرٌ، وله المشيئةُ في ملكِه وأمرِه، إني قد خَلَّفْتُ فيكم شيْخاً[3]، فاستوصُوا به خيراً وكانِفوه[4] تكونوا أسعدَ منه بذلك. ثم ودَّعهم ومضى. فقال عليٌّ: ما كنتُ أرى أنَّ في هذا خيراً، فقال الزبيرُ: لا والله ما كان قطُّ أعظمَ في صدرِك وصدورِنا منه الغداة[5].

وكان معاويةُ قد قال لعثمانَ غداةَ ودَّعه وخَرَجَ: يا أميرَ المؤمنين! انطلِقْ معي إلى الشامِ قبل أن يَهْجُم عليك مَنْ لا قِبَلَ لك به؛ فإن أهلَ الشام على الأمر لم يزالوا، فقال: أنا لا أبيعُ جِوارَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بشيء وإن كان فيه قطْعُ خَيطِ عُنقي، قال: فأَبعثُ إليك جُنداً منهم[6] يُقيمُ بين ظَهرانَيْ أهلِ المدينة لنائبةٍ إنْ نابتِ المدينةَ أو إيَّاكَ، قال: أنا أقتِّرُ على جيرانِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الأرزاقَ بجندٍ تساكنُهم وأضيِّقُ على أهلِ دارِ

---

[1] أصغوا: مالوا إليها.

[2] غِيَرُ الدَّهْرِ: أَحْدَاثُهُ، نَوَائِبُهُ، صُرُوفُهُ.

[3] يعني عثمان.

[4] كانفوه: أحيطوا به.

[5] أرى أن معاوية كان أعقل من أن يقف خطيباً في هؤلاء الثلاثة العظماء، وأن أقصى ما فعله هو أن أوصاهم بالخليفة الشيخ خيراً.

[6] يعني من أهل الشام.

الهِجرة والنُّصرة! قال: والله يا أميرَ المؤمنين لتُغتالَنَّ أو لتُغزَيَنَّ، قال: حسْبي اللهُ ونِعم الوكيل[1]. وقال معاويةُ: يا أَيْسارَ الجَزُور، وأين أيْسارُ الجَزُور[2]. ثم خَرَجَ حتى وقفَ على النَّفَر ثم مَضَى.

المواجهة الأولى سنة ٣٤ هـ:

وقد كان أهلُ مِصْرَ كاتَبوا أشياعَهم مِنْ أهلِ الكوفةِ وأهلِ البصرةِ وجميعَ مَنْ أجابَهم أنْ يثُوروا خلافَ أُمرائهم، واتَّعدوا[3] يوماً حيث شَخَصَ أمراؤهم، فلم يستقمْ ذلك لأحدٍ منهم، ولم ينهضْ إلَّا أهلُ الكوفة؛ فإنَّ يزيدَ بنَ قيس الأرحبيَّ ثار فيها، واجتمع إليه أصحابُه، وعلى الحربِ يومئذ القعقاعُ بنُ عمرو، فأتاه فأحاط الناسُ بهم وناشدُوهم، فقال يزيدُ للقَعقاع: ما سبيلُك عليَّ وعلى هؤلاء! فوالله إني لسامعٌ مُطيع، وإني للازِمٌ لجماعتي، إلَّا أني

---

[1] كان عثمان يعظِّم القرآن ويتأوله، فهو بقولته هذه يستحضر قوله تعالى: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ).

[2] أيسار الجزور: الذين يتولون تقسيم لحم الجزور، والذين يشترون الجزور بالميْسر والقمار؛ أَخْرَجَ البُخارِيُّ في (الأَدَبِ المُفْرَدِ) عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ، أَنَّهُ كانَ يُقالُ: أَيْنَ أَيْسارُ الجَزُورِ؟ فَيَجْتَمِعُ العَشَرَةُ فَيَشْتَرُونَ الجَزُورَ بِعَشَرَةِ فُصْلانٍ إلى الفِصالِ، فَيُجِيلُونَ السِّهامَ فَتَصِيرُ بِتِسْعَةٍ، حَتّى تَصِيرَ إلى واحِدٍ، ويَغْرَمُ الآخَرُونَ فَصِيلًا فَصِيلًا إلى الفِصالِ، فَهو المَيْسِرُ. فكأن معاوية بقوله هذا يرى أن عثمان سيصير أمره إلى ما لا تحمد عقباه.

[3] اتعدوا: تواعدوا.

أستعفِي ومَنْ تَرَى مِنْ إمارة سعيد، فقال: استَعْفَى الخاصةُ مِنْ أمرٍ قد رَضِيَتْه العامَّة؟ قال: فذاك إلى أميرِ المؤمنين. فتركَهم والاستعفاءَ، ولم يستطيعوا أنْ يُظهِروا غيرَ ذلك[1]، فاستقبلُوا سعيداً فردُّوه مِنَ الجَرَعة[2].

واجتمع الناسُ على أبي موسى[3]، وأقرَّه عثمانُ رضي الله تعالى عنه.

ولما رَجَعَ الأمراءُ لم يكن للسَّبئية[4] سبيلٌ إلى الخروجِ إلى الأمصار، وكاتَبوا أشياعَهم من أهلِ الأمصارِ أنْ يتوافَوا بالمدينةِ لينظُروا فيما يريدون، وأظْهروا أنهم يأمرُون بالمعروفِ ويسألون عثمانَ عن أشياءَ لتطيرَ في الناس[5]، ولِتُحَقَّقَ عليه[6]، فتوافَوا بالمدينة، وأرسلَ عثمانُ رَجُلين: مَخْزومياً وزُهْرِياً فقال: انظُرا ما يريدون واعْلَما عِلْمَهم – وكانا ممن قد ناله مِن عثمانَ أَدَبٌ[7] – فاصطَبَرا للحق ولم يضْطَغِنا، فلما رأَوهما باثُّوهما[8] وأخبرُوهما بما يريدون، فقالا: مَنْ

---

[1] يعني لم يعلنوا مما أضمروه إلا مسألة إعفاء سعيد.

[2] الجرعة مكان قرب القادسية.

[3] يعني ارتضوه.

[4] أتباع ابن سبأ.

[5] يعني تنتشر. وهي الأمور التي سيرد عليها عثمان واحداً واحداً كما سيذكره المؤلف بعد قليل.

[6] تثبُتْ.

[7] أدب: تعذير وتأديب على أمر استحقا عليه هذا.

[8] يعني أسر إليهما أتباع ابن سبأ بحقيقة مرادهم، وهم لا يعلمون حقيقتهما.

معكم على هذا مِن أهلِ المدينة؟ قالوا: ثلاثةُ نَفَر، فقالا: هل إلا؟[1] قالوا: لا، قالا: فكيف تريدون أن تَصنَعوا؟ قالوا: نريد أن نذكرَ له أشياءَ قد زرعناها في قلوبِ الناسِ، ثم نرجِعَ إليهم فنزعمَ لهم أنا قرَّرناه بها فلم يخرجْ منها ولم يَتُب، ثم نخرجُ كأنا حُجَّاجٌ حتى نقدُمَ فنحيطَ به فنخلَعَه، فإن أبى قتلْناه. وكانت إيَّاها[2]. فرجَعا إلى عثمانَ بالخبرِ فضحِك وقال: اللهمَّ سلِّم هؤلاءِ؛ فإنَّك إنْ لم تسلِّمهم شَقُوا[3].

---

[1] هل إلا: يعني هل هناك غيرهم.

[2] يعني أن القتل هو ما وقع.

[3] رحم الله عثمان خريج مدرسة النبوة.

أَمَّا عمَّارٌ فحَمَلَ على عبَّاسِ بنِ عُتبةَ بن أبي لهبٍ[1] وعَرَكَه[2]، وأما محمدُ بنُ أبي بكرٍ فإنه أُعجِبَ[3] حتى رأى أنَّ الحقوقَ لا تلزمُه[4]، وأما ابنُ سَهْلةَ[1] فإنه يتعرَّض للبَلاء[2].

---

[1] العباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب (١٠ ق هـ – ٦٣هـ): شاعر، ومن الأعيان في عصر صدر الإسلام، من بني هاشم. أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، وله مع عثمان بن عفان أخبار. شهد هو وابنه الفضل اللَّهَبي معركة الجمل وصفين مع عمِّه علي بن أبي طالب. كان أحد زعماء المدينة المنورة في ثورتها على بني أمية، وأظهر في وقعة الحَرَّة بسالة، وقتل فيها.

[2] تعاركا. روي أنه كان بين عمار بن ياسر، وبين عباس بن عتبة بن أبي لهب كلام، فضربهما عثمان بسبب ذلك، فتغيرت نفس عمار على عثمان. وروى الذهبي في تاريخه عن محمد بن سعد بن أبي وقاص قال: قدم عمار بن ياسر من مصر وأبي شاكٍ (مريض)، فبلغه، فبعثني إليه أدعوه، فقام معي وعليه عمامة وسخة وجبة فراء. فلما دخل على سعد قال له: ويحك يا أبا اليقظان إن كنت فينا لمن أهل الخير، فما الذي بلغني عنك من سعيك في فساد بين المسلمين والتأليب على أمير المؤمنين؟ أمعك عقلك أم لا؟ فأهوى عمار على عمامته وغضب فنزعها وقال: خلعت عثمانَ كما خلعت عمامتي هذه، فقال سعد: إنا لله وإنا إليه راجعون ويحك حين كبرت سنك ورق عظمك ونفد عمرك خلعت ربقة الإسلام من عنقك وخرجت من الدين عرياناً، فقام عمار مغضباً مولياً وهو يقول: أعوذ بربي من فتنة سعد، فقال سعد: ألا في الفتنة سقطوا.

[3] أُعْجِبَ: تَرَفَّعَ، تَكَبَّرَ.

[4] قال الذهبي: وممن قام على عثمان محمد بن أبي بكر الصديق، فسئل سالم بن عبد الله فيما قيل عن سبب خروج محمد، قال: الغضب والطمع، وكان من الإسلام بمكان، وغرَّه أقوام فطمع، وكانت له دالة، ولزمه حق، فأخذه عثمان من ظهره (جلده).

عثمان يفنِّد ادعاءات المنشقِّين

فأرسل عثمانُ إلى الكوفيينَ والبصريينَ ونادى: الصلاةَ جامعةً! وهمْ عندَه في أصلِ المنبر، فأقبل أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حتى أحاطوا بهم، فحمِد اللهَ وأثنى عليه وأخبرَهم خبرَ القوم[٣]. وقام الرجُلانِ[٤]، فقالوا جميعاً[٥]: اقتلْهم؛ فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ دعا إلى نفسِه أو إلى أحدٍ وعلى الناسِ إمامٌ فعليه لعنةُ الله، فاقْتلوه"[٦]، وقال عمرُ بنُ الخطاب رضِي اللهُ عنه: "لا أُحِلُّ لكم إلا ما قتلتمُوه وأنا شريكُكم". فقال عثمانُ: بل نعفُو ونقبَلُ ونبصِّرهم بجهدِنا ولا نُحادَّ[٧] أحداً حتى يركبَ حَدّاً أو يُبدِيَ

---

[١] ابن سهلة هو محمد بن أبي حذيفة بن عتبة: أبوه من السابقين الأولين، البدريين. وكان جده عتبة بن ربيعة سيد المشركين وكبيرهم، فقتل يوم بدر، واستشهد أبو حذيفة يوم اليمامة، فنشأ محمد في حجر عثمان. وأمه هي سهلة بنت سهيل العامرية. وتربى محمد في كفالة عثمان، ثم خرج عليه واستولى على إمرة مصر.

[٢] لأنه خرج على عثمان وعزل أميره عن مصر واستولى عليها، وستأتي قصته بمزيد تفصيل.

[٣] يعني المنشقين.

[٤] قام الرجلان اللذان أرسلهما إلى المنشقين، فذكرا ما سمعاه، وعند ذلك قال الصحابة ما قالوا.

[٥] يعني الصحابة.

[٦] رواه الديلمي عن أبي بكر.

[٧] نحاد: نعادي.

كفراً، إنَّ هؤلاء ذكرُوا أموراً قد علِمُوا منها مثلَ الذي علمْتُم، إلَّا أنهم زعمُوا أنهم يذاكرُونِيها ليوجِبُوها عليَّ عند مَنْ لا يعلَم:

– قالوا: أتمَّ الصلاةَ في السَّفَر وكانت لا تُتَمُّ[1]، ألا وإني قدِمتُ بلداً فيه أهلي فأتممْتُ لهذينِ الأمرينِ، أَوَ كذلك؟ قالوا: اللهمَّ نَعَم.

– وقالوا: وحَمَيْتَ حِمًى[2]، وإني واللهِ ما حميْتُ إلا ما حُمِيَ قبْلي[3]، والله ما حَمَوا شيئاً لأحدٍ ما حَمَوا إلا غلبَ عليه أهلُ المدينة، ثم لم يمنَعُوا مِنْ رَعْيِهِ أحداً واقتصرُوا لصدقاتِ المسلمين يحمُونها لئلا يكونَ بين مَنْ يلِيها وبين أحدٍ تنازعٌ، ثم ما مَنَعوا ولا نَحَّوا منها أحداً إلا من ساق دَهْماً[4]، وما لي من بعيرٍ غيرَ راحِلتينِ، وما لي ثاغِية ولا راغِية[5]، وإني قد وَلِيتُ وإني أكثرُ العربِ بعيراً وشاءً، فما لي اليومَ شاةٌ ولا بعيرٌ غيرَ بعيرينِ لحَجِّي، أكذلك؟ قالوا: اللهمَّ نَعَم.

---

[1] أول تهمة اتهموا بها عثمان.

[2] الحِمى: ما يخصصه الإمام من الأرض لمواشي الدولة ترعى فيه، ويمنع مواشي الناس عنه.

[3] يعني ما حماه أبو بكر وعمر.

[4] في الأصل المطبوع والطبري: درهماً، والتصويب من ابن عساكر. والدَّهْمُ: العَدَدُ الكثيرُ.

[5] ما له ثاغِيَةٌ ولا راغِيَةٌ: ما لَهُ شاةٌ ولا ناقةٌ.

– وقالوا: كان القرآنُ كتباً فتركتَها إلا واحداً، ألا وإنَّ القرآن واحدٌ جاء من عند واحد، وإنما أنا في ذلك تابعٌ لهؤلاء، أكذلك؟ قالوا: نعم. وسألوه أن يُقيلَهم[1].

– وقالوا: إني رددْتُ الحَكَم[2] وقد سيَّره[3] رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، والحَكَم مَكيٌّ سيَّره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من مكةَ إلى الطائفِ ثم ردَّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فرسولُ الله صلى الله عليه وسلم سيَّره ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ردَّه، أكذلك؟ قالوا: اللهمَّ نَعَم.

– وقالوا: استعملْتَ الأحداثَ[4]، ولم أستعمِلْ إلا مجتمِعاً محتمِلاً مرضِيّاً، وهؤلاء أهلُ عملِهِ فسَلُوهم عنه، وهؤلاء أهلُ بلدِه، ولقد ولَّى مَنْ قَبْلي أحدَثَ منهم، وقيل في ذلك لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم أشدُّ مما قيل لي في استعمالِه أسامةَ[5]، أكذلك؟ قالوا: اللهمَّ نَعَم، يعيبون للناسِ ما لا يفسِّرون.

---

[1] يقيلهم: يصفح عنهم.

[2] الحكم بن أبي العاص الأموي العبشمي القرشي الكناني: صحابي شهد حجة الوداع، هو والد الخليفة الأموي مروان بن الحكم وعم الخليفة الثالث عثمان بن عفان. قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم نفاه إلى الطائف ثم أعاده.

[3] سيره: نفاه.

[4] يعني وليتَ ووظفتَ صغار السن.

[5] أسامة بن زيد، ولاه رسول الله قيادة الجيش وهو في السابعة عشرة.

– وقالوا: إني أعطيتُ ابنَ أبي سَرْحٍ[1] ما أفاء اللهُ عليه، وإني إنما نفلْتُه خُمْسَ ما أفاء اللهُ عليه من الخُمس، فكان مائةَ ألف، وقد نَفَلَ[2] مثلَ ذلك أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما، فزَعَمَ الجندُ أنهم يكرَهُون ذلك فردَدْتُه عليهم وليس ذاك لهم، أكذلك؟ قالوا: نَعَم.

– وقالوا: إني أحبُّ أهلَ بَيْتي وأعطِيهم، فأمَّا حُبِّي فإنه لم يَمِلْ معهم على جَوْر[3] بل أحملُ الحقوقَ عليهم، وأما إعطاؤهم فإنَّ ما أعطِيهم مِنْ مالي، ولا أستحلُّ أموالَ المسلمين لنفسي ولا لأحدٍ مِن الناس، ولقد كنتُ أعطي العطيةَ الكبيرةَ الرغيبةَ مِن صُلب مالي أزمانَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما، وأنا يومئذ شحيحٌ حريصٌ، أفحينَ أتيتُ على أسنانِ أهلِ بَيْتي وفَنِيَ عُمْري وودَّعتُ الذي لي في أهلي قال الملحِدون[4] ما قالوا! وإني واللهِ ما حملتُ على مَصْرٍ من الأمصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددتُه عليهم، وما قدِم عليَّ إلا الأخماسُ ولا يحلُّ لي منها شيء،

---

[1] الصحابي عبدالله بن أبي سرح، أخو عثمان من الرضاع، ولَّاه عثمان مصر.

[2] في الأصل المطبوع والطبري: أنفذ، والتصويب من ابن عساكر.

[3] يعني حب طبيعي لم يحل حراماً ولم يحرم حلالاً.

[4] المنكرون الجاحدون.

فوَلِيَ المسلمون وضعَها في أهلِها دوني، ولا تبلَّغتُ[1] من مالِ الله بفَلْس فما فوقَه، وما أتبلَّغ منه ما آكلُ إلا مالي.

– وقالوا: أعطيتَ الأرضَ رجالاً، وإنَّ هذه الأرَضَين شاركهم فيها المهاجرون والأنصارُ أيامَ افتُتحتْ، فمن أقام بمكانٍ من هذه الفتوحِ فهو أسوةُ أهله، ومَن رجع إلى أهلِه لم يذهبْ ذلك ما حوى اللهُ له، فنظرتُ في الذي يصيبهم مما أفاءِ الله عليهم فبعثُه لهم بأمرِهم من رجالِ أهلِ عقار ببلادِ العرب، فنقلتُ إليهم نصيبَهم فهو في أيديهم دوني[2].

---

[1] في الأصل وفي الطبري وكثير من الكتب التي نقلت عنه: يتلفتُ. وهو خطأ من النساخ. والتصويب من تاريخ دمشق لابن عساكر.

[2] وفي رواية للطبري: سَمِعَ عُثْمَانُ أَنَّ وَفْدَ أَهْلِ مِصْرَ قَدْ أَقْبَلُوا، فَاسْتَقْبَلَهُمْ، فَقَالُوا لَهُ: ادْعُ بِالْمُصْحَفِ، فَدَعَا بِالْمُصْحَفِ، فَقَالُوا لَهُ: افْتَحِ التَّاسِعَةَ – وَكَانُوا يُسَمُّونَ سُورَةَ يُونُسَ التَّاسِعَةَ – فَقَرَأَهَا حَتَّى أَتَى عَلَى هَذِهِ الآيَةِ: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ» قَالُوا لَهُ: قِفْ، أَرَأَيْتَ مَا حَمَيْتَ مِنَ الْحِمَى؟ آللَّهُ أَذِنَ لَكَ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرِي! فَقَالَ: امْضِهِ، نَزَلَتْ فِي كَذَا وَكَذَا قَالَ: وَأَمَّا الْحِمَى فإن عمر حمى الحمى قبلي لإبل الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا وُلِّيتُ زَادَتْ إِبِلُ الصَّدَقَةِ فَزِدْتُ فِي الْحِمَى لِمَا زَادَ فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ، امْضِهِ. فَجَعَلُوا يَأْخُذُونَهُ بِالآيَةِ، فَيَقُولُ: امْضِهِ، نَزَلَتْ فِي كَذَا وَكَذَا.

وكان عثمانُ قد قسَمَ مالَه وأرضَه في بني أمية، وجعل ولَدَه كبعضِ مَن يعطي، فبدأ ببني أبي العاصِ[1] فأعطى آلَ الحَكَم رجالَهم عشرةَ آلافٍ عشرةَ آلافٍ فأخذوا مئةَ ألفٍ، وأعطى بَني عثمانَ مثلَ ذلك، وقَسَمَ في بني العاصِ وفي بني العيص وفي بَني حرب.

ولانتْ حاشيةُ عثمانَ لأولئكَ الطوائفِ[2]، وأبى المسلمون إلا قتلَهم وأبى إلا تركَهم، فذهبُوا ورجعُوا إلى بلادِهم على أن يَغزُوه مع الحُجاَّج كالحُجَّاج، فتكاتَبوا وقالوا: موعدُكم ضَواحي المدينةِ في شوَّال، حتى إذا دخل شوالُ مِنْ سنةِ خمسٍ وثلاثينَ ضَربُوا[3] كالحُجَّاج فنزلُوا قربَ المدينةِ.

---

[1] أبو العاص بن أمية العبشمي القرشي الكناني: هو الابن الأكبر لأمية بن عبد شمس، اشتهر بفروسيته، وقُتل عام الفيل أثناء اشتباكه مع جيش أبرهة الحبشي في بطن مكة. وأولاده: العاص (توفي صغيراً)، عفَّان (والد الصحابي والخليفة عثمان)، الحَكَم (صحابي ووالد الخليفة مروان بن الحكم).

[2] المنشقين.

[3] نصبوا خيامهم.

خروج الثوار إلى المدينة عام ٣٥ هـ:

وهكذا لما كان شوالُ سنةَ خمسٍ وثلاثينَ خرجَ أهلُ مِصْرَ في أربعِ رِفاقٍ[١] على أربعةِ أمراءَ، الْمُقَلِّل يقول: ستمائةٌ، والْمُكْثِر يقول: ألفٌ[٢]، على الرِّفاق عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُدَيْسٍ الْبَلَوِيُّ[٣]، وكِنانَةُ بنُ بِشْرٍ التُجِيبي[٤]، وسودانُ بنُ حُمْران السُّكوني[٥]، وقُتيرة بنُ فلان السُّكوني[٦]، وعلى القوم جميعاً الغافِقي ابنُ حرب

---

[١] الرفاق: جمع رفقة، وهي الجماعة في السفر.

[٢] يعني عددهم بين ستمائة وألف.

[٣] عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُدَيْسٍ الْبَلَوِيُّ: مصري، شهد الحديبية. وكان الأمير على جيش القادمين من مصر إلى المدينة الذين حصروا عثمان وقتلوه. توفي بالشام سنة ست وثلاثين وكَانَ مِمَّنْ أَخَذَهُ مُعَاوِيَةُ فِي الرَّهْنِ، فَسَجَنَهُمْ بِفِلَسْطِينَ، فَهَرَبُوا مِنَ السِّجْنِ، فَاتُّبِعُوا حَتَّى أُدْرِكُوا فقتلوا.

[٤] كِنانَة بن بِشْر بن عَتَّاب التُجِيبي: أحد من سار إلى حصر عثمان بن عفان، وممن تولى قتله. وفيه يقول الوليد بن عقبة بن أبي معيط: (ألا إن خير الخلق بعد ثلاثةٍ ... قتيل التجيبي الذي جاء من مصر) وكانت عاقبته كنانة وقوعه قتيلاً في الحرب التي نشبت سنة ٣٨ في مصر بين محمد بن أبي بكر الصديق نائب علي وبين عمرو بن العاص ومن معه من جيش معاوية بن حديج السكوني.

[٥] وسودان بن حمران السكوني: من قبائل مراد اليمنية النازلة في مصر، وكان في سنة ١٤ أحد الذين قدموا في خلافة عمر للجهاد فلما استعرضهم عمر وقع نظره على سودان بن حمران هذا وعلى زميله خالد بن ملجم فتشاءم منهما وكرههما. وفي حصار عثمان تسوّر سودان ومعه آخرون من دار عمرو بن حزم إلى دار عثمان. ولما انتهوا من قتل أمير المؤمنين خرج سودان من الدار وهو ينادي: قد قتلنا عثمان بن عفان.

[٦] قتيرة بن فلان السكوني: يمني من حضرموت. كان من الذين طعنوا عثمان.

العكي[1]، ولم يجترئوا أن يُعلِموا الناسَ بخروجهم إلى الحرب، وإنما خرجوا كالحُجَّاج ومعهم ابنُ السَّوداء[2].

وخرج أهلُ الكوفةِ في أربعِ رفاقٍ وعلى الرفاقِ زيدُ بنُ صُوحان العَبديُّ[3]، والأشترُ النَّخعيُّ[4]، وزيادُ بنُ النَّضْر الحارثيُّ[5]، وعبدُ الله بنُ الأصم أحدُ بني عامر بن صعصعة، وعددُهم كعددِ أهل مِصرَ، وعليهم جميعاً عمرُو بنُ الأصمِّ[6].

---

[1] الغافقي بن حرب العكي: من أبناء وجوه القبائل اليمنية التي نزلت مصر عند الفتح. وكان لما منعوا عثمان من الصلاة بالناس في المسجد النبوي صار الغافقي ثم كان من المجترئين على عثمان وضربه بحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار. وبعد قتل عثمان بقيت المدينة خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب.

[2] ابن سبأ.

[3] أخو صعصعة وسيحان.

[4] مالك بن الحارث النخعي الكوفي المشهور بالأشتر.

[5] زياد بن النضر الحارثي: كان من أعيان التابعين، وتولى في موقعة صفين قيادة مقدمة الجيش.

[6] وقيل: عمرو بن الحمق الخزاعي: سكن الكوفة، وكان من قتلة عثمان ثم كان مع علي، فشهد معه الجمل وصفين. قتل سنة خمسين من الهجرة.

وخرج أهلُ البصرةِ في أربعِ رفاقٍ، وعلى الرفاقِ حُكَيمُ بنُ جَبَلَة العبديُّ[1]، وذريحُ بنُ عبَّادٍ العبديُّ[2]، وبِشْرُ بنُ شريحٍ الحَطَم بن ضبيعة القيسيُّ، وابن المحرّش بن عبد بن عمرو الحنفيُّ، وعددُهم كعددِ أهلِ مصرَ، وأميرُهم جميعاً حرقوص بن زهير السعديُّ[3]، سِوى مَنْ تلاحَقَ بهم من الناسِ.

فأمَّا أهلُ مصرَ فإنهم كانوا يشتهون عَلياً، وأمَّا أهلُ البصرة فإنهم كانوا يشتهون طلحةَ، وأمَّا أهلُ الكوفةِ فإنهم كانوا يشتهون الزُّبير.

فخرجُوا وهم على الخُروج جميعٌ وفي الناسِ شتَّى لا تشكُّ كلُّ فرقةٍ إلا أنَّ الفَلْجَ[4] معها، وأنَّ أمرَها سيتم دون الآخرين، فخرجوا حتى إذا كانوا من المدينةِ على ثلاثٍ[5] تقدَّم ناسٌ مِن أهلِ البصرة فنزلوا ذا خَشَب، وناسٌ من أهل الكوفة فنزلوا الأعوصَ، وجاءهم ناسٌ من أهل مِصرَ وتركوا عامَّتهم بذي المروةِ[6].

---

[1] حُكَيْم بن جَبَلة العَبْدي: أحد المنتفضين ضد عائشة حين جاءت إلى البصرة.

[2] ذريح بن عباد البصري: قتل سنة ٣٥ يوم الجمل قبل وصول علي إلى البصرة.

[3] بقي إلى أيام علي وشهد معه صفين، ثم صار من الخوارج ومن أشدهم على علي بسبب التحكيم وقتل في سنة سبع وثلاثين في النهروان.

[4] الفلج: الظفر والفوز.

[5] ثلاث مراحل من مراحل السفر. محطات الاستراحة.

[6] ذو خشب والأعوص وذو المروة: جبال قريبة من المدينة.

ومشى فيما بين أهلِ مصرَ وأهلِ البصرة زيادُ بنُ النَّضر، وعبدُ الله ابن الأصمّ، وقالا: لا تَعْجَلوا ولا تُعجِلونا حتى ندخلَ لكم المدينةَ ونرتادَ[1]؛ فإنه بلَغَنا أنهم قد عسكرُوا لنا، فوالله إنْ كان أهلُ المدينةِ قد خافُونا واستحلُّوا قتالَنا ولم يعلمُوا عِلمَنا، فهم إذا علِموا عِلمَنا أشدُّ وإنَّ أمرَنا هذا لباطلٌ، وإنْ لم يستحِلُّوا قتالَنا ووجدْنا الذي بَلَغَنا باطلاً لنرجِعنَّ إليكم بالخبر.

قالوا: اذهبا. فدخلَ الرجلانِ فلقِيا أزواجَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم وعليّاً وطلحةَ والزبيرَ، وقالا: إنما نأتمُّ هذا البيتَ ونستعفِي هذا الواليَ من بعضِ عمَّالنا، ما جئنا إلا لذلك، واستأذَنَاهمْ للناسِ بالدخول، فكلُّهم أبى ونهى، وقال: بَيْضٌ ما يُفرِخن .

فرجعا إليهم، فاجتمع مِنْ أهلِ مصرَ نفرٌ فأتوا عَلياً، ومن أهل البصرة نفرٌ فأتوا طلحةَ، ومن أهل الكوفةِ نفرٌ فأتوا الزبيرَ. وقال كلُّ فريق منهم: إنْ بايعوا صاحبَنا، وإلا كِدْناهم وفرَّقنا جماعتَهم ثم كَرَرْنا حتى نبغتَهم.

ما قاله عليٌّ وطلحة والزبير للثوار وتظاهرُهم بالعودة:

فأتى المصريون عَلياً وهو في عسكرٍ عند أحجار الزيت ، عليه حُلة أفواف مُعْتمٌّ بشقيقةٍ حمراءَ يمانية، متقلِّدٌ السيفَ، ليس عليه قميصٌ، وقد سرح ابنَه الحسنَ إلى عثمانَ فيمن اجتمع إليه ، فالحَسَنُ جالسٌ عند عثمانَ، وعليٌّ

---

[1] نستكشف.

عند أحجار الزيت، فسلَّم عليه المصريون وعَرَضوا له، فصاح بهم واطَّردهم، وقال: لقد علم الصالحون أنَّ جيشَ ذي المروة وذي خشب ملعونون على لسان محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فارجِعوا لا صحِبكم الله! قالوا: نعم. فانصرفوا من عنده على ذلك.

وأتى البصريون طلحةَ وهو في جماعةٍ أخرى إلى جنب عليٍّ، وقد أرسل بَنِيه إلى عثمانَ، فسلَّم البصريون عليه وعرضوا له، فصاح بهم واطَّردهم، وقال: لقد علم المؤمنون أن جيشَ ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسانِ محمد صلى الله عليه وسلم.

وأتى الكوفيون الزبيرَ وهو في جماعةٍ أخرى، وقد سرح ابنَه عبدَ الله إلى عثمانَ، فسلَّموا عليه وعَرَضوا له، فصاح بهم واطَّردهم، وقال: لقد علم المسلمون أنَّ جيش ذي المروة وذي خشب والأعوص ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم .

فخرج القومُ وأرَوْهم أنهم يرجِعون فانْفَشَوا عن ذي خشب والأعوص حتى انتهوا إلى عساكرِهم، وهي ثلاثُ مَراحِل ، كي يفترقَ أهلُ المدينة ثم يكرُّوا راجعينَ، فافترق أهلُ المدينةِ لخروجِهم.

مباغتة المدينة

فلما بلغ القومُ عساكرَهم كرُّوا بهم فبغَتُوهم، فلم يفجأ أهلَ المدينةِ إلا والتكبيرُ في نواحي المدينة، فنزلوا في مواضِع عساكرِهم وأحاطوا بعثمانَ وقالوا: مَنْ كفَّ يدَه فهو آمِن.

وصلَّى عثمانُ بالناس أياماً، ولزم الناسُ بيوتَهم ولم يمنعوا أحداً من كلام، فأتاهم الناسُ فكلَّموهم وفيهم عليٌّ فقال: ما ردَّكم بعد ذهابِكم ورجوعِكم عن رأيكم؟ قالوا أخذْنا مع البريدِ كتاباً بقتلِنا .

وأتاهم طلحةُ فقال البصريون مثلَ ذلك، وأتاهم الزبيرُ فقال الكوفيون مثلَ ذلك، وقال الكوفيون والبصريون: فنحن ننصرُ إخوانَنا ونمنعُهم جميعاً ،كأنما كانوا على ميعاد .

فقال لهم عليٌّ: كيف علمتُم يا أهلَ الكوفة ويا أهلَ البصرة بما لقيَ أهلُ مصرَ وقد سِرْتم مراحلَ ثم طويتُم نحوَنا! هذا واللهِ أمرٌ أبرِم بالمدينة! قالوا: فضَعُوه على ما شئتم ، لا حاجةَ لنا في هذا الرَّجُل، ليعتزِلْنا، وهو في ذلك يصلِّي بهم وهم يصلُّون خلفَه، ويَغْشَى مَنْ شاء عثمانَ وهم في عينِه أدقُّ من التُّراب، وكانوا لا يَمنعون أحداً مِنَ الكلام، وكانوا زُمَراً بالمدينة يَمنعون الناسَ مِنَ الاجتماع.

كتابة عثمان إلى الأمصار يطلب المدد

وكتبَ عثمانُ إلى أهلِ الأمصارِ يستمدُّهم : بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعدُ، فإنَّ الله عز وجل بعث محمداً بالحق بشيراً ونذيراً، فبلَّغ عنِ الله ما أمرَه به، ثم مَضَى وقد قَضَى الذي عليه، وخلَّف فينا كتابَه، فيه حلالُه وحرامُه وبيانُ الأمور التي قدَّر، فأمضاها على ما أحبَّ العبادُ وكرِهوا، فكان الخليفةُ أبو بكرٍ رضي الله عنه، وعمرُ رضي الله عنه، ثم أُدْخِلْتُ في الشُّورى عن غيرِ علمٍ ولا مسألة، عن مَلأٍ مِنَ الأمة، ثم أجمع أهلُ الشورى عن مَلأٍ منهم ومن الناس علَيَّ، على غيرِ طلبٍ مني ولا محبَّة، فعملتُ فيهم ما يعرِفون ولا يُنكرون ، تابعاً غير مستتبِع، متَّبِعاً غير مبتدِع، مقتدِياً غير متكلِّف، فلما انتهتِ الأمورُ وانتكثَ الشرُّ بأهلِه بدتْ ضغائنُ وأهواءٌ على غير اجترامٍ ولا ترَة فيما مضى، إلا إمضاءَ الكتاب، فطَلبوا أمراً وأعلَنوا غيرَه بغير حُجَّة ولا عُذْر، فعابوا علَيَّ أشياءَ مما كانوا يَرْضَون، وأشياءَ عن ملأٍ من أهلِ المدينة لا يصلُح غيرُها، فصبرتُ لهم نفسي وكففتُها عنهم منذ سنين وأنا أرى وأسمع، فازدادوا على اللهِ عزَّ وجلَّ جُرأةً، حتى أغاروا علينا في جوارِ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَرَمِه وأرضِ الهِجرة، وثابتْ إليهمُ الأعرابُ فهم كالأحزابِ أيامَ الأحزاب أو مَنْ غَزانا بأُحُد، إلا ما يُظهِرون، فمَنْ قدَرَ على اللحاقِ بنا فليلْحقْ.

فأتى الكِتابُ أهلَ الأمصارِ فخرجوا على الصَّعْبة والذَّلول ، فبعثَ معاويةُ حبيبَ بنَ مسلمَة الفِهري ، وبعث عبدُ الله بنُ سعدٍ معاويةَ بنَ حديج السكوني ، وخرج من أهلِ الكوفةِ القعقاعُ بنُ عمرو.

وكان المحضِّضين بالكوفة على إعانة أهلِ المدينة عقبةُ بنُ عمرٍو ، وعبدُ الله بنُ أبي أوفى ، وحنظلةُ بنُ الربيع التميميُّ ، في أمثالهم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وكان المحضِّضين بالكوفة من التابعين أصحابُ عبدِ الله مسروق بن الأجدع، والأسودِ بن يزيد، وشريحِ بن الحارث، وعبدِ الله بن عكيم في أمثالهم يسيرون فيها ويطوفون على مجالسِها يقولون: يا أيُّها الناس إنَّ الكلامَ اليومَ وليس به غداً، وإنَّ النظرَ يحسُن اليومَ ويقبُح غداً، وإنَّ القتال يحِلُّ اليومَ ويحرُمُ غداً، انهضُوا إلى خليفتِكم وعِصْمةِ أمرِكم.

وقام بالبصرة عمرانُ بنُ حُصَين، وأنسُ بنُ مالك، وهشامُ بنُ عامرٍ في أمثالهم من أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم يقولون مثلَ ذلك، ومن التابعين كعبُ بنُ سور، وهرمُ بنُ حيَّان العبدي، وأشباهٌ لهما يقولون ذلك.

وقام بالشامِ عبادةُ بنُ الصامِت، وأبو الدرداء، وأبو أُمامة في أمثالهم من أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم يقولون مثلَ ذلك، ومن التابعين شريكُ بنُ خباشة النُّمَيريُّ، وأبو مسلم الخولانيُّ، وعبدُ الرحمن بنُ غَنْم بمثل ذلك.

وقام بمصرَ خارجة في أشباهٍ له، وقد كان بعض المحضِّضين قد شهد قدومهم، فلما رأوا حالهم انصرفوا إلى أمصارِهم بذلك وقاموا فيهم.

ولما جاءت الجُمُعة التي على إثر نزولِ المصريين مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم خَرَجَ عثمانُ فصلَّى بالناس، ثم قام على المنبر فقال: يا هؤلاء العِدى، اللهَ اللهَ! فوالله إنَّ أهلَ المدينةِ ليعلمونَ أنَّكم ملعونون على لسانِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فامحُوا الخطايا بالصواب؛ فإنَّ الله عز وجل لا يمحو السيِّئَ إلا بالحَسَن.

فقام محمدُ بنُ مَسْلَمة فقال: أنا أشهدُ بذلك، فأخذه حُكَيمُ بنُ جَبَلة فأقعدَه، فقام زيدُ بنُ ثابتٍ فقال: ابغِني الكتاب ، فثار عليه من ناحيةٍ أخرى محمدُ بنُ أبي قُتَيرة فأقعدَه، وقال فأفظَعَ ، وثار القومُ بأجمعِهم فحَصَبوا الناسَ حتى أخرجُوهم من المسجد، وحَصَبوا عثمانَ حتى صُرِعَ على المنبر مغشياً عليه فاحتُمِل فأُدخِل دارَه.

وكان المصريون لا يطمعون في أحدٍ من أهلِ المدينة أن يساعدَهم إلا في ثلاثةِ نَفَر؛ فإنهم كانوا يراسلونهم: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حُذيفة، وعمَّار بن ياسر.

وشمَّر أناسٌ من الناس فاستقتَلُوا، منهم سعدُ بنُ مالك، وأبو هريرة، وزيدُ بن ثابت، والحسَنُ بنُ علي، فبعث إليهم عثمانُ بعزمِه لَمَا انصَرَفوا ، فانصَرَفوا،

وأقبل عليٌّ – عليه السلامُ – حتى دخل على عثمانَ، وأقبل طلحةُ حتى دخل عليه، وأقبل الزبيرُ حتى دخل عليه، يعودونه من صَرْعتِه ويشكُون بثَّهم ، ثم رجعوا إلى منازلهم.

وقد سأل أبو عمرٍو الحَسَنَ هل شهدْتَ حَصْرَ عثمانَ؟ قال: نعم! وأنا يومئذ غُلامٌ في أترابٍ لي في المسجد، فإذا كثُر اللغطُ جثوتُ على ركبتي أو قمتُ، فأقبل القومُ حين أقبلوا حتى نزلوا المسجدَ وما حوله، فاجتمع إليهم أناسٌ من أهلِ المدينةِ يعظِّمون ما صَنَعوا، وأقبلوا على أهلِ المدينة يتوعدونهم، فبَيْنا هم كذلك في لغَطِهم حولَ البابِ فطلع عثمانُ فكأنما كانت ناراً طُفِئتْ، فعمِد إلى المنبر فصعدَه فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه، فثار رجلٌ فأقعدَه رجلٌ، وقام آخرُ فأقعدَه آخُر، ثم ثار القومُ فحَصَبوا عثمانَ حتى صُرِعَ فاحتُمِل فأُدخِل فصَلَّى بهم عشرين يوماً ثم مَنعوه من الصلاة.

وفي رواية أخرى لسيف

صَلَّى عُثْمَانُ بِالنَّاسِ بَعْدَ مَا نَزَلُوا بِهِ فِي الْمَسْجِدِ ثَلاثِينَ يَوْمًا، ثُمَّ إِنَّهُمْ مَنَعُوهُ الصَّلاةَ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ أَمِيرُهُمُ الْغَافِقِيُّ، دَانَ لَهُ الْمِصْرِيُّونَ وَالْكُوفِيُّونَ وَالْبَصْرِيُّونَ، وَتَفَرَّقَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فِي حِيطَانِهِمْ وَلَزِمُوا بُيُوتَهُمْ، لا يَخْرُجُ أَحَدٌ وَلا يَجْلِسُ إِلا وَعَلَيْهِ سَيْفُهُ يَمْتَنِعُ بِهِ مِنْ رَهَقِ الْقَوْمِ. وَكَانَ الْحِصَارُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا،

وَفِيهِنَّ كَانَ الْقَتْلُ، وَمَنْ تَعَرَّضَ لَهُمْ وَضَعُوا فِيهِ السِّلاحَ، وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ثَلاثِينَ يَوْمًا يَكُفُّونَ.

آخر خطبة لعثمان

وكانت آخرَ خِطبةٍ خَطَبها عثمانُ رضي اللهُ عنه في جماعة:

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا أَعْطَاكُمُ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الآخِرَةَ، وَلَمْ يُعْطِكُمُوهَا لِتَرْكَنُوا إِلَيْهَا، إِنَّ الدُّنْيَا تَفْنى والآخرة تَبْقَى، فلا تُبْطِرِنَّكم الفانيةُ، ولا تَشْغَلَنَّكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ، وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللَّهِ. اتَّقُوا اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ، فَإِنَّ تَقْوَاهُ جُنَّةٌ مِنْ بَأْسِهِ، وَوَسِيلَةٌ عِنْدَهُ، وَاحْذَرُوا مِنَ اللهِ الغِيَر، والزَمُوا جماعتَكم لا تَصِيروا أحزاباً {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً}.

ولَمَّا قَضَى عُثْمَانُ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ حاجاتِه، وعَزَمَ وَعَزَمَ لَهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الصَّبْرِ وَالامْتِنَاعِ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ، قَالَ: اخْرُجُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَكُونُوا بِالْبَابِ، وَلْيُجَامِعْكُمْ هَؤُلاءِ الَّذِينَ حُبِسُوا عَنِّي.

وَأَرْسَلَ إِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَعَلِيٍّ وَعِدَّةٍ: أَنِ ادْنُوا فاجتمِعُوا، فأشرَفَ عليهم، فقال: يا أَيُّها النَّاسُ، اجْلِسُوا، فَجَلَسُوا جَمِيعًا، الْمُحَارِبُ الطَّارِئُ، وَالْمُسَالِمُ الْمُقِيمُ، فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، إِنِّي أَسْتَوْدِعُكُمُ اللَّهَ، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُحْسِنَ عَلَيْكُمُ الْخِلافَةَ مِنْ بَعْدِي، وإني وَاللَّهِ لا أُدْخِلُ عَلَيَّ أَحَداً بَعْدَ يَوْمِي هَذَا حَتَّى

يَقْضِيَ اللَّهُ فِيَّ قَضَاءَهُ، وَلأَدَعَنَّ هَؤُلاءِ وَمَا وَرَاءَ بَابِي غَيْرَ مُعْطِيهِمْ شَيْئًا يَتَّخِذُونَهُ عَلَيْكُمْ دَخَلاً فِي دِينِ اللَّهِ أَوْ دُنْيَا، حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الصَّانِعَ فِي ذَلِكَ مَا أَحَبَّ.

وَأَمَرَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِالرُّجُوعِ وَأَقْسَمَ عَلَيْهِمْ، فَرَجَعُوا إِلا الْحَسَنَ ومحمَّداً وابنَ الزُّبير وَأَشْبَاهًا لَهُمْ، فَجَلَسُوا بِالْبَابِ عَنْ أَمْرِ آبَائِهِمْ، وَثَابَ إِلَيْهِمْ نَاسٌ كَثِيرٌ، وَلَزِمَ عُثْمَانُ الدَّارَ.

الحصار

كان الحصْرُ أربعين ليلةً، والنزولُ سَبعينَ، فلما مضتْ مِنَ الأربعينَ ثماني عشرةَ قَدِمَ رُكبانٌ من الوجوهِ فأخبَروا خبرَ مَنْ قد تهيَّأ إليهم من الآفاق: حبيب من الشام، ومعاوية مِنْ مِصر والقعقاع من الكوفة ومجاشِع من البصرة، فعندَها حالوا بين الناسِ وبين عثمانَ ومنعُوه كلَّ شيء حتى الماءَ، وقد كان يُدخَلُ عليه بالشيء مما يريد.

وطلبوا العِللَ فلم تطلع عليهم عِلةٌ، فعثروا في دارِه بالحجارة ليرمُوا فيقولوا: قوتِلنا – وذلك ليلاً – فناداهم: ألا تتقون الله! ألا تعلمون أنَّ في الدارِ غيري؟ قالوا: لا واللهِ ما رمَيْناك، قال: فمَن رَمانا؟ قالوا: الله، قال: كذبتُم، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لو رمانا لم يخطئنا وأنتم تخطئوننا .

وأشرفَ عثمانُ على آلِ حَزْمٍ، وهم جيرانُه، فسرح ابناً لعمرٍو إلى عليٍّ بأنهم قد مَنَعونا الماءَ، فإن قدَرْتم أنْ ترسِلوا إلينا شيئاً من الماء فافْعَلوا، وإلى طلحةَ وإلى الزبيرِ وإلى عائشةَ رضي الله عنها وأزواجِ النبي صلى الله عليه وسلم، فكان أوَّلَهم إنجاداً له عليٌّ وأمُّ حَبِيبة ، جاء عليٌّ في الغَلَس فقال: يا أيُّها الناس إنَّ الذي تصنعون لا يُشبِه أمرَ المؤمنين ولا أمرَ الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادةَ؛ فإن الرومَ وفارسَ لتُؤسَرُ فتُطعَمُ وتُسقَى، وما تَعَرَّض لكم هذا الرجل، فبم تستحلون حصرَه وقتلَه؟ قالوا: لا والله ولا نعمةَ عين لا نتركُه يأكل ولا يشرب. فرمى بعمامتِه في الدارِ بأني قد نهضتُ فيما أنهضْتَني، فرَجَعَ.

وجاءت أمُّ حبيبةَ على بغلة لها برحالة مشتملةً على إداوة فقيل: أمُّ المؤمنين أمُّ حبيبة، فضَربوا وجْهَ بغلتِها، فقالت: إنَّ وصايا بني أمية إلى هذا الرجل ، فأحببتُ أنْ ألقاه فأسألَه عن ذلك كي لا تهلكَ أموالُ أيتامٍ وأراملَ، فقالوا: كاذِبة، وأهوَوا لها وقطَعوا حبْلَ البغلةِ بالسيف فندَّتْ بأمِّ حبيبة، فتلقاها الناسُ وقد مالت رحالتُها، فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تُقتل، فذهبوا بها إلى بيتِها.

وتجهزتْ عائشةُ خارجةً إلى الحجِّ هاربةً واستتبعتْ أخاها فأبى ، قالت: أمَا واللهِ لئن استطعتُ أن يحرمَهم الله ما يحاولون لأفعلنَّ.

وجاء حنظلةُ الكاتبُ حتى قام على محمدِ بنِ أبي بكر فقال: يا محمدُ تستتبِعُكَ أمُّ المؤمنين فلا تتبَعُها وتدعوك ذُؤبانُ العرب إلى ما لا يحِل فتتبَعُهم! فقال: ما أنتَ وذاكَ يابنَ التَّمِيمية؟ فقال: يابنَ الخثْعميةِ إنَّ هذا الأمرَ إنْ صار إلى التغالُبِ غلَبَتْكَ عليه بنو عبد مناف .

وانصرف وهو يقول:

عجبتُ لِمَا يخوضُ الناسُ فيهِ

يُرومُون الخلافةَ أنْ تَزُولا

ولو زالت لزالَ الخيرُ عنهمْ

ولاقَوا بعدَها ذُلاًّ ذَليلا

وكانوا كاليهودِ أو النَّصارى

سواءً كلُّهم ضَلُّوا السَّبيلا

ولحِقَ بالكوفة.

وخرجتْ عائشةُ وهي ممتلئةٌ غيْظاً على أهلِ مصرَ. وجاءها مروانُ بنُ الحَكَم فقال: يا أمَّ المؤمنينَ لو أقمتِ كان أجدرَ أن يراقِبوا هذا الرجلَ ، فقالت: أتريد أن يُصنَع بي كما صُنِع بأمِّ حبيبةَ ثم لا أجدُ مَنْ يمنعني! لا والله ولا أُعَيَّر، ولا أدري إلامَ يُسلَمُ أمرُ هؤلاء!

وبلغ طلحةَ والزبيرَ ما لَقِي عليٌّ وأمُّ حبيبةَ، فلزِموا بيوتَهم ، وبقِي عثمانُ يسقيه آلُ حزمٍ في الغَفَلات، عليهم الرُّقباءُ، فأشرفَ عثمانُ على الناسِ فقال: يا عبدَ الله بنَ عبَّاس – فدُعِي له – فقال: اذهبْ فأنتَ على الموسِم – وكان ممن لزِمَ البابَ – فقال: واللهِ يا أميرَ المؤمنين لجهادُ هؤلاءِ أحبُّ إليَّ من الحَج، فأقسمَ عليه لينطَلِقَنَّ، فانطلقَ ابنُ عباس على الموسِم تلك السنة.

ورَمى عثمانُ إلى الزُّبير بوصيَّتِه، فانصرف بها – وفي الزبير اختلافُ: أأدركَ مقتلَه أو خرج قبلَه – وقال عثمانُ: {وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ}، اللهمَّ حُلْ بين الأحزابِ وبين ما يأمُلُون كما فُعِل بأشياعِهم من قبْل.

وبعثتْ لَيْلى ابنةُ عُمَيس إلى محمدِ بنِ أبي بكر ومحمدِ بنِ جعفر فقالت: إنَّ المصباحَ يأكلُ نفسَه ويضيءُ للناس، فلا تَأْثَما في أمرٍ تسُوقانِه إلى من لا يأثمُ فيكما؛ فإنَّ هذا الأمرَ الذي تحاولون اليومَ لغيرِكم غداً، فاتَّقوا أنْ يكونَ عملُكم اليومَ حسرةً عليكم. فلجَّا وخرَجا مغضَبَيْن يقولان: لا ننسى ما صَنَعَ بنا عثمانُ، وتقول: ما صَنَعَ بكما! ألا ألزمكما الله؟ فلقِيَهما سعيدُ بنُ العاص وقد كان بين محمد بن أبي بكر وبينه شيء فأنكرَه حين لقيه خارجاً من عند ليلى، فتمثل له في تلك الحال بيتاً:

اِسْتَبْقِ وِدَّكَ لِلصَديقِ وَلا تَكُنْ قَتَباً يَعَضُّ بِغارِبٍ مِلْحاحا

فأجابه سعيدٌ متمثلاً:

ترونَ إذا ضرباً صميماً مَنِ الذي له جانبٌ ناءٍ عن الحَزْمِ مُعْوِرُ

فلما توقَّع الناسُ السابقَ فقدِم بالسلامةِ، وأُخبِر عنْ أهلِ الموسِم أنهم يريدون جميعاً المصريين وأشياعَهم، وأنهم يريدون أن يُجمِعوا ذلك إلى حَجِّهم، فلما أتاهم ذلك، مع ما بلغَهم من نفورِ أهلِ الأمصارِ أعلَقَهم الشيطانُ وقالوا: لا يُخرِجنا مما وقعْنا فيه إلا قتلُ هذا الرجل؛ فيشتغِلُ بذلك الناسُ عنا. ولم يبق خصلةٌ يرجون بها النجاةَ إلا قتلَه، فرامُوا البابَ، فمنعَهم مِن ذلك الحَسَنُ وابنُ الزبير ومحمدُ بنُ طلحة ومروانُ بنُ الحَكَم وسعيدُ بنُ العاص ومن كان من أبناءِ الصحابة أقام معهم، واجتلدوا فناداهم عثمانُ: اللهَ اللهَ! أنتم في حِلٍّ من نُصْرتي، فأَبَوا، ففتحَ البابَ وخرجَ ومعه الترسُ والسيفُ ليُنَهْنِهَهم ، فلما رأوه أدْبَرَ المصريون وركبَهم هؤلاء ونهنَهَهم فتراجعوا، وعظَّم على الفريقين، وأقسم على الصحابة ليدخُلُنَّ، فأبَوا أن ينصرِفوا فدَخلوا، فأغلَقَ البابَ دونَ المصريين.

وقد كان المغيرةُ بنُ الأخنسِ بنِ شُرَيق فيمن حَجَّ ثم تعجَّل في نَفرٍ حَجُّوا معه، فأدركَ عثمانَ قبل أنْ يُقتل وشهدَ المناوشةَ ودخل الدارَ فيمن دخل، وجلس على البابِ من داخلٍ، وقال: ما عذرُنا عندَ الله إن تركناكَ ونحن نستطيع ألا نَدَعَهم حتى نموت؟

واتخذ عثمانُ تلك الأيامَ القرآنَ نَجِيًّاً يصلِّي به، وعنده المصحفُ، فإذا أعيا جلس فقرأ فيه – وكانوا يرون القراءةَ في المصحفِ مِنَ العبادة – وكان القومُ الذين كَفْكَفهمْ بينَه وبين الباب، فلما بَقِي المصريون لا يمنعُهم أحدٌ من الباب ولا يقدرون على الدخول جاؤوا بنارٍ فأحرَقوا البابَ والسَّقيفةَ، فتأجَّج البابُ والسقيفةُ، حتى إذا احترَقَ الخشبُ خَرَّتِ السقيفةُ على الباب، فثار أهلُ الدار وعثمانُ يصلِّي حتى منعوهم الدخولَ، وكان أوَّلَ مَنْ بَرَزَ لهم المغيرةُ بنُ الأخنس وهو يرتجز:

قد علمتْ جارية عطبولُ

ذاتُ وشاحٍ ولها جديلُ

أني بنصْلِ السيفِ خنشليلُ

لأمنعنَّ منكمُ خليلي

بصارمٍ ليس بذي فلولِ

وخرج الحَسَنُ بنُ علي وهو يقول:

لا دينُهمْ ديني ولا أنا منهمُ حتى أسيرَ إلى طَمارِ شمامِ

وخرج محمدُ بنُ طلحة وهو يقول:

أنا ابنُ مَن حامَى عليه بأُحُدْ ورَدَّ أحزاباً على رغْم مَعَدْ

وخرج سعيدُ بنُ العاص وهو يقول:

صبرْنا غداةَ الدارِ والموتُ واقبٌ

بأسيافِنا دونَ ابنِ أروى نضاربُ

وكنا غداةَ الرَّوعِ في الدارِ نصرةً

نشافِهُهمْ بالضَّربِ والموتُ ثاقبُ

فكان آخرَ مَنْ خرج عبدُ الله بنُ الزبير، وأمَرَه عثمانُ أن يصيرَ إلى أبيه في وصيةٍ بما أراد، وأمرَه أنْ يأتيَ أهلَ الدار فيأمرَهم بالانصرافِ إلى منازِلهم. فخرج عبدُ الله بنُ الزبير آخرَهم، فما زال يَدَّعي بها ويحدِّثُ الناس عن عثمانَ بآخرِ ما مات عليه.

وَأَحْرَقُوا الْبَابَ وَعُثْمَانُ فِي الصَّلاةِ، وَقَدِ افْتَتَحَ: (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى) وَكَانَ سَرِيعَ الْقِرَاءَةِ، فَمَا كَرَثَهُ مَا سَمِعَ، وَمَا يُخْطِئُ وَمَا يَتَتَعْتَعُ، حَتَّى أَتَى عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ عَادَ فَجَلَسَ إِلَى عِنْدِ نَجِيِّه الْمُصْحَفِ، وَقَرَأَ: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}.

وَارْتَجَزَ الْمُغِيرَةُ بْنُ الأَخْنَسِ، وَهُوَ دُونَ الدَّارِ فِي أَصْحَابِهِ:

قَدْ عَلِمَتْ ذَاتُ الْقُرُونِ الْمِيلِ

وَالْحَلْيِ وَالأَنَامِلِ الطَّفُولِ

لَتَصْدُقَنَّ بَيْعَتِي خَلِيلِي

بصارمٍ ذي رونقٍ مصقولِ

لا أَسْتَقِيلُ إِنْ أُقِلْتُ قَيْلِي

وأقبل أبو هريرةَ والناسُ محجِمون عن الدارِ، إلَّا أولئك العصبةَ قد سَروا فاستقْتَلوا، فقام معهم وقال: أنا إسوتُكم، وقال: هذا يومَ طاب امْضَرْبُ – يعني أنه حَلَّ القتالُ وطابَ، وهذه لُغة حِمْيَر – ونادى: (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ) وبادر مروانُ يومئذ ونادى: رَجُلٌ رَجُلٌ، فَبَرَزَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي لَيْثٍ يُدْعَى النَّبَّاعَ، فاختلفا فضربَه مروانُ أسفلَ رِجليه وضربَه الآخرُ على أصلِ العُنُق فقلبَه فانكبَّ مروانُ واسْتلقى، فاجترَّ هذا أصحابُه واجترَّ الآخرَ أصحابُه فَقَالَ الْمِصْرِيُّونَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْلا أَنْ تَكُونُوا حُجَّةً عَلَيْنَا فِي الأُمَّةِ، لَقَدْ قَتَلْنَاكُمْ بَعْدَ تَحْذِيرٍ.

فَقَالَ الْمُغِيرَةُ : مَنْ يُبَارِزُ؟ فَبَرَزَ لَهُ رَجُلٌ فَاجْتَلَدَ، وَهُوَ يَقُولُ:

أَضْرِبُهُمُ بِالْيَابِسِ

ضَرْبَ غُلامٍ بَائِسِ

مِنَ الْحَيَاةِ آيِسِ

فأجابه صاحبُه.

وقَالَ النَّاسُ: قُتِلَ الْمُغِيرَةُ بْنُ الأَخْنَسِ، فَقَالَ الَّذِي قَتَلَهُ: إِنَّا لِلَّهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُدَيْسٍ: مَا لَكَ؟ قَالَ: إِنِّي أُتِيتُ، فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، فَقِيلَ لِي: بَشِّرْ قَاتِلَ الْمُغِيرَةِ بْنِ الأَخْنَسِ بِالنَّارِ، فَابْتُلِيتُ بِهِ.

وَقَتَلَ قُبَاثٌ الْكِنَانِيُّ نِيَارَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَسْلَمِيَّ، وَاقْتَحَمَ النَّاسُ الدَّارَ مِنَ الدُّورِ الَّتِي حَوْلَهَا، حَتَّى مَلَئُوهَا، وَلا يَشْعُرُ الَّذِينَ بِالْبَابِ.

وَأَقْبَلَتِ الْقَبَائِلُ عَلَى أَبْنَائِهِمْ، فَذَهَبُوا بِهِمْ إِذْ غُلِبُوا عَلَى أَمِيرِهِمْ، وَنَدَبُوا رَجُلاً لِقَتْلِهِ، فَانْتُدِبَ لَهُ رَجُلٌ فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ، فَقَالَ: اخْلَعْهَا وَنَدَعَكَ. فَقَالَ: وَيْحَكَ، وَاللَّهِ مَا كَشَفْتُ امْرَأَةً فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلا إِسْلامٍ، وَلا تَغَنَّيْتُ، وَلا تَمَنَّيْتُ، وَلا وَضَعْتُ يَمِينِي عَلَى عَوْرَتِي مُنْذُ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَسْتُ خَالِعًا قَمِيصًا كَسَانِيهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَا عَلَى مَكَانِي حَتَّى يُكْرِمَ اللَّهُ أَهْلَ السَّعَادَةِ، وَيُهِينَ أَهْلَ الشَّقَاءِ.

مقتل عثمان

فَخَرَجَ، وَقَالُوا: مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: عَلِقْنا وَاللَّهِ، وَاللَّهِ مَا يُنْجِينَا مِنَ النَّاسِ إِلا قَتْلُهُ، وَمَا يَحِلُّ لَنَا قَتْلُهُ. فَأَدْخَلُوا عَلَيْهِ رَجُلاً مِنْ بَنِي لَيْثٍ، فَقَالَ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: لَيْثِيٌّ، فَقَالَ: لَسْتَ بِصَاحِبِي. قَالَ: وَكَيْفَ؟ فَقَالَ: أَلَسْتَ الَّذِي دَعَا لَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفَرٍ أَنْ تُحْفَظُوا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَلَنْ تُضَيِّعَ، فَرَجَعَ، وَفَارَقَ الْقَوْمَ.

فَأَدْخَلُوا عَلَيْهِ رَجُلاً مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ: يَا عُثْمَانُ إِنِّي قَاتِلُكَ، قَالَ: كَلَّا يَا فُلانُ لا تَقْتُلْنِي ، قَالَ: وَكَيْفَ؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَغْفَرَ لَكَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَلَنْ تُقَارِفَ دَمًا حَرَامًا، فَاسْتَغْفَرَ وَرَجَعَ، وَفَارَقَ أَصْحَابَهُ.

فَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ حَتَّى قَامَ عَلَى بَابِ الدَّارِ يَنْهَاهُمْ عَنْ قَتْلِهِ، وَقَالَ: يَا قَوْمِ لا تَسُلُّوا سَيْفَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، فَوَاللَّهِ إِنْ سَلَلْتُمُوهُ لا تُغْمِدُوهُ، وَيْلَكُمْ إِنَّ سُلْطَانَكُمُ الْيَوْمَ يَقُومُ بِالدِّرَّةِ، فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُ لا يَقُمْ إِلا بِالسَّيْفِ، وَيْلَكُمْ إِنَّ مَدِينَتَكُمْ مَحْفُوفَةٌ بِمَلائِكَةِ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُوهُ لَتَتْرُكَنَّهَا، فَقَالُوا: يَابْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَمَا أَنْتَ وَهَذَا؟ فَرَجَعَ عَنْهُمْ.

وَكَانَ آخِرَ مَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ مِمَّنْ رَجَعَ إِلَى الْقَوْمِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ. فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: وَيْلَكَ أَعَلَى اللَّهِ تَغْضَبُ؟ هَلْ لكَ إِليَّ جُرْمٌ إِلَّا حَقَهُ الذي أَخَذْتُهُ مِنْكَ؟ فَنَكَلَ وَرَجَعَ.

فَلَمَّا خَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَعَرَفُوا انْكِسَارَهُ، ثَارَ قُتَيْرَةُ وَسُودَانُ بْنُ حُمْرَانَ السَّكُونِيَّانِ، وَالْغَافِقِيُّ، فَضَرَبَهُ الْغَافِقِيُّ بِحَدِيدَةٍ مَعَهُ، وَضَرَبَ الْمُصْحَفَ بِرِجْلِهِ، فَاسْتَدَارَ الْمُصْحَفُ فَاسْتَقَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَسَالَتْ عَلَيْهِ الدِّمَاءُ.

وَجَاءَ سُودَانُ بْنُ حُمْرَانَ لِيَضْرِبَهُ، فَانْكَبَّتْ عَلَيْهِ نَائِلَةُ ابْنَةُ الْفُرَافِصَةِ[1]، وَاتَّقَتِ السَّيْفَ بِيَدِهَا فَتَعَمَّدَهَا، وَنَفَحَ أَصَابِعَهَا، فَأَطَنَّ أَصَابِعَ يَدِهَا[2]، وَوَلَّتْ، فَغَمَزَ أَوْرَاكَهَا، وَقَالَ: إِنَّهَا لَكَبِيرَةُ الْعَجِيزَةِ. وَضَرَبَ عُثْمَانَ فَقَتَلَهُ.

وَدَخَلَ غِلْمَةٌ لِعُثْمَانَ مَعَ الْقَوْمِ لِيَنْصُرُوهُ، وَقَدْ كَانَ عُثْمَانُ أَعْتَقَ مَنْ كَفَّ مِنْهُمْ، فَلَمَّا رَأَوْا سُودَانَ قَدْ ضَرَبَهُ، أَهْوَى لَهُ بَعْضُهُمْ فَضَرَبَ عُنُقَهُ فَقَتَلَهُ، وَوَثَبَ قُتَيْرَةُ عَلَى الْغُلامِ فَقَتَلَهُ، وَانْتَهَبُوا مَا فِي الْبَيْتِ، وَأَخْرَجُوا مَنْ فِيهِ، ثُمَّ أَغْلَقُوهُ عَلَى ثَلاثَةِ قَتْلَى.

فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى الدَّارِ وَثَبَ غُلامٌ لِعُثْمَانَ آخَرُ عَلَى قُتَيْرَةَ فَقَتَلَهُ، وَدَارَ الْقَوْمُ فَأَخَذُوا مَا وَجَدُوا، حَتَّى تَنَاوَلُوا مَا عَلَى النِّسَاءِ. وَأَخَذَ رَجُلٌ مُلاءَةَ نَائِلَةَ، وَالرَّجُلُ يُدْعَى كُلْثُومَ بْنَ تُجِيبَ، فَتَنَحَّتْ نَائِلَةُ، فَقَالَ: وَيْحَ أُمِّكِ مِنْ عَجِيزَةٍ مَا أَتَمَّكِ. وَبَصَرَ بِهِ غُلامٌ لِعُثْمَانَ فَقَتَلَهُ وَقُتِلَ، وَتَنَادَى الْقَوْمُ: أَبْصَرَ رَجُلٌ مَنْ صَاحِبُهُ، وَتَنَادَوْا فِي الدَّارِ: أَدْرِكُوا بَيْتَ الْمَالِ، لا تُسْبَقُوا إِلَيْهِ.

وَسَمِعَ أَصْحَابُ بَيْتِ الْمَالِ أَصْوَاتَهُمْ، وَلَيْسَ فِيهِ إِلا غِرَارَتَانِ[3]، فَقَالُوا: النَّجَاءَ فَإِنَّ الْقَوْمَ إِنَّمَا يُحَاوِلُونَ الدُّنْيَا، فَهَرَبُوا، وَأَتَوْا بَيْتَ الْمَالِ فَانْتَهَبُوهُ، وَمَاجَ النَّاسُ

---

[1] زوجة عثمان.

[2] يقال: نفحت الرجل بالسيف: تناولته به. وأطن: قطع.

[3] كيسان من فضة.

فِيهِ، فالتَّانِئ[1] يَسْتَرْجِعُ وَيَبْكِي، وَالطَّارِئُ يَفْرَحُ، وَنَدِمَ الْقَوْمُ فتخلَّى منهم الشيطانُ.

وَكَانَ الزُّبَيْرُ قَدْ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَأَقَامَ عَلَى طَرِيقِ مَكَّةَ لِئَلَّا يَشْهَدَ مَقْتَلَهُ، فَلَمَّا أَتَاهُ الْخَبَرُ بِمَقْتَلِ عُثْمَانَ، وَهُوَ بِحَيْثُ هُوَ، قَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، رَحِمَ اللَّهُ عُثْمَانَ وَانْتَصَرَ لَهُ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْقَوْمَ نَادِمُونَ؛ فَقَالَ: دَبَّرُوا دَبَّرُوا (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ).

وَأَتَى الْخَبَرُ طَلْحَةَ، فَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ عُثْمَانَ وَانْتَصَرَ لَهُ وَلِلإِسْلامِ. وَقِيلَ لَهُ: إِنَّ الْقَوْمَ نَادِمُونَ، فَقَالَ: تَبًّا لَهُمْ، وَقَرَأَ: (فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ).

وَأَتَى عَلِيٌّ، فَقِيلَ: قُتِلَ عُثْمَانُ، فَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ عُثْمَانَ، وَخَلَفَ عَلَيْنَا بِخَيْرٍ، وَقِيلَ: نَدِمَ الْقَوْمُ، فَقَرَأَ: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ).

وَطُلِبَ سَعْدٌ[2] فَإِذَا هُوَ فِي حَائِطِهِ[3]، وَقَدْ قَالَ: لا أَشْهَدُ قَتْلَهُ. فَلَمَّا جَاءَهُ قَتْلُهُ قَالَ: فَرَرْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ بدينِنا فصرْنا اليوم نفرُّ منها بدينِنا[4]، وَقَرَأَ: (الَّذِينَ ضَلَّ

---

[1] التانئ: المقيم.

[2] سعد بن أبي وقاص.

[3] بستانه.

[4] في الأصل المطبوع: فدنِّينا. وهو خطأ. والتصويب من تاريخ دمشق لابن عساكر.

سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) اللَّهُمَّ أَنْدِمْهُمْ، ثُمَّ خُذْهُمْ .

وعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيٍّ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ مَقْتُولٌ، وَإِنَّهُ إِنْ قُتِلَ وَأَنْتَ بِالْمَدِينَةِ أَلحدُوا فِيكَ[1]، فَاخْرُجْ فَكُنْ بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ وَكُنْتَ فِي غَارٍ بِالْيَمَنِ طَلَبَكَ النَّاسُ. فَأَبَى.

وَحُصِرَ عُثْمَانُ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا، ثُمَّ أَحْرَقُوا الْبَابَ، وَفِي الدَّارِ أُنَاسٌ كَثِيرٌ، فِيهِمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَمَرْوَانُ، فَقَالُوا: ائْذَنْ لَنَا[2]. فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا[3]، فَأَنَا صَابِرٌ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَحْرِقُوا بَابَ الدَّارِ إِلا وَهُمْ يَطْلُبُونَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ، فَأُحَرِّجُ[4] عَلَى رَجُلٍ يَسْتَقْتِلُ وَيُقَاتِلُ .

---

[1] في الأصل المطبوع: اتّخذوا. وهو خطأ. والتصويب من تاريخ دمشق لابن عساكر. ومعنى ألحدوا فيك: طعنوا فيك.

[2] يخاطبون عثمان.

[3] يعني لما بشره بالشهادة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على جبلِ حراءٍ فتحرك، فقال: (اسكن حراء! فما عليك إلا نبيٌّ، أو صدِّيقٌ، أو شهيدٌ. وعليه النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ وعمر وعثمان وعليٌّ وطلحةُ والزبيرُ وسعد بن أبي وقاصٍ رضي الله عنهم) رواه مسلم.

[4] أمنع وأشدد.

وَخَرَجَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، وَدَعَا بِالْمُصْحَفِ يَقْرَأُ فِيهِ، وَالْحَسَنُ عِنْدَهُ، فَقَالَ: إِنَّ أَبَاكَ الآنَ لَفِي أَمْرٍ عَظِيمٍ، فَأَقْسَمْتُ عَلَيْكَ لَمَا خَرَجْتَ.

وَأَمَرَ عُثْمَانُ أَبَا كَرِبٍ رَجُلاً مِنْ هَمْدَانَ، وَآخَرَ مِنَ الأَنْصَارِ أَنْ يَقُومَا عَلَى بَابِ بَيْتِ الْمَالِ، وَلَيْسَ فِيهِ إِلا غِرَارَتَانِ مِنْ وَرِقٍ، فَلَمَّا أُطْفِئَتِ النَّارُ بَعْدَمَا نَاوَشَهُمُ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَمَرْوَانُ، وَتَوَعَّدَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَمَرْوَانَ، فَلَمَّا دُخِلَ عَلَى عُثْمَانَ هَرَبَا، وَدَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى عُثْمَانَ، فَأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، فَقَالَ: أَرْسِلْ لِحْيَتِي، فَلَمْ يَكُنْ أَبُوكَ لِيَتَنَاوَلَهَا. فَأَرْسَلَهَا.

وَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَخُؤُهُ بِنَعْلِ سَيْفِهِ، وَآخَرُ يَلْكِزُهُ، وَجَاءَهُ رَجُلٌ بِمَشَاقِصَ[1] مَعَهُ، فَوَجَأَهُ فِي تُرْقُوَتِهِ، فَسَالَ الدَّمُ عَلَى الْمُصْحَفِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَهَابُونَ فِي قَتْلِهِ، وَكَانَ كَبِيرًا وَغُشِيَ عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُونَ، فَلَمَّا رَأَوْهُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ جَرُّوا بِرِجْلِهِ، فَصَاحَتْ نَائِلَةُ وَبَنَاتُهُ، وَجَاءَ التُّجِيبِيُّ مُخْتَرِطًا[2] سَيْفَهُ لِيَضَعَهُ فِي بَطْنِهِ، فَوَقَتْهُ نَائِلَةُ، فَقَطَعَ يَدَهَا، وَاتَّكَأَ بِالسَّيْفِ عَلَيْهِ فِي صَدْرِهِ.

---

[1] مشاقص: سهام عريضة.

[2] اخترط السيف: سلَّه.

وَقُتِلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَنَادَى مُنَادٍ: مَا يَحِلُّ دَمُهُ وَيحرُم[1] مَالُهُ، فَانْتَهَبُوا كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ تَبَادَرُوا بَيْتَ الْمَالِ، فَأَلْقَى الرَّجُلانِ الْمَفَاتِيحَ وَنَجَوَا، وَقَالا: الْهَرَبَ الْهَرَبَ، هَذَا مَا طَلَبَ الْقَوْمُ.

بعض سَيْر عثمان بن عفان رضي الله عنه

كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَدْ حَجَرَ عَلَى أَعْلامِ قُرَيْشٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْخُرُوجَ فِي الْبُلْدَانِ إِلا بِإِذْنٍ وَأَجَلٍ، فَشَكَوْهُ فَبَلَغَهُ، فَقَامَ فَقَالَ: أَلا إِنِّي قَدْ سَنَنْتُ الإِسْلامَ سَنَّ الْبَعِيرِ[2]، يَبْدَأُ فَيَكُونُ جَذَعًا، ثُمَّ ثَنِيًّا، ثُمَّ رُبَاعِيًّا، ثُمَّ سَدِيسًا، ثُمَّ بَازِلاً[3]، أَلا فَهَلْ يُنْتَصَرُ بِالْبَازِلِ إِلا النُّقْصَانَ؟ أَلا فَإِنَّ الإِسْلامَ قَدْ بَزَلَ، أَلا وَإِنَّ قُرَيْشًا يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مَالَ اللَّهِ مُغَوِّياتٍ[4] دُونَ عِبَادَةٍ، أَلا فَأَمَّا وَابْنُ الْخَطَّابِ حَيٌّ فَلا، إِنِّي قَائِمٌ دُونَ شِعْبِ الْحَرَّةِ[5]، آخِذٌ بِحَلاقِيمِ قُرَيْشٍ وَحُجُزِهَا، أَنْ يَتَهَافَتُوا فِي النَّارِ.

---

[1] في المطبوعة: وَيُحَرَّجُ، وهو خطأ واضح، انظر إلى المقابلة بين: يحل ويحرم.

[2] سن الإبل يسنها سناً: إذا رعاها فأسمنها والمعنى أن عمر عاصر الإسلام في كل أحواله.

[3] هذه أسنان الإبل: الثني: الذي يلقي ثنيته (٣ سنوات) والجذع قبله، الرباعي: الذي ألقى رباعيته وهو بعد الثني، والسديس: ما أتت عليه السادسة: والبازل: الذي انشق بابه بدخوله في السنة التاسعة.

[4] في الأصل المطبوع: مَعُونَاتٍ. وهو خطأ. والمغويات: وسائل اللهو.

[5] حجارة المدينة.

فلمَّا وِلِيَ عُثْمَانُ لم يأخذْهم بِالَّذِي كَانَ يأخذُهم بِهِ عمرُ، فانساحُوا فِي البلاد، فلما رأَوْها ورأَوُا الدُّنْيَا، ورآهمُ الناسُ، انقطع إليهم مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ طَوْلٌ وَلا مَزِيَّة فِي الإِسْلام، فكان مغموراً[1] فِي الناس، وصاروا أوزاعاً إِلَيْهِم وأمَّلوهم، وتقدَّموا فِي ذَلِكَ فَقَالُوا: يملكون فنكون قَدْ عرفناهم، وتقدمنا فِي التقرُّب والانقطاع إِلَيْهِم، فكان ذَلِكَ أولَ وهنٍ دخل عَلَى الإِسْلام، وأول فتنةٍ كَانَتْ فِي العامة، ليس إلا ذَلِكَ.

آراء متفرقة في تحليل الفتنة

لم يمتْ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى ملَّته قريشٌ، وَقَدْ كَانَ حَصَرهم بِالْمَدِينَةِ، فامتنع عَلَيْهِم، وَقَالَ: إنَّ أخوفَ مَا أخافُ عَلَى هَذِهِ الأمةِ انتشارُكم فِي البلاد، فإنْ كَانَ الرجل لَيستأذِنُه فِي الغزو - وَهُوَ ممن حُبِس بِالْمَدِينَةِ من الْمُهَاجِرِينَ، ولم يكن فعلَ ذَلِكَ بغيرِهم من أهلِ مكة - فيقول: قَدْ كَانَ فِي غزوِك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مَا يبلِّغك، وخير لك من الغزو الْيَوْم أَلا ترى الدُّنْيَا وَلا تراك، فلما وَلِي عُثْمَانُ خلَّى عَنْهُمْ، فاضطربوا فِي البلاد، وانقطع إِلَيْهِم الناسُ، فكان أحبَّ إِلَيْهِم مِنْ عمر.

---

[1] فِي المطبوعة والطبري: مغموماً. والتصويب من ابن عساكر. والمغمور: غيرُ المشهور، المجْهُولٌ، خَامِلُ الذِّكْرِ.

ولما ولِيَ عُثْمَانُ حجَّ سنواتِه كلَّها – إلا آخرَ حَجَّة – وحجَ بأزواجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا كان يصنع عمرُ، فكان عبدُ الرحمن بن عوفٍ فِي موضِعه، وجعل فِي موضِعِ نفسِه سَعِيدَ بنَ زَيْدٍ، هَذَا فِي مؤخَّر القِطار، وهذا فِي مقدَّمه، وأمِن الناسُ، وكَتَبَ فِي الأمصارِ أنْ يوافيَه العمالُ فِي كلِّ موسِم ومَنْ يشكونهم، وكَتَبَ إِلَى النَّاسِ في الأمصار، أنِ ائتمروا بالمعروف، وتناهَوا عن المنكَر، وَلا يُذِلَّ المؤمنُ نفسَه، فإني مع الضعيفِ عَلَى القويِّ مَا دام مظلوماً إِنْ شَاءَ اللَّهُ. فكان الناس كذَلِكَ، وجرى ذَلِكَ إِلَى أنِ اتخذه أقوامٌ وسيلةً إلى تفريق الأمة.

ولم تمضِ سنةٌ من إمارةِ عُثْمَانَ حَتَّى اتخذَ رجالٌ من قريشٍ أموالاً فِي الأمصار، وانقطع إِلَيْهِمُ الناسُ، وثبتوا سبعَ سنين، كلُّ قومٍ يحبون أن يَلِيَ صاحبُهم.

ثُمَّ إنَّ ابنَ السوداء أسلَمَ، وتكلَّمَ وَقَدْ فاضتِ الدُّنْيَا، وطلعتِ الأحداثُ[1] عَلَى يديه، فاستطالوا عُمْر عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد كان أولَ منكرٍ ظهر بِالْمَدِينَةِ حين فاضتِ الدُّنْيَا، وانتهى وسعُ الناسِ طيرانُ الحمَامِ والرميُ عَلَى الجلاهقات[2]. فاستعملَ عَلَيْهَا عُثْمَانُ رجلاً من بني ليْثٍ سنةَ ثمانٍ، فقصَّها وكَسَرَ الجلاهقات.

---

[1] ظهر الشبان أبناء الصحابة.

[2] الجلاهق: قوس البندق الذي يرمى به.

وهكذا فإنَّ أولَ مَنْ مَنَعَ الحَمَامَ الطيارةَ والجلاهقاتِ عُثْمَانُ، ظهرت بِالْمَدِينَةِ فأمَّر عَلَيْهَا رجلاً، فمنعهم منها.

وفي رواية أخرى زيادة

وحَدَثَ بين الناسِ النَّشْو[1].

فأرسل عُثْمَانُ طائفاً يطوفُ عَلَيْهِم بالعصا فمَنَعَهم من ذَلِكَ.

ثُمَّ اشتد ذَلِكَ فأفشى الحدودَ، وساءَ[2] ذَلِكَ عُثْمَانَ، وشكاه إِلَى النَّاسِ، فاجتمعوا عَلَى أن يَجْلِدوا فِي النَّبيذ، فأُخِذ نفرٌ مِنْهُمْ فجُلِدوا.

ولما حدثتِ الأحداثُ[3] بِالْمَدِينَةِ خرج منها رجالٌ إِلَى الأمصار مجاهدين، وليدْنوا من العرب، فمنهم مَنْ أتى الْبَصْرَةَ، ومنهم من أتى الكوفةَ، ومنهم من أتى الشامَ، فهجموا جميعاً من أبناء الْمُهَاجِرِينَ بالأمصارِ عَلَى مثل مَا حدث فِي أبناء الْمَدِينَةِ، إلا مَا كَانَ من أبناءِ الشام، فرجعوا جميعاً إِلَى الْمَدِينَةِ إلا من كَانَ بِالشَّامِ، فأخبَروا عُثْمَانَ بخبرِهم، فقام عُثْمَانُ فِي الناسِ خطيباً، فَقَالَ: يَا أهلَ الْمَدِينَةِ، أنتم أصلُ الإِسْلام، وإنما يَفسُدُ الناسُ بفسادِكم، ويَصلُحُون بصلاحِكم، وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ لا يَبلُغُني عن أحدٍ مِنْكم حدثٌ

---

[1] الانتشاء والترنح من السُّكر.

[2] في المطبوعة والطبري: ونبّأ. والتصويب من ابن عساكر.

[3] يعني ظهر الشباب من أبناء المهاجرين والأنصار.

أحدثَه إلا سيَّرتُه[1]، أَلَا فلا أعرفنَّ أحداً عرض دون أُولَئِكَ بكلامٍ وَلا طلبٍ، فإنَّ مَنْ كَانَ قبلَكم كَانَتْ تقطَّع أعضاؤهم دون أن يتكلمَ أحدٌ مِنْهُمْ بِمَا عَلَيْهِ وَلا لَهُ.

وجعل عُثْمَانُ لا يأخذُ أحداً مِنْهُمْ[2] عَلَى شرٍّ أو شهْرِ سِلاح: عصاً فما فوقَها إلا سيَّره، فضجَّ آباؤهم من ذَلِكَ حَتَّى بَلَغَه أَنَّهُمْ يقولون: مَا أحدثَ التسييرَ إلا أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سَيَّرَ الحَكَمَ بنَ أبي العاص، فَقَالَ[3]: إنَّ الحَكَمَ كان مكِّياً، فسيَّره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منها إِلَى الطائف، ثُمَّ ردَّه إِلَى بلدِه، فرسولُ الله صلى الله عليه وسلم سيَّره بذنبِه، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ردَّه بعفوِه، وَقَدْ سيَّر الخليفةُ من بعدِه[4]، وعمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بعدِ الخليفة، وايمُ اللَّه لآخذَنَّ العفوَ من أخلاقِكم، ولأبذلنَّه لكم من خُلُقي، وَقَدْ دَنَتْ أمورٌ، وَلا أحبُّ أن تحلَّ بنا وبكم، وأنا عَلَى وَجَلٍ وحَذَر، فاحذَروا واعتبِروا.

---

[1] سيرته: نفيته.

[2] من الشباب.

[3] يعني عثمان.

[4] يعني أبو بكر.

سبب خروج محمد بن أبي حذيفة وعمَّار على عثمان

وقد سأل سائلٌ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ[1] عن مُحَمَّدِ بن أبي حُذَيْفَةَ[2]: مَا دعاه إِلَى الخروجِ عَلَى عُثْمَانَ؟ فَقَالَ: كَانَ يتيماً فِي حِجْر عُثْمَان، فكان عُثْمَانُ والي أيتامِ أهلِ بيتِه، ومحتمِلَ كَلِّهم[3]، فسأل عُثْمَانَ العملَ[4] حين ولِيَ، فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، لو كنت رِضًا[5] ثُمَّ سألتَني العملَ لاستعملتُك، ولكنْ لستَ هُنَاكَ! قَالَ: فائْذنْ لي فلأخرجْ فلأطلبْ مَا يقُوتُني، قَالَ: اذهبْ حَيْثُ شئتَ، وجهَّزه من عندِه، وحملِه وأعطاه، فلما وقع إِلَى مصرَ كَانَ فيمن تغيَّر عَلَيْهِ أنْ منعه

---

[1] سعيد بن الْمُسَيِّبِ (١٥ – ٩٤ هـ): تابعي مدني، مُلقّب بـ «عالم أهل المدينة»، وبـ «سيد التابعين» في زمانه، وأحد رواة الحديث النبوي، وأحد فقهاء المدينة السبعة من التابعين.

[2] محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة: أحد الأشراف، ولد لأبيه لما هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة. ولما توفي النبي – صلى الله عليه وسلم – كان هذا ابن إحدى عشرة سنة. وكان أبوه أبو حذيفة من السابقين الأولين، البدريين. وكان جده عتبة بن ربيعة سيد المشركين وكبيرهم، فقتل يوم بدر مع أخيه شيبة، واستشهد أبو حذيفة يوم اليمامة، فنشأ محمد في حجر عثمان. ولما ذهب محمد بن أبي حذيفة إلى مصر انقلب على متوليها عقبة بن مالك الذي استعمله عبد الله بن أبي سرح لما وفد إلى عثمان، فأخرج عقبةَ عن الفسطاط، وخلع عثمانَ.

[3] الكَلُّ: مَن يكون عبئًا على غيره. قال تعالى: (وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ).

[4] طلب منه أن يستعمله والياً.

[5] الرضا: المرضي.

الولاية[1]. قيل: فعمَّارُ بنُ ياسر؟ قَالَ: كَانَ بينَه وبين عباسِ بنِ عتبة بن أبي لهب كلامٌ، فضربهما عُثْمَانُ، فأورثَ ذاك بينَ آلِ عمارٍ وآلِ عُتبةَ شراً حَتَّى اليوم، وكنَّى عمَّا ضُرِبا عَلَيْهِ وفيه[2].

قال مبشِّر: سألتُ سَالمَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ[3] عن مُحَمَّد بن أبي بكر: مَا دعاه إِلَى ركوبِ عُثْمَانَ؟ فَقَالَ: الغضبُ والطمعُ، قلتُ: مَا الغضبُ والطمعُ؟ قَالَ: كَانَ من الإِسْلامِ بالمكان الَّذِي هُوَ بِهِ، وغرَّه أقوامٌ فطمِع وكانت لَهُ دالةٌ فلزِمه حقٌّ، فأخذه عُثْمَان من ظهرِه، ولم يدهِنْ، فاجتمع هَذَا إِلَى هَذَا، فصار مذمَّماً بعد أن كَانَ محمداً[4].

ولَمَّا ولِيَ عثمانُ لانَ لهم فانتَزَعَ الحقوقَ انتزاعاً ولم يعطِّل حقاً فأحبُّوه على لينه فأسلمَهم ذلك إلى أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

---

[1] قال الذهبي مُعلِقاً على حياة محمد القصيرة: «عامة من سعى في دم عثمان قُتِلوا، وعسى القتل خيراً لهم وتمحيصاً».

[2] يعني أن سعيداً امتنع عن ذكر السبب الذي ضربهما عثمان فيه. وهذا من الأخلاق الرفيعة لسعيد.

[3] سالم بن عبد الله بن عمر الخطاب: تابعي مدني، وأحد رواة الحديث النبوي، ومفتي المدينة المنورة في زمانه، وجدّهُ الفاروق عمر بن الخطّاب.

[4] يعني أن عثمان جلده في حق فغضب محمد.

وكَانَ مما أحدث عُثْمَانُ فرُضِي بِهِ مِنْهُ أنه ضرَبَ رجلاً فِي مُنازعةٍ استخفَّ فِيهَا بالعباسِ بنِ عبدِ المطلب، فقيل لَهُ[1]، فقال: نعمْ، أيفخِّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عمَّه وأُرخِصُ فِي الاستخفافِ بِهِ! لقد خالف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مَنْ فعل ذَلِكَ، ومَنْ رَضِي بِهِ مِنْهُ.

قَالَ حُمْرَانُ بْنُ أَبَانٍ: أَرْسَلَنِي عُثْمَانُ إِلَى الْعَبَّاسِ بَعْدَ مَا بُويِعَ، فَدَعَوْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا لَكَ تَعَبَّدْتَنِي[2]! لَمْ أَكُن قَطُّ أَحْوَجَ إِلَيْكَ مِنِّي الْيَوْمَ، قَالَ: الْزَمْ خَمْسًا، لا تُنَازِعْكَ الأُمَّةُ خَزَائِمَهَا[3] مَا لَزِمْتَهَا، قَالَ: وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الصَّبْرُ عَنِ الْقَتْلِ، وَالتَّحُبُّبُ، وَالصَّفْحُ، وَالْمُدَارَاةُ، وَكِتْمَانُ السِّرِّ.

---

[1] يعني سألوا عثمان عن سبب ذلك فبين أن رسول الله عظَّم عمه فلا ينبغي لي أن أخالف ذلك.

[2] تعبده: جفاه أو عامله معاملة العبد.

[3] الخزائم: كرائم الأموال.

وبلغ عُثْمَانَ أنَّ ابن ذي الحبكة النهدي[1] يعالج نيرنجاً[2]، فأرسل إِلَى الْوَلِيدِ بن عُقْبَةَ[3] ليسألَه عن ذَلِكَ، فإنْ أقرَّ بِهِ فأوجِعْه، فدعا بِهِ فسألَه، فَقَالَ: إنما هُوَ رفقٌ وأمرٌ يُعجَب مِنْهُ، فأمَرَ بِهِ فعزِّر، وأخبر الناسَ خبرَه، وقرأ عَلَيْهِم كتابَ عُثْمَان: إنه قَدْ جدَّ بكم، فعَلَيْكُمْ بالجدِّ، وإياكمْ والهزلَ، فكان الناسُ عَلَيْهِ، وتعجَّبوا مِن وقوفِ عُثْمَانَ علَى مثلِ خَبرِه، فغضِبَ[4]، فنَفَرَ فِي الَّذِينَ نَفَروا، فضُرِب معهم، فكُتِب إِلَى عُثْمَانَ فِيهِ، فلما سيَّر إِلَى الشام من سيَّر، سيَّر كعبَ بنَ ذي الحبكة ومالكَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ – وَكَانَ دينُه كدينه – إِلَى دنباوند[5]، لأنها أرضُ سَحَرَة، فَقَالَ فِي ذَلِكَ كعبُ بنُ ذي الحبكة للوليد:

لعمري لَئِنْ طرَّدْتَني مَا إِلَى الَّتِي طمعْتَ بِهَا مِن سقطتي لسبيلُ

---

[1] كعب بن ذي الحبكة النهدي: شاعر من أهل الكوفة، اتهم بما يسمى "النيرنج" من أنواع السحر. وبلغ خبره الخليفة عثمان بن عفان فأرسل إلى الوليد ابن عقبة (والي الكوفة) ليسأله فإن أقر بذلك فليوجعْه ضرباً.

[2] نوع من السحْر.

[3] الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي القرشي (ت ٦١ هـ): صحابي وأخو الخليفة عثمان بن عفان لأمه، ولّاه عثمان الكوفة.

[4] يعني ابن ذي الحبكة النهدي.

[5] منطقة مرتفعة في إيران.

رجوتَ رجوعي يا بنَ أروْى[1] ورجْعتي إِلَى الحقِّ دهراً غالَ ذَلِكَ غولُ
وإنَّ اغترابي فِي البلادِ وجفْوتي وشتْميَ فِي ذاتِ الإلهِ قليلُ
وإنَّ دعائي كلَّ يومٍ وليلةٍ عليكَ بدنباوندِكمْ لطويلُ

فلما وِلِيَ سعيدٌ أقفَلهَ[2] وأحسنَ إليه واستصلَحَه، فلم يزدَدْ إلا فساداً.

واستعار ضابئ بن الْحَارِث البرجمي[3] فِي زمان الْوَلِيد بن عُقْبَةَ من قومٍ من الأنصار كلْباً يُدعى قرْحان، يَصيد الظِّباء، فحبَسَه عَنْهُمْ[4]، فنافرَه الأنصاريون، واستغاثُوا عَلَيْهِ بقومِه فكاثَرُوه، فانتزعوه مِنْهُ وردُّوه عَلَى الأنصار، فهجاهمْ وَقَالَ فِي ذَلِكَ:

تَحشَّمَ دوني وفدُ قرْحانَ خطةً تضلُّ لها الوجناءُ وهي حسيرُ
فباتوا شباعاً ناعمين كأنما حَباهمْ ببيتِ المرزُبانِ أميرُ

---

[1] ابن أروى: الوليد، وأروى كذلك أم عثمان، فهما أخوان من الأم.

[2] أعاده.

[3] ضابئ بن الحارث بن أرطاة التميمي البرجمي: شاعر، خبيث اللسان، كثير الشر. عرف في الجاهلية. وأدرك الإسلام، فعاش بالمدينة إلى أيام عثمان. وكان مولعاً بالصيد، وله خيل. وكان ضعيف البصر: سجنه عثمان بن عفان لقتله صبياً بدابته، ولم ينفعه الاعتذار بضعف بصره. ولما انطلق هجا قوماً من بني نهشل، فأعيد إلى السجن. وعرِض السجناء يوماً فإذا هو قد أعدّ سكيناً في نعله يريد أن يغتال بها عثمان، فلم يزل في السجن إلى أن مات.

[4] يعني سرقه ولم يُعده إليهم.

فكلبُكمُ لا تَترُكوا فهو أمُّكمْ فإنَّ عقوقَ الأمهاتِ كبيرُ

فاستَعْدَوا عليه عثمانَ، فأرسلَ إليه فعزَّره وحبَسَه كما كان يَصنع بالمسلمين، فاستثقلَ ذلكَ، فمازال في الحبسِ حتى مات فيه، وقال في الفتْكِ[1] يعتذرُ إلى أصحابَه:

هممْتُ ولم أفعلْ وكِدْتُ وليتني تركتُ على عثمانَ تبكي حلائلُهْ

وقائلةٍ قد مات في السجْنِ ضابئ ألا مَنْ لخصْمٍ لم يَجِدْ مَن يجادلُهْ

وقائلةٍ لا يُبعدِ اللهُ ضابئاً فنعْمَ الفتى تخلو به وتُحاولُهْ

فذلك صار عميرُ بنُ ضابئ سَبئياً[2].

عن المستنير، عن أخيه، قَالَ: وَاللَّهِ مَا علمتُ وَلا سمعتُ بأحدٍ غزا عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلا ركبَ إِلَيْهِ إلا قُتِل، لقد اجتمع بالكوفةِ نفرٌ، فِيهِمُ الأَشْتَرُ، وزَيْدُ بنُ صوحان، وكعبُ بنُ ذي الحبكة، وأبو زينب، وأبو مورع، وكُميل بن زياد، وعُميرُ بنُ ضابئ، فَقَالُوا: لا وَاللَّهِ لا يُرفَع رأسٌ مَا دام عُثْمَانُ عَلَى الناس.

---

[1] يعني نيته قتل عثمان.

[2] صار ابنه عمير من أتباع ابن سبأ من أجل ما حدث لأبيه. وكان عمير ممن قتلوا عثمان، فأمسك به الحجاج بعد ذلك فقتله.

فَقَالَ عميرُ بنُ ضابئ وكميلُ بنُ زياد: نحن نقتلُه، فركِبا إِلَى الْمَدِينَةِ، فأمَّا عميرٌ فإنه نَكَل عنه، وأما كُمَيلُ بنُ زيادٍ فإنه جَسَر وثاورَه، وَكَانَ جالساً يرصدُه، حَتَّى أتى عَلَيْهِ عُثْمَانُ، فوجأ عُثْمَانُ وجهَه[1]، فوقع عَلَى استِه، وَقَالَ: أوجعْتَني يا أميرَ المؤمنين! قال: أولستَ بفاتِك! قَالَ: لا وَاللَّهِ الَّذِي لا إله إلا هُوَ، فحَلَفَ.

وَقَدِ اجتمع عَلَيْهِ الناسُ فَقَالُوا: نفتِّشُه يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَقَالَ: لا، قَدْ رزقَ اللَّهُ العافيةَ، وَلا أشتهي أن أطَّلع مِنْهُ عَلَى غيرِ مَا قَالَ، وَقَالَ: إِنْ كَانَ كما قلتَ يَا كُميل فاقتدْ مني[2] — وجثا – فواللهِ مَا حسبتُك إلا تُريدني، وَقَالَ: إِنْ كنتَ صادقاً فأجزلَ اللَّهُ، وإِنْ كنتَ كاذباً فأذلَّ اللَّهُ، وقعدَ لَهُ عَلَى قدميه وَقَالَ: دونَك! قال: قد تركتُ. فبقيا حَتَّى أكثر الناسُ فِي نجائهما.

فلما قدِم الحَجَّاج قَالَ: من كَانَ مِن بعْثِ المهلَّب فليوافِ مكتبَه، وَلا يجعلْ عَلَى نفسِه سبيلاً، فقام إِلَيْهِ عُمير، وَقَالَ: إني شيخٌ ضعيفٌ، ولي ابنانِ قويانِ، فأخرِجْ أحدَهما مكاني أو كليهما، فَقَالَ: من أنتَ؟ قَالَ: أنا عميرُ بنُ ضابئ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لقد عصيتَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ منذ أربعين سنةً، ووالله لأنكلنَّ بكَ

---

[1] لأنه اقترب منه يريد قتله، كما سيظهر من خبره مع الحَجاج فيما سيأتي.

[2] اقتد مني: اقتص مني الضربة التي ضربتك إياها.

الْمُسْلِمِينَ، غضبْتَ لسارِقِ الكلبِ ظالماً، إن أباك إذ غل لَهُمْ، وإنَّك هممْتَ ونكلْتَ، وإني أهمُّ ثُمَّ لا أنْكلُ؛ فضُرِبَتْ عنقُه.

قالَ سَيْفٌ: حَدَّثَنَا رجلٌ من بني أسد، قَالَ: كَانَ من حديثِه أنه كَانَ قَدْ غزا عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيمن غزاه، فلما قدِم الحَجَّاجُ ونادى بِمَا نادى بِهِ، عَرضَ رجلٌ عَلَيْهِ مَا عوَّضَ نفسَه، فقَبِلَ منه، فلمَّا ولَّى قَالَ أسماءُ بنُ خارِجة[1]: لقد كَانُ شأنُ عميرٍ مما يهمُّني، قَالَ: ومَن عميرٌ؟ قَالَ: هَذَا الشيخُ، قَالَ: ذكَّرْتني الطعنَ وكنتُ ناسياً، أليس فيمن خرج إِلَى عُثْمَانَ؟ قَالَ: بلى، قَالَ: فهل بالكوفة أحدٌ غيرُه؟ قَالَ: نعم، كُمَيل، قَالَ: عليَّ بعُمير، فضَرَبَ عنقَه. ودَعا بكُمَيل فهَرَب، فأخَذَ النَّخْعَ[2] بِهِ، فَقَالَ لَهُ الأسودُ بنُ الهيثم: مَا تريدُ من شيخٍ قَدْ كفاكَه الكِبَرُ! فَقَالَ: أمَا وَاللَّهِ لتحبِسَنَّ عني لسانَك أو لأحسن رأسَكَ بالسيف، قَالَ: افعلْ. فلما رَأَى كُمَيلٌ مَا لَقِي قومُه من الخوفِ وهم ألفا مقاتِل، قَالَ: الموتُ خيرٌ من الخوفِ إذا أُخيف ألفان مِن سَببي وحُرِموا. فخَرَجَ حَتَّى أتى الحجاجَ، فَقَالَ لَهُ الحجاجُ: أنتَ الَّذِي أردتَ ثُمَّ لم يكشفْك أميرُ المؤمنين، ولم ترضَ حتى أقعدتَه للقَصاص إذ دفَعَكَ عن نفسِه؟ فَقَالَ:

---

[1] أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري: كان من أشراف العرب وسادتهم، عرف عنه الجود والسخاء وله قصص كثيرة في الكرم، وكانت بنته هند زوجاً للحجاج بن يوسف، وابنه مالك بن أسماء من ولاة الحجاج وعماله.

[2] النخع: قبيلة كميل. وأخَذَ النَّخْعَ بِهِ يعني ضيق عليهم لكي يظهر كميل.

عَلَى أيِّ ذَلِكَ تقتلُني! تقتلُني عَلَى عفوِه أو عَلَى عافيتي؟ قَالَ: يَا أدهمَ بنَ المحرِّز[1]، اقتلْه، قَالَ: والأجرُ بيني وبينَك؟ قَالَ: نعمْ، قَالَ أدهمُ: بل الأجرُ لكَ، وما كَانَ من إثمٍ فعَلَيَّ.

وَقَالَ مالكُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ[2] – وَكَانَ من المسيَّرين:

مضتْ لابنِ أرْوى في كُمَيلٍ ظلامةٌ عفاها له والمستقيدُ يلامُ
وقال له لا أقبحَ اليومَ مثلةً عليكَ أبا عمرو وأنتَ إمامُ
ووجأك رأسي والذي نَسَكَتْ له قريشٌ بأعلى المكَّتينِ حرامُ
وللعفو أمنٌ تعرفُ الناسُ فضلَهُ وليس علينا في القصاصِ أثامُ
ولو علم الفاروقُ ما أنتَ صانعٌ نهى عنكَ نهياً ليس فيه كلامُ

[1] أدهم بن محرز بن أسيد الباهلي: من أمراء الجند، من أهل حمص. كان فارس أهل الشام ورجلهم في أيامه. شهد صفين مع معاوية، وكان من قواد الحجاج بن يوسف.

[2] وكان سبئياً.

دفن عثمان رضي الله عنه:

ولَمَّا قُتِلَ أرسلَتْ نائلةُ[1] إِلَى عبد الرَّحْمَن بنِ عديس[2]، فَقَالَتْ لَهُ: إنك أَمَسُّ القومِ رَحِماً، وأوْلاهم بأنْ تقومَ بأمري، أغرِبْ عني هَؤُلاءِ الأموات[3]، فشَتَمَها وزَجَرَها.

حَتَّى إذا كَانَ فِي جوفِ الليل خرج مَرْوَانُ حَتَّى أتى دارَ عُثْمَان، فأتاه زَيْدُ بنُ ثَابِت وَطَلْحَةُ بنُ عُبَيْد اللَّهِ وعليٌّ والحَسَنُ، وكعبُ بنُ مَالِكٍ، وعامةُ مَنْ ثَمَّ من أصحابِه، فتوافى إِلَى موضِع الجنائز صبيانٌ ونساءٌ، فأخرَجوا عُثْمَانَ فصلَّى عَلَيْهِ مَرْوَانُ، ثُمَّ خَرَجوا بِهِ حَتَّى انتهَوا إِلَى البَقيع، فدفنوه فِيهِ مما يلي حَشَّ كوكب[4]، حَتَّى إذا أصبحوا أتوا أعبُدَ عُثْمَانَ الَّذِينَ قُتلوا مَعَهُ فأخرجوهمْ،

---

[1] نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان.

[2] عبد الرحمن بن عديس البلوي: صحابي شهد فتح مصر واختط بها وكان أمير الجيش القادمين من مصر لحصار عثمان بن عفان رضي الله عنه لما قتلوه، وكان رأساً فيهم، وكان ممن أخذه معاوية فسجنهم بفلسطين وهربوا من السجن فاتبعوا حتى أدركوا فقتلوا سنة ست وثلاثين هـ.

[3] الأموات الذين ماتوا مع عثمان في الدار ولم يدفنوا حتى خرجت رائحة بعضهم.

[4] حشّ كوكب: مكان في المدينة المنورة كان شرقي البقيع دفن فيه عثمان بن عفان بعد مقتله. وكوكب: رجل من الأنصار. والحش: البستان. وكان عثمان رضي الله عنه قد اشتراه وزاده في البقيع، فكان أول من دفن فيه.

فرأَوْهم فمَنَعُوهم من أن يُدفنوا[1]، فأدخلوهم حَشَّ كوكب، فلما أمسَوا خرجوا بعبْدَيْن مِنْهُمْ فدفنوهما إِلَى جنبِ عُثْمَان، ومع كل واحدٍ منهما خمسةُ نفر وامرأةٌ[2] فاطمةُ أمُّ إِبْرَاهِيمَ بنِ عدي، ثُمَّ رجعوا فأتَوا كنانةَ بنَ بشْر، فَقَالُوا: إنك أَمَسُّ القومِ بنا رحِماً، فاؤمُرْ بهاتين الجِيفتينِ اللتينِ فِي الدار أن تُخرَجا، فكلَّمهم فِي ذَلِكَ، فأَبَوا، فَقَالَ: أنا جارٌ لآلِ عُثْمَانَ من أهلِ مصرَ ومَنْ لفَّ لفَّهم[3]، فأخرِجوهما فارْمُوا بهما، فجُرَّا بأرجلِهما، فرُمِيَ بهما على البلاط، فأكلتْهما الكلاب، وَكَانَ العَبدان اللذانِ قُتِلا يوم الدار يُقال لهما نَجيح وصَبيح، فكان اسماهما الغالبَ عَلَى الرقيقِ؛ لفضلِهما وبلائهما[4]، ولم يحفظِ الناسُ اسمَ الثالث، ولم يُغسلْ عُثْمَانُ[5]، وكفِّن فِي ثيابِه ودمائه، وَلا غسِّل غلاماه.

ودِفن عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الليل، وصلَّى عَلَيْهِ مَرْوَانُ بنُ الحَكَم، وخرجتِ ابنتُه[6] تبكي فِي أثره، ونائلةُ ابنة الْفُرَافِصَة، رحِمهم اللَّه.

---

[1] يعني قتلة عثمان منعوا دفن العبيد.

[2] يعني المشيعون الذين دفنوهم.

[3] يعني أعلن أنه يحمي آل عثمان. وفلان حَمَى جَارَهُ: نَصَرَهُ، ودَافَعَ عَنْهُ.

[4] يعني أن معظم العبيد بعد ذلك كانوا يسمون بهذين الاسمين؛ تخليداً لهما.

[5] لأنه شهيد والشهيد لا يغسل.

[6] تدعى أم البنين بنت عُثْمَان، من نائلة، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ عَبْد اللَّهِ بن يَزِيدَ بن أَبِي سُفْيَانَ.

وقُتِل عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومَ الجُمُعة لثماني عشرةَ ليلةً خلتْ من ذي الحِجة سنةَ ستٍّ وثلاثين بعد العَصر، وكانت خلافتُه اثنتي عشرةَ سنةً غيرَ اثني عشرَ يَوْمًا، وَهُوَ ابنُ اثنتينِ وثمانينَ سنةً.

ولاة الأمصار عند وفاة عثمان

مات عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى الشام مُعَاوِيَةُ، وعاملُ مُعَاوِيَةَ عَلَى حِمْص عبدُ الرَّحْمَن بنُ خَالِد بن الْوَلِيد، وعلى قِنَّسْرين حبيبُ بنُ مَسْلَمة، وعلى الأردن أَبُو الأعور بنُ سُفْيَان، وعلى فلسطين عَلْقَمَةُ بنُ حكيم الكناني، وعلى البحْر[1] عَبْدُ اللَّهِ بنُ قيس الفزاري، وعلى القَضاء أَبُو الدرداء.

وفي رواية سيف عن عطية: مات عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى الْكُوفَةِ، عَلَى صلاتِها أَبُو مُوسَى[2]، وعلى خَراج السواد جابرُ بنُ عمرو المزني- وَهُوَ صاحبُ المسناة إِلَى جانب الْكُوفَة - وسماكُ الأَنْصَارِيُّ. وعلى حربِها القعقاعُ بنُ عَمْرو، وعلى قرقيسياء جريرُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ، وعلى أذربيجان الأشعثُ بنُ قيس، وعلى حلوان عتيبةُ بنُ النهاس، وعلى ماه مالكُ بنُ حبيب، وعلى همذان النسيرُ، وعلى الري سَعِيدُ بنُ قيس، وعلى أصبهان السَّائِبُ بنُ الأقرع، وعلى

---

[1] يعني أمير البحر والسفن البحرية.

[2] أبو موسى الأشعري الصحابي الجليل رضي الله عنه.

ماسبذان حبيشٌ، وعلى بيت المال عقبةُ بنُ عَمْرو. وَكَانَ عَلَى قضاء عُثْمَانَ يَوْمَئِذٍ زَيْد بن ثَابِت.

بعض خطب عثمان

خَطَبَ عُثْمَانُ النَّاسَ بَعْدَ مَا بُويِعَ، فَقَالَ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ حُمِّلْتُ وَقَدْ قَبِلْتُ، أَلا وَإِنِّي مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، أَلا وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وسنَّةِ نبيِّه صلى الله عليه وسلم ثَلاثًا: اتِّبَاعُ مَنْ كَانَ قَبْلِي فِيمَا اجْتَمَعْتُمْ عَلَيْهِ وَسَنَنْتُمْ، وَسَنُّ سُنَّةَ أَهْلِ الْخَيْرِ فِيمَا لَمْ تَسِنُّوا عَنْ مَلإٍ، وَالْكَفُّ عَنْكُمْ إلا فِيمَا اسْتَوْجَبْتُمْ[1]. أَلا وَإِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ قَدْ شُهِّيَتْ إِلَى النَّاسِ، وَمَالَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، فَلا تَرْكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا وَلا تَثِقُوا بِهَا، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِثَقَةٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا غَيْرُ تَارِكَةٍ إلا مَنْ تَرَكَهَا.

وآخِرُ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي جَمَاعَةٍ:

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا أَعْطَاكُمُ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الآخِرَةَ، وَلَمْ يُعْطِكُمُوهَا لِتَرْكَنُوا إِلَيْهَا، إِنَّ الدُّنْيَا تَفْنى والآخرة تَبْقى، فلا تبطرَنَّكم الفانيةُ، ولا تَشْغَلَنَّكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى، فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ، وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللَّهِ، اتَّقُوا اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ، فَإِنَّ تَقْوَاهُ جُنَّةٌ مِنْ بَأْسِهِ، وَوَسِيلَةٌ عِنْدَهُ، وَاحْذَرُوا

[1] استوجبتم عليه القصاص.

مِنَ اللَّهِ الْغِيَرَ، وَالْزَمُوا جَمَاعَتَكُمْ لا تَصِيرُوا أَحْزَابًا، «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً».

الدولة بلا خليفة

بَقِيَتِ الْمَدِينَةُ بعد قتلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خمسةَ أيام، وأميرُها الْغَافِقِيُّ بنُ حرب، يلتمسون مَنْ يُجيبُهم إِلَى القيام بالأمرِ فلا يجدونه، يأتي الْمِصْرِيُّونَ عَلِيًّا فيختبئُ مِنْهُمْ ويلوذُ بحيطانِ الْمَدِينَةِ[1]، فإذا لَقُوه باعدَهم وتبرَّأَ مِنْهُمْ ومن مقالتِهم مرةً بعد مرة، ويطلب الْكُوفِيُّونَ الزُّبَيْرَ فلا يجدونَه، فأرسلوا إليه حيثُ هو رُسلاً، فباعدَهم وتبرَّأَ من مقالتِهم، ويطلبُ الْبَصْرِيُّونَ طَلْحَةَ فإذا لَقِيَهم باعدَهم وتبرَّأَ من مقالتِهم مرةً بعد مرة.

وكانوا مجتمعينَ عَلَى قتلِ عُثْمَانَ مختلفين فيمن يَهْوون، فلمَّا لم يجدوا مماليئاً وَلا مجيباً جَمَعَهم الشرُّ عَلَى أوَّل مَنْ أجابَهم، وَقَالُوا: لا نُوَلِّي أحداً من هَؤُلاءِ الثلاثة، فبعثوا إِلَى سعدِ بنِ أَبِي وَقَّاص وَقَالُوا: إنَّك مِنْ أهلِ الشورى[2] فرأْيُنا فيك مجتمِع، فاقدُمْ نبايعْك، فبعث إِلَيْهِم: إني وابنُ عمرَ خرجنا منها فلا حاجةَ لي فِيهَا عَلَى حال، وتمثل:

---

[1] بساتينها.

[2] أهل الشورى الستة من الصحابة الذين عينهم عمر بن الخطاب لاختيار الخليفة بعده.

لا تخلِطنَّ خبيثاتٍ بطيبةٍ ... واخلعْ ثيابكَ منها وانجُ عُريانا[1]

ثُمَّ إِنَّهُمْ أتوا ابنَ عمرَ عَبْدَ اللَّهِ، فَقَالُوا: أنتَ ابنُ عمرَ فقمْ بهذا الأمر، فَقَالَ: إنَّ لهذا الأمرِ انتقاماً، وَاللَّهِ لا أتعرَّض لَهُ، فالتمِسوا غيري. فبَقُوا حَيارى لا يَدْرون مَا يصنعون والأمرُ أمرُهم.

وكَانُوا إِذَا لَقُوْا طَلْحَةَ أَبَى وَقَالَ:

وَمِنْ عَجَبِ الأَيَّامِ وَالدَّهْرِ أَنَّنِي ... بَقِيتُ وَحِيدًا لا أُمِرُّ وَلا أُحْلِي

فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ لَتُوعِدُنَا، فَيَقُومُونَ فَيَتْرُكُونَهُ، فَإِذَا لَقُوا الزُّبَيْرَ وَأَرَادُوهُ أَبَى وَقَالَ:

مَتَى أَنْتَ عَنْ دَارٍ بِفَيْحَانَ رَاحِلٌ ... وَبَاحَتُهَا تَحْنُو عَلَيْكَ الْكَتَائِبُ

فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ لَتُوعِدُنَا.

فَإِذَا لَقُوْا عَلِيًّا وَأَرَادُوهُ أَبَى، وَقَالَ:

ولو أنَّ قومي طاوعتْني سراتُهُمْ ... أمرتهمُ أمراً يَدِيخُ الأَعَادِيَا

فَيَقُولُونَ: إِنَّكَ لَتُوعِدُنَا! فَيَقُومُونَ وَيَتْرُكُونَهُ.

ولما كَانَ يومُ الخميس عَلَى رأسِ خمسةِ أيامٍ مِن مقتلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جمعوا أهلَ الْمَدِينَةِ فوجدوا سعداً وَالزُّبَيْرَ خارجَيْنِ، ووجدوا طَلْحَةَ فِي حائطٍ

---

[1] البيت من قصيدة لأمية بن أبي الصلت يقول في مطلعها:

الحَمدُ للَّهِ مَمسانا وَمَصبَحَنا ... بِالخَيرِ صَبَّحنا رَبّي وَمَسَّانا

لَهُ، ووجدوا بني أُمَيَّة قَدْ هَرَبوا إلا مَن لم يطِقِ الهرَب، وهَرَبَ الْوَلِيدُ وسعيدٌ إِلَى مكةَ فِي أولِ مَنْ خَرَجَ، وتبعهم مَرْوَانُ، وتتابع عَلَى ذَلِكَ مَنْ تتابع، فلمَّا اجتمع لَهُمْ أهلُ الْمَدِينَةِ قَالَ لَهُمْ أهلُ مِصْرَ: أنتم أهلُ الشُّورى، وَأَنْتُمْ تعقِدون الإمامةَ، وأمرُكم عابرٌ عَلَى الأمَّة، فانْظروا رجلاً تنصبونَه، ونحن لكم تبعٌ، فَقَالَ الجمهور: عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ نحن بِهِ راضون.

المبايعة لعليٍّ

فَقَالُوا لَهُمْ: دُونَكُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَقَدْ أَجَّلْنَاكُمْ يوميْنِ، فوالله لَئِنْ لَمْ تَفْرُغُوا لَنَقْتُلَنَّ غَدًا عَلِيًّا وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَأُنَاسًا كَثِيرًا، فَغَشَى النَّاسُ عَلِيًّا فَقَالُوا: نُبَايِعُكَ؛ فَقَدْ تَرَى مَا نَزَلَ بِالإِسْلامِ، وَمَا ابْتُلِينَا بِهِ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى، فَقَالَ عَلِيٌّ: دَعُونِي وَالْتَمِسُوا غَيْرِي فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وُجُوهٌ وَلَهُ أَلْوَانٌ، لا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، ولا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، فَقَالُوا: نَنْشُدُكَ اللَّهَ أَلا تَرَى مَا نَرَى! أَلا تَرَى الإِسْلامَ! أَلا تَرَى الْفِتْنَةَ! أَلا تَخَافُ اللَّهَ! فَقَالَ: قَدْ أَجَبْتُكُمْ لِمَا أَرَى، وَاعْلَمُوا إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَإِنَّمَا أَنَا كَأَحَدِكُمْ، إِلَّا أَنِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطْوَعُكُمْ لِمَنْ وَلَّيْتُمُوهُ أَمْرَكُمْ. ثُمَّ افْتَرَقُوا عَلَى ذَلِكَ وَاتَّعَدُوا الْغَدَ.

وَتَشَاوَرَ النَّاسُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَقَالُوا: إِنْ دَخَلَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَقَدِ اسْتَقَامَتْ، فَبَعَثَ الْبَصْرِيُّونَ إِلَى الزُّبيرِ بَصْرياً، وقالوا: احذرْ لا تحادِّه- وَكَانَ رَسُولَهُمْ

حُكَيمُ بْنُ جَبَلَةَ الْعَبْدِيُّ فِي نَفَرٍ- فَجَاءُوا بِهِ يَجُدُّونَهُ بِالسَّيْفِ، وَإِلَى طَلْحَةَ كوفياً وقالوا له: احذرْ لا تحادِّه، فَبَعَثُوا الأَشْتَرَ فِي نَفَرٍ فَجَاءُوا بِهِ يَجُدُّونَهُ بِالسَّيْفِ، وَأَهْلُ الْكُوفَةِ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ شَامِتُونَ بِصَاحِبِهِمْ، وَأَهْلُ مِصْرَ فَرِحُونَ بِمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَقَدْ خَشَعَ أَهْلُ الْكُوفَةِ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ أَنْ صَارُوا أَتْبَاعًا لأَهْلِ مِصْرَ وَحُشْوَةً[1] فِيهِمْ، وَازْدَادُوا بِذَلِكَ عَلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ غَيْظًا، فَلَمَّا أصبحُوا من يَوْمِ الْجُمُعَةِ حَضَرَ النَّاسُ الْمَسْجِدَ، وَجَاءَ عَلِيٌّ حتى صعِدَ المنبرَ، فقال: يا أيُّها النَّاسُ- عَنْ مَلإٍ وَإِذْنٍ - إِنَّ هَذَا أَمْرُكُمْ لَيْسَ لأَحَدٍ فِيهِ حَقٌّ إِلا مَنْ أَمَّرْتُمْ، وَقَدِ افْتَرَقْنَا بِالأَمْسِ عَلَى أَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ قَعَدْتُ لَكُمْ، وَإِلَّا فَلا أَجِدُ عَلَى أَحَدٍ. فَقَالُوا: نَحْنُ عَلَى مَا فَارَقْنَاكَ عَلَيْهِ بِالأَمْسِ.

وَجَاءَ الْقَوْمُ بِطَلْحَةَ فَقَالُوا: بَايِعْ، فَقَالَ: إِنِّي إِنَّمَا أُبَايِعُ كَرْهًا، فَبَايَعَ - وَكَانَ بِهِ شَلَلٌ[2] - أَوَّلَ النَّاسِ، وَفِي النَّاسِ رَجُلٌ يَعْتَافُ[3]، فَنَظَرَ مِنْ بَعِيدٍ، فَلَمَّا رَأَى طَلْحَةَ أَوَّلَ مَنْ بايعَ قال: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ! أَوَّلُ يَدٍ بَايَعَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَدٌ شَلَّاءُ، لا يَتِمُّ هَذَا الأَمْرُ! ثُمَّ جِيءَ بِالزُّبَيْرِ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ وَبَايَعَ - وَفِي الزُّبَيْرِ اخْتِلافٌ - ثُمَّ جِيءَ بِقَوْمٍ كَانُوا قَدْ تَخَلَّفُوا فَقَالُوا: نُبَايِعُ عَلَى

---

[1] الحُشوةُ من النّاس: رُذَالتهم.

[2] في يده بسبب ضربة وقى بها رسولَ الله.

[3] يعتاف: يتكهن.

إِقَامَةِ كِتَابِ اللَّهِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَالْعَزِيزِ وَالذَّلِيلِ، فَبَايَعَهُمْ، ثُمَّ قَامَ الْعَامَّةُ فَبَايَعُوا.

مبايعة طلحة والزبير

لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى عَلِيٍّ، ذَهَبَ الأَشْتَرُ فَجَاءَ بِطَلْحَةَ، فَقَالَ لَهُ: دَعْنِي أَنْظُرْ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ، فَلَمْ يَدَعْهُ، وَجَاءَ بِهِ يتلُّه تَلاً عَنِيفًا[1]، وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَبَايَعَ.

وجَاءَ حُكَيمُ بْنُ جَبَلَةَ بِالزُّبَيْرِ حَتَّى بَايَعَ، فَكَانَ الزُّبَيْرُ يَقُولُ: جَاءَنِي لِصٌّ مِنْ لُصُوصِ عَبْدِ الْقَيْسِ فَبَايَعْتُ وَاللُّجُّ[2] عَلَى عُنُقِي.

أول خطبة لعلي رضي الله عنه

وبويع عليٌّ يومَ الجمعةَ لخمسٍ بَقِين من ذي الحجة – والناسُ يحسِبون من يوم قتلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكانت أولَ خطبةٍ خَطَبها بعد أنْ حَمِد اللهَ وأثنى عليه أنْ قال:

إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أنزل كتاباً هادياً بيَّن فِيهِ الخيرَ والشرَ، فخُذُوا بالخيرِ ودَعُوا الشرَّ. والفرائضَ أدُّوها إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ يؤدِّكم إِلَى الجَنَّة. إنَّ اللَّهَ حرَّم حَرَماً

---

[1] يتله تلاً عنيفاً: يدفعه دفعاً شديداً.

[2] اللج: السيف.

غيرَ مجهولة، وفضَّل حُرمةَ المسلمِ عَلَى الحُرَم كلِّها، وشدَّ بالإخلاصِ والتوحيدِ المسلمين، والمسلمُ مَنْ سَلِم الناسُ من لسانِه ويدِه إلا بالحق، لا يَحِلُّ أذى المسلم إلا بِمَا يجب. بادِروا أمرَ العامَّة، وخاصة أحدكم الموت، فإن الناسَ أمامَكم، وإنَّ ما خلفَكم الساعةُ تحدُوكم، تخفَّفوا تَلْحَقوا، فإنما ينتظرُ الناسُ أُخراهم. اتَّقوا اللَّهَ فِي عبادِه وبلادِه، إنكم مسئولون حَتَّى عن البقاع والبهائم، أطيعوا اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَلا تَعْصُوه، وإذا رأيتم الخيرَ فخذوا بِهِ، وإذا رأيتم الشرَّ فدعوه، «وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ».

ولما فرغ عليٌّ من خطبتِه وهو على المنبرِ قال المصريون:

خُذْها إليكَ واحذَرا أبا حسنْ ... إنا نُمِرُّ الأمرَ[1] إمرارَ الرَّسَنْ

فقال عليٌّ مجيباً:

إني عجزتُ عجزةً ما أعتذرْ ... سوف أكيسُ بعدَها وأستمرّْ

وفي رواية أخرى: ولما أراد عليٌّ الذهابَ إلى بيتِه قالت السبئيةُ:

خذْها إليكَ واحْذَرا أبا حَسَنْ إنا نُمِرُّ الأمرَ إمرارَ الرَّسَنْ
صولة أقوامٍ كأسدادِ السفنْ بمشرفياتٍ كغدرانِ اللبنْ
ونطعنُ الْمَلكَ بلينٍ كالشطنْ حتى يمرَّنَّ على غيرِ عننْ

---

[1] نُحكِم الأمور.

فقال عليٌّ وذَكَرَ تركَهم العسكرَ والكينونة على عدة ما منوا حين غمزوهم ورجعوا إليهم فلم يستطيعوا أن يمتنعوا حتى:

إني عجزتُ عجزةً لا أعتذرْ سوف أكيسُ بعدَها وأستمرْ
أرفعُ من ذيلي ما كنت أجُرّْ وأجمعُ الأمرَ الشتيتَ المنتشرْ
إنْ لم يشاغبْني العجولُ المنتصرْ أو يتركوني والسلاحُ يُبْتَدرْ

مطالب طلحة والزبير

واجتمع إِلَى عليٍّ بعد مَا دخل طَلْحَةُ وَالزُّبَيْر فِي عدَّة من الصحابة، فَقَالُوا: يَا عليُّ، إنا قَدِ اشترطْنا إقامةَ الحُدود، وإنَّ هَؤُلاءِ القومَ قَدِ اشتركوا فِي دمِ هَذَا الرجل، وأحلُّوا بأنفسهم، فَقَالَ لَهُمْ: يَا إخوتاه، إني لستُ أجهلُ مَا تعلمون، ولكن كيف أصنعُ بقومٍ يملِكُوننا وَلا نملِكُهم[1]! ها هم هَؤُلاءِ قَدْ ثارت معهم عُبْدانكم، وثابت إِلَيْهِم أعرابُكم، وهم خلالَكم يسومونَكم مَا شاءوا، فهل ترون موضعاً لقُدرةٍ عَلَى شَيْء مما تريدون؟ قَالُوا: لا، قَالَ: فلا وَاللَّهِ لا أَرَى إلا رأياً ترونَه إِنْ شَاءَ اللَّهُ، إنَّ هَذَا الأمرَ أمرُ جاهلية، وإنَّ لهؤلاء القومِ مادة، وَذَلِكَ أن الشَّيْطَانَ لم يشرعْ شريعةً قطُّ فيبرح الأرضَ مَنْ أخذ بِهَا أبداً.

[1] المنشقون، إذ كانوا وقتها المسيطرين ولهم الغلبة.

إنَّ الناسَ من هَذَا الأمرِ إنْ حرِّك عَلَى أمور: فرقةٌ تَرى مَا تَرون، وفرقةٌ تَرى مَا لا تَرون، وفرقةٌ لا تَرى هَذَا وَلا هَذَا، حَتَّى يهدأَ الناسُ وتقع القلوبُ مواقعَها وتؤخَذ الحقوقُ، فاهدءوا عني وانظُرُوا ماذا يأتيكم، ثُمَّ عودُوا[1].

واشتدَّ عَلَى قريشٍ، وحال بينهم وبين الخروجِ على حال، وإنما هيَّجه عَلَى ذَلِكَ هربُ بني أُمَيَّة وتفرُّق القوم، وبعضُهم يقول: وَاللَّهِ لَئِنِ ازدادَ الأمرُ لا قدرْنا عَلَى انتصارٍ من هَؤُلاءِ الأشرار، لتركُ هَذَا إِلَى مَا قَالَ عليٌّ أمثَلُ.

وبعضُهم يقول: نقضي الَّذِي علينا وَلا نؤخِّرُه، ووالله إنَّ عَلِيًّا لمستغنٍ برأيه وأمرِه عنا، وَلا نراه إلا سيكون عَلَى قريشٍ أشدَّ مِن غيره. فذُكِر ذَلِكَ لعليٍّ فقام فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وذَكَرَ فضلَهم وحاجتَه إِلَيْهِم ونظرَه لَهُمْ وقيامَه دونَهم، وأنه ليس لَهُ من سلطانِهم إلا ذَلِكَ، والأجرُ من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، ونادى: برئَتِ الذمَّةُ من عبدٍ لم يرجعْ إِلَى مواليه. فتذامرتْ السبئيةُ والأعرابُ، وَقَالُوا: لنا غداً مثلُها، وَلا نستطيع نحتجُّ فِيهِمْ بشيء.

وخَرَجَ عَلِيٌّ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ عَلَى النَّاسِ، فقال: يا أيَّها النَّاسُ، أَخْرِجُوا عَنْكُمُ الأَعْرَابَ[2]. وَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الأعراب، الْحَقوا بمياهكم. فأبتِ السبئيةُ وَأَطَاعَهُمُ الأَعْرَابُ. وَدَخَلَ عَلِيٌّ بَيْتَهُ وَدَخَلَ عَلَيْهِ طلحةُ والزبيرُ وعدَّةٌ من أصحابِ النبي

---

[1] رحم الله أمير المؤمنين ورضي عنه، قد تحمل ما لا تحمله الجبال الرواسي.

[2] المنشقون قتلة عثمان.

صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: دُونَكُمْ ثَأْرَكُمْ فَاقْتُلُوهُ، فَقَالُوا: عَشَوْا عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: هُمْ وَاللَّهِ بَعْدَ الْيَوْمِ أَعْشَى وَآبَى. وَقَالَ:

ولَوْ أَنَّ قَوْمِي طَاوَعَتْنِي سَرَاتُهُمْ ... أَمَرْتُهُمُ أَمْرًا يَدِيخُ الأَعَادِيَا

وَقَالَ طَلْحَةُ: دَعْنِي فلآتِ البصرةَ فلا يفجؤك إلا وَأَنَا فِي خَيْلٍ، فَقَالَ: حَتَّى أَنْظُرَ فِي ذَلِكَ.

وَقَالَ الزُّبَيْرُ: دَعْنِي آتِ الْكُوفَةَ فلا يفجؤك إلا وَأَنَا فِي خَيْلٍ، فَقَالَ: حَتَّى أَنْظُرَ فِي ذَلِكَ.

وَسَمِعَ الْمُغِيرَةُ بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ لَكَ حَقُّ الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَإِنَّ الرَّأْيَ الْيَوْمَ تُحْرِزُ بِهِ مَا فِي غَدٍ، وَإِنَّ الضَّيَاعَ الْيَوْمَ تُضَيِّعُ بِهِ مَا فِي غَدٍ، أَقْرِرْ مُعَاوِيَةَ عَلَى عَمَلِهِ، وَأَقْرِرِ ابْنَ عَامِرٍ عَلَى عَمَلِهِ، وَأَقْرِرِ الْعُمَّالَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، حَتَّى إِذَا أَتَتْكَ طَاعَتُهُمْ وَبَيْعَةُ الْجُنُودِ اسْتَبْدَلْتَ أَوْ تَرَكْتَ قَالَ: حَتَّى أَنْظُرَ.

فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ وَعَادَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَدِ، فَقَالَ: إِنِّي أَشَرْتُ عَلَيْكَ بِالأَمْسِ بِرَأْيٍ، وَإِنَّ الرَّأْيَ أَنْ تُعَاجِلَهُمْ بِالنُّزُوعِ[1]، فَيُعْرَفَ السَّامِعُ مِنْ غَيْرِهِ[2] وَيُسْتَقْبَلَ أَمْرُكَ.

ثُمَّ خَرَجَ وَتَلَقَّاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ خَارِجًا وَهُوَ دَاخِلٌ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى عَلِيٍّ قَالَ:

---

[1] النزوع: الغلبة.

[2] يعني يُعرف الطائع مِن العاصي.

رَأَيْتُ الْمُغِيرَةَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِكَ، فَفِيمَ جَاءَكَ؟ قَالَ: جَاءَنِي أَمْسِ بِذَيْتَ وذَيْتَ، وَجَاءَنِي الْيَوْمَ بِذَيْتَ وذَيْتَ[1]، فَقَالَ: أَمَّا أَمْسِ فَقَدْ نَصَحَكَ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ غَشَّكَ[2]. قَالَ: فَمَا الرَّأْيُ؟ قَالَ: كَانَ الرَّأْيُ أَنْ تَخْرُجَ حِينَ قُتِلَ الرَّجُلُ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَتَأْتِيَ مَكَّةَ فَتَدْخُلَ دَارَكَ وَتُغْلِقَ عَلَيْكَ بَابَكَ، فَإِنْ كَانَتِ الْعَرَبُ جَائِلَةً مُضْطَرِبَةً فِي أَثَرِكَ لا تَجِدُ غَيْرَكَ، فَأَمَّا الْيَوْمُ فَإِنَّ فِي بَنِي أُمَيَّةَ مَنْ يَسْتَحْسِنُونَ الطَّلَبَ بِأَنْ يُلْزِمُوكَ شُعْبَةً مِنْ هَذَا الأَمْرِ[3]، وَيُشَبِّهُونَ عَلَى النَّاسِ، وَيَطْلُبُونَ مِثْلَ مَا طَلَبَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَلا تَقْدِرُ عَلَى مَا يُرِيدُونَ وَلا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَلَوْ صَارَتِ الأُمُورُ إِلَيْهِمْ، حَتَّى يَصِيرُوا فِي ذَلِكَ أَمْوَتَ لِحُقُوقِهِمْ، وَأَتْرَكَ لَهَا إِلا مَا يُعَجِّلُونَ مِنَ الشُّبْهَةِ.

وَقَالَ الْمُغِيرَةُ: نَصَحْتُهُ وَاللَّهِ، فَلَمَّا لَمْ يَقْبَلْ غَشَشْتُهُ. وَخَرَجَ الْمُغِيرَةُ حَتَّى لَحِقَ بِمَكَّةَ.

---

[1] ذَيْتَ: يقولون كان من الأَمْر ذَيْتَ وذَيْتَ: معنا كَيْتَ وكَيْتَ. وهي من ألفاظ الكنايات.

[2] قال الطبري: ومِمَّا كَانَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقُلْتُ لِعَلِيٍّ: أَمَّا الْمَرَّةُ الأُولَى فَقَدْ نَصَحَكَ، وَأَمَّا الْمَرَّةُ الآخِرَةُ فَقَدْ غَشَّكَ، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ: وَلِمَ نَصَحَنِي؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابَهُ أَهْلَ دُنْيَا، فَمَتَى تُشْتِهُمْ لا يُبَالُوا بِمَنْ وُلِّيَ هَذَا الأَمْرَ، وَمَتَى تَعْزِلْهُمْ يَقُولُوا: أَخَذَ هَذَا الأَمْرَ بِغَيْرِ شُورَى، وَهُوَ قَتَلَ صَاحِبَنَا، وَيُؤَلِّبُونَ عَلَيْكَ فَيُنْتَقَضُ عَلَيْكَ أَهْلَ الشَّامِ وَأَهْلَ الْعِرَاقِ.

[3] يعني إلزامه بالقصاص من قتلة عثمان.

أخبار عمَّال عليّ

ولَمَّا دخلتْ سنةُ ستٍّ وثلاثينَ بَعَثَ عَلِيٌّ عُمَّالَهُ عَلَى الأَمْصَارِ، فَبَعَثَ عُثْمَانَ بْنَ حُنَيْفٍ[1] عَلَى الْبَصْرَةِ، وَعُمَارَةَ بْنَ شِهَابٍ[2] عَلَى الْكُوفَةِ، وَكَانَتْ لَهُ هِجْرَةٌ، وَعُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ[3] عَلَى الْيَمَنِ، وَقَيْسَ بْنَ سَعْدٍ[4] عَلَى مِصْرَ، وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ[5] عَلَى الشَّامِ.

---

[1] عثمان بن حنيف: صحابي من الأنصار. شهد مع النبي المشاهد كلها بعد بدر، وولاَّه عمر بن الخطاب خراج سواد العراق، ثم ولاه علي بن أبي طالب البصرة قبل موقعة الجمل، وتوفي في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

[2] عمارة بن شهاب الثوري: قيل بأن له صحبة وهجرة، واستعمله عليّ بن أبي طالب على الكوفة.

[3] عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي: هو ابن عم النبي، وابن العباس بن عبد المطلب وأخو عبدالله بن عباس، من أصحاب علي والحسن والحسين، ثم لحق بمعاوية بن أبي سفيان.

[4] قيس بن سعد بن عبادة الساعدي الخزرجي: صحابي جليل من أكرم بيوت العرب، فأبوه هو الصحابي الجليل سعد بن عبادة سيد الخزرج. كان من أطول الناس ومن أجملهم وكان لا ينبت بوجهه شعر كان الأنصار يعاملونه كزعيم منذ صغره كانوا يقولون: لو استطعنا أن نشتري لقيس لحية بأموالنا لفعلنا. وكان قيس ملازمًا للنبي، فكانَ يَكونُ بيْنَ يَدَيه بمَنْزِلَةِ صَاحِبِ الشُّرَطِ مِنَ الأَمِيرِ.

[5] سهل بن حنيف (ت ٣٨ هـ): صحابي من الأنصار من الأوس. شهد مع النبي المشاهد كلها، وثبت معه يوم أحد. وصاحب علي بن أبي طالب بعد استخلافه، فولاه المدينة المنورة والبصرة وبلاد فارس، كما شهد معه وقعة صفين.

فَأَمَّا سَهْلٌ فَإِنَّهُ خَرَجَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِتَبُوكَ لَقِيَتْهُ خَيْلٌ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَمِيرٌ، قَالُوا: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: عَلَى الشَّامِ، قَالُوا: إِنْ كَانَ عُثْمَانُ بَعَثَكَ فَحَيَّهَلا بِكَ، وَإِنْ كَانَ بَعَثَكَ غيرُه فارجِعْ! قال: أَوَما سَمِعْتُمْ بِالَّذِي كَانَ؟ قَالُوا: بَلَى، فَرَجَعَ إِلَى عَلِيٍّ.

وَأَمَّا قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ فَإِنَّهُ لَمَّا انْتَهَى إِلَى أَيْلَةَ لَقِيَتْهُ خَيْلٌ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: مِنْ فَالَّةِ[1] عُثْمَانَ، فَأَنَا أَطْلُبُ مَنْ آوِي إِلَيْهِ وَأَنْتَصِرُ بِهِ، قَالُوا: مَنْ أنتَ؟ قال: قيسُ بنُ سَعْدٍ، قَالُوا: امْضِ، فَمَضَى حَتَّى دَخَلَ مِصْرَ، فَافْتَرَقَ أَهْلُ مِصْرَ فِرَقًا، فِرْقَةٌ دَخَلَتْ فِي الْجَمَاعَةِ وَكَانُوا مَعَهُ، وَفِرْقَةٌ وَقَفَتْ وَاعْتَزَلَتْ إِلَى خَرِبَتَا[2]، وَقَالُوا: إِنْ قُتِلَ قَتَلَةُ عُثْمَانَ فَنَحْنُ مَعَكُمْ، وَإِلا فَنَحْنُ عَلَى جَدِيلَتِنَا[3]

---

[1] الفالّة: جمع فالّ، وهم الفارّون المنهزمون. قال ذلك لعلمه بموقف المصريين من عثمان.

[2] قرية خربتا من المدن المصرية القديمة، وهي مدينة بغربي الدلتا، وبعد الفتح الإسلامي لمصر واندلا ع الفتنة بين المسلمين بعد مقتل عثمان، كانت القرية مسرحًا لأحداث جسيمة. فبعد مبايعة علي بن أبي طالب للخلافة، أرسل قيسَ بن سعد بن عبادة واليًا على مصر، فبايعه الناس. انزوى نحو ١٠،٠٠٠ رجل، منهم بسر بن أبي أرطأة ومسلمة بن مخلد الأنصاري ومعاوية بن حديج وعدد من الأكابر في خربتا، مطالبين بالقصاص من قتلة عثمان، فوادعهم قيس وتركهم. إلا أن علي أمره بقتالهم، فاعتذر لكثرتهم، لما فيهم من وجوه الناس. فعزله علي، وولّى على مصر محمد بن أبي بكر، كان هؤلاء المنزوين في خربتا النواة التي استند عليها معاوية بن أبي سفيان لضم مصر إلى دولته.

[3] الجديلة: الرأي والعزيمة.

حَتَّى نُحَرِّكَ أَوْ نُصِيبَ حَاجَتَنَا، وَفِرْقَةٌ قَالُوا: نَحْنُ مَعَ عَلِيٍّ مَا لَمْ يُقِدْ إِخْوَانَنَا[1]، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَكَتَبَ قَيْسٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ.

وَأَمَّا عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ فَسَارَ فَلَمْ يَرُدَّهُ أَحَدٌ عَنْ دُخُولِ الْبَصْرَةِ، وَلَمْ يُوجَدْ فِي ذَلِكَ لابْنِ عَامِرٍ رَأْيٌ وَلا حَزْمٌ وَلا اسْتِقْلالٌ بِحَرْبٍ، وَافْتَرَقَ النَّاسُ بِهَا، فَاتَّبَعَتْ فِرْقَةٌ الْقَوْمَ، وَدَخَلَتْ فِرْقَةٌ فِي الْجَمَاعَةِ، وَفِرْقَةٌ قَالَتْ: نَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فَنَصْنَعُ كَمَا صَنَعُوا.

وَأَمَّا عُمَارَةُ فَأَقْبَلَ حَتَّى إِذَا كَانَ بِزُبَالَةَ[2] لَقِيَهُ طُلَيْحَةُ بْنُ خُوَيْلِدٍ، وَقَدْ كَانَ حِينَ بَلَغَهُمْ خَبَرُ عُثْمَانَ خَرَجَ يَدْعُو إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِهِ وَيَقُولُ: لَهْفِي عَلَى أَمْرٍ لَمْ يَسْبِقْنِي وَلَمْ أُدْرِكْهُ! يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ[3] ... أَكُرُّ فِيهَا وَأَضَعْ

فَخَرَجَ حِينَ رَجَعَ الْقَعْقَاعُ مِنْ إِغَاثَةِ عُثْمَانَ فِيمَنْ أَجَابَهُ حَتَّى دَخَلَ الْكُوفَةَ، فَطَلَعَ عَلَيْهِ عُمَارَةُ قَادِمًا عَلَى الْكُوفَةِ، فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ فَإِنَّ الْقَوْمَ لا يُرِيدُونَ بِأَمِيرِهِمْ[4] بَدَلاً، وَإِنْ أَبَيْتَ ضَرَبْتُ عُنُقَكَ، فَرَجَعَ عُمَارَةُ وَهُوَ يَقُولُ: احْذَرِ

---

[1] يقد: يقتص منهم.

[2] زُبالة: من المنازل القديمة الواقعة على طريق الحجاز والكوفة بين منزلي الشقوق والقاع.

[3] الجذع: الشاب الفتيّ القويّ.

[4] أبي موسى الأشعري.

الْخَطَرَ مَا يُمَاسِكُ، الشَّرُّ خَيْرٌ مِنْ شَرٍّ مِنْهُ. فَرَجَعَ إِلَى عَلِيٍّ بِالْخَبَرِ، وَغَلَبَ عَلَى عُمَارَةَ بْنِ شِهَابٍ هَذَا الْمَثَلُ مِنْ لَدُنِ اعْتَاصَتْ[1] عَلَيْهِ الأُمُورُ إِلَى أَنْ مَاتَ.

وَانْطَلَقَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ إِلَى الْيَمَنِ، فَجَمَعَ يَعْلَى بْنُ أُمَيَّةَ[2] كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْجِبَايَةِ، وَتَرَكَهُ وَخَرَجَ بِذَلِكَ وَهُوَ سَائِرٌ عَلَى حَامِيَتِهِ إِلَى مَكَّةَ، فَقَدِمَهَا بِالْمَالِ.

وَلَمَّا رَجَعَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ مِنْ طَرِيقِ الشَّامِ وَأَتَتْهُ الأَخْبَارُ وَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، دَعَا عَلِيٌّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي كُنْتُ أُحَذِّرُكُمْ قَدْ وَقَعَ يَا قَوْمُ، وَإِنَّ الأَمْرَ الَّذِي وَقَعَ لا يُدْرَكُ إِلا بِإِمَاتَتِهِ، وَإِنَّهَا فِتْنَةٌ كَالنَّارِ، كُلَّمَا سُعِرَتِ ازْدَادَتْ وَاسْتَنَارَتْ، فَقَالا لَهُ: فَائْذَنْ لَنَا أَنْ نَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَإِمَّا أَنْ نُكَاثِرَ[3] وَإِمَّا أَنْ تَدَعَنَا، فَقَالَ: سَأُمْسِكُ الأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ، فَإِذا لَمْ أَجِدْ بُدًّا فَآخِرُ الدَّوَاءِ الْكَيُّ.

---

[1] اعتاص الأمر عليه: اشتد وخفي وصعب.

[2] يعلى بن أمية بن أبي عبيدة الحنظلي التميمي (٣٠ ق هـ – ٤٨ هـ): صحابي جليل من أهل مكة المكرمة، كان من الولاة الأغنياء الأسخياء وأشتهر بالجود والكرم. أسلم يوم الفتح، وشهد مع النبي غزوة حُنين والطائف وتبوك. استعمله النبي والياً على الجند في اليمن بعد حجة الوداع في سنة ١٠ هـ، ثم وجهه الخليفة أبو بكر الصديق لقتال قبيلة خولان في اليمن في حروب الردة، فحاربهم وظفر بهم، ثم ولي نجران وغالبية أعمال اليمن للخليفة عمر بن الخطاب، ثم ضم إليه الخليفة عثمان بن عفان ولاية اليمن كاملةً فأقام في صنعاء، وكان يعلى ممن خرج مع أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير للمطالبة بدم عثمان بن عفان وشهد معهم وقعة الجمل.

[3] في المطبوعة والطبري: نكابر، بالباء. والتصويب من الكامل لابن الأثير.

كتابة عليٍّ إلى أبي موسى ومعاوية:

وَكَتَبَ عليٌّ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَإِلَى أَبِي مُوسَى، وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى بِطَاعَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَبَيْعَتِهِمْ، وَبَيَّنَ الْكَارِهَ مِنْهُمْ لِلَّذِي كَانَ، وَالرَّاضِيَ بِالَّذِي قَدْ كَانَ، وَمَنْ بَيْنَ ذَلِكَ، حَتَّى كَانَ عَلِيًّا عَلَى الْمُوَاجَهَةِ[1] مِنْ أَمْرِ أَهْلِ الْكُوفَةِ.

وَكَانَ رَسُولَ عَلِيٍّ إِلَى أَبِي مُوسَى مَعْبَدٌ الأَسْلَمِيُّ، وَكَانَ رَسُولَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ سَبْرَةُ الْجُهَنِيُّ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَكْتُبْ مُعَاوِيَةُ بِشَيْءٍ وَلَمْ يُجِبْهُ وَرَدَّ رَسُولَهُ، وَجَعَلَ كُلَّمَا تَنَجَّزَ جَوَابَهُ لَمْ يَزِدْ عَلَى قولِه:

أَدِمْ إدامَةَ حِصْنٍ أو خُذَنْ بيَدِي ... حَرْبًا ضَرُوسًا تَشُبُّ الْجَزْلَ وَالضَّرَمَا

فِي جَارِكُمْ وَابْنِكُمْ إِذْ كَانَ مَقْتَلُهُ ... شَنْعَاءَ شَيَّبَتِ الأَصْدَاغَ وَاللِّمَمَا

أَعْيَا الْمَسُودُ بِهَا وَالسَّيِّدُونَ فَلَمْ ... يُوجَدْ لَهَا غَيْرُنَا مَوْلًى وَلا حَكَمَا

وَجَعَلَ الْجُهَنِيُّ كُلَّمَا تَنَجَّزَ الْكِتَابَ لَمْ يَزِدْهُ عَلَى هَذِهِ الأَبْيَاتِ.

حَتَّى إِذا كَانَ الشَّهْرُ الثَّالِثُ مِنْ مَقْتَلِ عُثْمَانَ فِي صَفَر، دَعَا مُعَاوِيَةُ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَبْسٍ، ثُمَّ أَحَدِ بَنِي رَوَاحَةَ يُدْعَى قَبِيصَةَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ طُومَارًا مَخْتُومًا، عُنْوَانُهُ: مِنْ مُعَاوِيَةَ إِلَى عَلِيٍّ، فَقَالَ: إِذَا دَخَلْتَ الْمَدِينَةَ فَاقْبِضْ عَلَى أسفل الطُّومَارِ، ثُمَّ أَوْصَاهُ بِمَا يَقُولُ. وَسَرَّحَ رَسُولَ عليٍّ.

---

[1] يعني كأنه يواجههم ويشاهدهم.

وخَرَجا فقدِما الْمَدِينَةَ فِي رَبِيعٍ الأَوَّلِ لِغُرَّتِهِ، فَلَمَّا دَخَلا الْمَدِينَةَ رَفَعَ الْعَبْسِيُّ الطُّومَارَ كَمَا أَمَرَهُ، وَخَرَجَ النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَتَفَرَّقُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ مُعَاوِيَةَ مُعْتَرِضٌ، وَمَضَى حَتَّى يَدْخُلَ عَلَى عَلِيٍّ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ الطُّومَارَ، فَفَضَّ خَاتَمَهُ فَلَمْ يَجِدْ فِي جَوْفِهِ كِتَابَةً، فَقَالَ لِلرَّسُولِ: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: آمِنٌ أَنَا؟ قَالَ: نَعَمْ إِنَّ الرُّسُلَ آمِنَةٌ لا تُقْتَلُ، قَالَ: وَرَائِي أَنِّي تَرَكْتُ قَوْمًا لا يَرْضَوْنَ إِلا بِالْقَوَدِ، قَالَ: مِمَّنْ؟ قَالَ: مِنْ خَيْطِ نَفْسِكَ، وَتَرَكْتُ سِتِّينَ أَلْفَ شَيْخٍ يَبْكِي تَحْتَ قَمِيصِ عُثْمَانَ وَهُوَ مَنْصُوبٌ لَهُمْ، قَدْ أَلْبَسُوهُ مِنْبَرَ دِمَشْقَ.

فَقَالَ عليٌّ: مِنِّي يَطْلُبُونَ دَمَ عُثْمَانَ! أَلَسْتُ مَوْتُورًا كَتِرَةِ عُثْمَانَ! اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، نَجَا وَاللَّهِ قَتَلَةُ عُثْمَانَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، فَإِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا أَصَابَهُ، اخْرُجْ، قَالَ: وَأَنَا آمِنٌ؟ قَالَ: وَأَنْتَ آمِنٌ.

فخَرَجَ العَبْسِيُّ وصاحتْ السَّبئيةُ، قَالُوا: هَذَا الْكَلْبُ، هَذَا وَافِدُ الْكِلابِ، اقْتُلُوهُ! فَنَادَى: يَا آلَ مُضَرَ، يَا آلَ قَيْسٍ، الْخَيْلَ وَالنَّبْلَ، إِنِّي أَحْلِفُ بِاللَّهِ جَلَّ اسْمُهُ لَيرُدَّنَّهَا عليكم أربعةُ آلافِ خَصِيٍّ، فانظروا كَمِ الْفُحُولَةُ وَالرِّكَابُ! وَتَعَاوَوْا عَلَيْهِ[1]، وَمَنَعَتْهُ مُضَرُ، وَجَعَلُوا يقولونَ له: اسْكُتْ، فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ، لا يُفْلِحُ هَؤُلاءِ أَبَدًا، فَلَقَدْ أَتَاهُمْ مَا يُوعَدُونَ، فَيَقُولُونَ لَهُ: اسْكُتْ، فَيَقُولُ: لَقَدْ حَلَّ

[1] تصايحوا.

بِهِمْ مَا يَحْذَرُونَ، انتهتْ واللهِ أعمالُهم، وذهَبَتْ ريحُهم. فواللهِ مَا أَمْسَوْا حَتَّى عُرِفَ الذُّلُ فِيهِمْ.

استئذان طلحة والزبير علياً في العمرة

اسْتَأْذَنَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ عَلِيًّا فِي الْعُمْرَةِ، فَأَذِنَ لَهُمَا، فَلَحِقَا بِمَكَّةَ[1].

وَأَحَبَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَنْ يَعْلَمُوا مَا رَأْيُ عَلِيٍّ فِي مُعَاوِيَةَ وَانْتِقَاضِهِ، لِيَعْرِفُوا بِذَلِكَ رَأْيَهُ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، أَيَجْسُرُ عَلَيْهِ أَوْ يَنْكَلُ عَنْهُ! وَقَدْ بَلَغَهُمْ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ دَخَلَ عَلَيْهِ وَدَعَاهُ إِلَى الْقُعُودِ وَتَرْكِ النَّاسِ، فَدَسُّوا إِلَيْهِ زِيَادَ بْنَ حَنْظَلَةَ التَّمِيمِيَّ[2] – وَكَانَ مُنْقَطِعًا إِلَى عَلِيٍّ – فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَجَلَسَ إِلَيْهِ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ: يَا زِيَادُ، تَيَسَّرْ، فَقَالَ: لأَيِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: تَغْزُو الشَّامَ، فَقَالَ زِيَادٌ: الأَنَاةُ وَالرِّفْقُ أَمْثَلُ، وقَالَ:

ومَنْ لا يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ ... يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويوطَأ بمَنْسِمِ[3]

---

[1] وظلا فيها إلى أجل.

[2] زياد بن حنظلة التميمي: صحابي شاعر وفارس، شجاع، من الجنود الفاتحين. بعثه النبي صلّى الله عليه وسلم وسلم إلى الزبرقان بن بَدْر، وقَيْس بن عاصم، ليتعاونا على قَتْل مسيلمة. وشارك في أكثر المعارك والفتوح الإسلامية منها: قتال المرتدين من عبس وذبيان في عهد أبي بكر الصديق والمعارك التي دارت بين المسلمين والروم في بلاد الشام. ثم عاش زيادٌ إلى أن شهد مع عليّ مشاهده.

[3] البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى.

فَتَمَثَّلَ عَلِيٌّ وَكَأَنَّهُ لا يُرِيدُهُ:

مَتَى تَجْمَعِ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِمًا ... وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِبْكَ الْمَظَالِمُ[1]

فَخَرَجَ زِيَادٌ عَلَى النَّاسِ وَالنَّاسُ يَنْتَظِرُونَهُ، فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ فَقَالَ: السَّيْفُ يَا قَوْمُ. فَعَرَفُوا مَا هُوَ فَاعِلٌ.

وَدَعَا عليٌّ محمدَ بنَ الْحَنَفِيَّةِ[2] فَدَفَعَ إِلَيْهِ اللِّوَاءَ، وَوَلَّى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ مَيْمَنَتَهُ، وَعُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ[3] – أو عمرو بنَ سفيانَ بنِ عبد الأسد – وَلاهُ مَيْسَرَتَهُ، وَدَعَا أَبَا لَيْلَى بْنَ عُمَرَ بْنِ الْجَرَّاحِ، ابْنَ أَخِي أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، فَجَعَلَهُ عَلَى مُقَدِّمَتِهِ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قُثَمَ بْنَ عَبَّاسٍ[4].

وَلَمْ يُوَلِّ مِمَّنْ خَرَجَ عَلَى عُثْمَانَ أَحَدًا، وَكَتَبَ إِلَى قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ أَنْ يَنْدُبَ النَّاسَ إِلَى الشَّامِ، وَإِلَى عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ وَإِلَى أَبِي مُوسَى مِثْلَ ذَلِكَ.

---

[1] البيت للشاعر عمرو بن برَّاقة الهمداني.

[2] ابنه.

[3] عمر بن أبي سلمة المخزومي (٢ ق هـ – ٨٣ هـ) ولد بأرض الحبشة وهو ربيب النبي صلى الله عليه وسلم، وابن أم سلمة زوجة النبي من زوجها الأول أبي سلمة بن عبد الأسد، ولد قبل الهجرة بسنتين، روى أحاديث عن النبي، واستعمله علي بن أبي طالب على البحرين وفارس.

[4] قثم بن العباس بن عبد المطلب: ابن عم النبي، كان أشبه الناس برسول الله، تولى نيابة المدينة في أيام علي، وشهد فتح سمرقند فاستشهد ودفن بها، وما زال ضريحه قائما فيها. ويقال إنه أحدث الناس عهداً بالرسول.

وَأَقْبَلَ عَلَى التَّهَيُّؤِ وَالتَّجَهُّزِ، وَخَطَبَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَدَعَاهُمْ إِلَى النُّهُوضِ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْفُرْقَةِ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ رَسُولاً هَادِيًا مَهْدِيًّا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ وَاضِحٍ، لا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلا هَالِكٌ، وَإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ وَالشُّبُهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلا مَنْ حَفِظَ اللَّهُ، وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةَ أَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مَلْوِيَّةٍ وَلا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا، وَاللَّهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقِلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الإِسْلامِ، ثُمَّ لا يَنْقِلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرِزَ الأَمْرُ إِلَيْهَا، انْهَضُوا إِلَى هَؤُلاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ يُفَرِّقُونَ جَمَاعَتَكُمْ، لَعَلَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بِكُمْ مَا أَفْسَدَ أَهْلُ الآفَاقِ، وَتَقْضُونَ الَّذِي عَلَيْكُمْ.

فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ الْخَبَرُ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ بِنَحْوٍ آخَرَ وَتَمَامٍ عَلَى خِلافٍ، فَقَامَ فِيهِمْ بِذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِظَالِمِ هَذِهِ الأُمَّةِ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ، وَجَعَلَ لِمَنْ لَزِمَ الأَمْرَ وَاسْتَقَامَ الْفَوْزَ وَالنَّجَاةَ، فَمَنْ لَمْ يَسَعْهُ الْحَقُّ أَخَذَ بِالْبَاطِلِ، أَلا وَإِنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَأُمَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تَمَالَئُوا عَلَى سُخْطِ إِمَارَتِي، وَدَعَوُا النَّاسَ إِلَى الإِصْلاحِ، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ، وَأَكُفُّ إِنْ كَفُّوا، وَأَقْتَصِرُ عَلَى مَا بَلَغَنِي عَنْهُمْ.

استنفار أهل المدينة

ثُمَّ أَتَاهُ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْبَصْرَةَ لِمُشَاهَدَةِ النَّاسِ وَالإِصْلاحِ، فَتَعَبَّى لِلْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: إِنْ فَعَلُوا هَذَا فَقَدِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِمْ فِي الْمُقَامِ فِينَا مَئُونَةٌ وَلا إِكْرَاهٌ.

فَاشْتَدَّ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ الأَمْرُ، فَتَثَاقَلُوا، فَبَعَثَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ كُمَيْلاً النَّخَعِيَّ، فَجَاءَ بِهِ فَقَالَ: انْهَضْ مَعِي، فَقَالَ: أَنَا مَعَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْهُمْ، وَقَدْ دَخَلُوا فِي هَذَا الأَمْرِ فَدَخَلْتُ مَعَهُمْ لا أُفَارِقُهُمْ، فَإِنْ يَخْرُجُوا أَخْرُجْ، وَإِنْ يَقْعُدُوا أَقْعُدْ.

قَالَ عليٌّ: فَأَعْطِنِي زَعِيمًا بِأَلَّا تَخْرُجَ، قَالَ: وَلا أُعْطِيكَ زَعِيمًا. قَالَ: لَوْلا مَا أَعْرِفُ مِنْ سُوءِ خُلُقِكَ صَغِيرًا وَكَبِيرًا لأَنْكَرْتَنِي، دَعُوهُ فَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ.

فَرَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُمْ يَقُولُونَ: لا وَاللَّهِ مَا نَدْرِي كَيْفَ نَصْنَعُ، فَإِنَّ هَذَا الأَمْرَ لَمُشْتَبِهٌ عَلَيْنَا، وَنَحْنُ مُقِيمُونَ حَتَّى يُضِيءَ لَنَا وَيُسْفِرَ.

فَخَرَجَ مِنْ تَحْتِ لَيْلَتِهِ وَأَخْبَرَ أُمَّ كُلْثُومٍ بِنْتَ عَلِيٍّ[1] بِالَّذِي سَمِعَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ مُعْتَمِرًا مُقِيمًا عَلَى طَاعَةِ عَلِيٍّ مَا خَلا النُّهُوضَ، وَكَانَ صَدُوقًا فَاسْتَقَرَّ عِنْدَهَا.

---

[1] أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: وأمها فاطمة الزهراء، وهي أصغر حفيدات الرسول صلى الله عليه وسلم. تزوجت عمر بن الخطاب وأنجبت منه ولدين، هما زيد ورقية، وخلف عليها بعد مقتله

وَأَصْبَحَ عَلِيٌّ فَقِيلَ لَهُ: حَدَثَ الْبَارِحَةَ حَدَثٌ هُوَ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَمُعَاوِيَةَ، قَالَ: وَمَا ذَلِكَ؟ قَالَ: خَرَجَ ابْنُ عُمَرَ إِلَى الشَّامِ، فَأَتَى عَلِيٌّ السُّوقَ وَدَعَا بِالظَّهْرِ[1]، فَحَمَلَ الرِّجَالَ، وَأَعَدَّ لِكُلِّ طَرِيقٍ طُلَّابًا وَمَاجَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَسَمِعَتْ أُمُّ كُلْثُومٍ بِالَّذِي هُوَ فِيهِ، فَدَعَتْ بِبَغْلَتِهَا فَرَكِبَتْهَا فِي رَحْلٍ، ثُمَّ أَتَتْ عَلِيًّا وَهُوَ وَاقِفٌ فِي السُّوقِ يُفَرِّقُ الرِّجَالَ فِي طَلَبِهِ، فَقَالَتْ: مَا لَكَ لا تُزَنَّدُ[2] مِنْ هَذَا الرَّجُلِ؟ إِنَّ الأَمْرَ عَلَى خِلافِ مَا بُلِّغْتَهُ وَحُدِّثْتَهُ، وقَالَتْ: أَنَا ضَامِنَةٌ لَهُ. فَطَابَتْ نَفْسُهُ وَقَالَ: انْصَرِفُوا، لا وَاللَّهِ مَا كَذَبَتْ وَلا كَذَبَ، وَإِنَّهُ عِنْدِي ثِقَةٌ فَانْصَرِفُوا.

ولما رَأَى عَلِيٌّ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَا رَأَى لَمْ يَرْضَ طَاعَتَهُمْ حَتَّى يَكُونَ مَعَهَا نُصْرَتُهُ، فقَامَ فِيهِمْ وَجَمَعَ إِلَيْهِ وُجُوهَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَقَالَ: إِنَّ آخِرَ هَذَا الأَمْرِ لا يَصْلُحُ إِلا بِمَا صَلَحَ أَوَّلُهُ، فَقَدْ رَأَيْتُمْ عَوَاقِبَ قَضَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ مَضَى مِنْكُمْ، فَانْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُصْلِحْ لَكُمْ أَمْرَكُمْ. فَأَجَابَهُ رَجُلانِ مِنْ

ابن عمِّها عون بن جعفر الطيار، ثم أخيه عبد الله بن جعفر. شهدت معركة كربلاء ومقتل شقيقها الحسين وبقية أهلها.

[1] يعني الدواب التي تحمل المقاتلين.

[2] تزند: ضاق صدره. رجل مزند: سريع الغضب.

أَعْلامِ الأَنْصَارِ، أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيِّهَانِ[1]- وَهُوَ بَدْرِيٌّ - وَخُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ[2]، وَلَيْسَ بِذِي الشَّهَادَتَيْنِ[3]، مَاتَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ فِي زمنِ عثمانَ رضي اللَّهُ عنه.

وقدْ سُئلَ الحَكَم: أشهِدَ خزيمةُ بنُ ثَابِت ذو الشهادتين الجَمَلَ؟ فَقَالَ: ليس بِهِ، ولكنَّه غيرُه مِنَ الأنصار، مات ذو الشهادتينِ في زمانِ عثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ.

وقال الشَّعْبِيِّ: بِاللَّهِ الَّذِي لا إله إلا هُوَ، مَا نَهَضَ فِي تِلَكَ الفتنةِ إلا ستةُ بدريِّينَ ما لهم سابعٌ، أو سبعةٌ مَا لَهُمْ ثامِن.

وفي روايةٍ أخرى عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: بِاللَّهِ الَّذِي لا إله إلا هُوَ مَا نهض فِي ذَلِكَ الأمرِ إلا ستةُ بدريينَ مَا لَهُمْ سابعٌ، فقيل: اختلفتُما، قَالَ: لم نختلفْ، إنَّ

---

[1] أبو الهيثم مالك بن التّيّهان الأنصاري: صحابي بدري من الأنصار، شهد المشاهد كلها، وهو أحد الستة الذين قبلوا الدعوة للإسلام من النبي في مكة حين كان يدعو القبائل للإسلام في موسم الحج. لقب ب«ذي السيفين» لاستعماله سيفين في المعارك.

[2] كتب التراجم ذكرت خزيمة بن ثابت واحد هو ذو الشهادتين الوارد في الهامش التالي.

[3] خزيمة بن ثابت بن الفاكِه بن مالك بن الأوس الأنصاري الخطمي: سَكَن الكوفة، ويُلقَّب بـ(ذي الشهادتَين)؛ إذ جعل الرسول – صلّى الله عليه وسلّم – شهادته بشهادة رجلَين، وهو من السابقين الأوّلين إلى الإسلام.

الشَّعْبِيَّ شكَّ فِي أبي أيوبٍ[1]: أَخَرَجَ حَيْثُ أرسلَتْه أمُّ سَلَمَةَ إِلَى عليٍّ بعد صِفِّين، أمْ لمْ يخرجْ! إلا أنه قدِمَ عَلَيْهِ فمَضَى إِلَيْهِ، وعليٌّ يَوْمَئِذٍ بالنَّهروان.

وعن سعيدِ بنِ زيدٍ أنَّه قالَ: مَا اجْتَمَعَ أَرْبَعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَفَازُوا عَلَى النَّاسِ بِخَيْرٍ يَحُوزُونَهُ إلا وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَحَدُهُمْ.

ثُمَّ إِنَّ زِيَادَ بْنَ حَنْظَلَةَ لَمَّا رَأَى تَثَاقُلَ النَّاسِ عَنْ عَلِيٍّ ابْتَدَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ: مَنْ تَثَاقَلَ عَنْكَ فَإِنَّا نَخِفُّ مَعَكَ وَنُقَاتِلُ دُونَكَ.

وَبَيْنَمَا عَلِيٌّ يَمْشِي فِي الْمَدِينَةِ إِذْ سَمِعَ زَيْنَبَ ابْنَةَ أَبِي سُفْيَانَ[2] وَهِيَ تَقُولُ: ظُلامَتُنَا[3] عِنْدَ مُدَمَّمٍ وَعِنْدَ مُكْحِلَةٍ[4]، فَقَالَ: إِنَّهَا لَتَعْلَمُ مَا هُمَا لَهَا بِثَأْرٍ.

وصول الخبر إلى عائشة

قُتِلَ عثمانُ في ذي الحِجَّة، لثماني عشرةَ خَلَتْ مِنْهُ، وَكَانَ عَلَى مكةَ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عامرٍ الحضرمي[5]، وعلى الموسِم يَوْمَئِذٍ عَبْدُ اللَّهِ بنُ عَبَّاسٍ، بَعَثَه عُثْمَانُ

---

[1] أبو أيوب الأنصاري.

[2] زَيْنَبُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ: أخت معاوية وامْرَأَةُ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ.

[3] ثأرنا.

[4] تعني محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر. وهما أخوان من الأم. كما سبق.

[5] لم أجد له ترجمة.

وَهُوَ محصورٌ، فتَعَجَّل أناسٌ فِي يومينِ فأدركوا مع ابن عَبَّاس، فقدِموا الْمَدِينَةَ بعد مَا قُتِلَ وقبْل أن يُبايَع عليٌّ.

وهَرَبَ بنو أُمَيَّةَ فلحِقوا بمكةَ[1]، وبويع عليٌّ لخمسٍ بَقِينَ مِن ذي الحِجَّة يومَ الجُمُعة[2]، وتساقطَ الهُرَّابُ إِلَى مكةَ، وعائشةُ مقيمةٌ بمكةَ تريدُ عُمْرةَ المحرَّم، فلما تساقطَ إِلَيْهَا الهُرَّابُ استخبرتْهم فأخبرُوها أنْ قَدْ قُتل عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يُجْبْهم إِلَى التأميرِ أحدٌ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ولكن أكياس[3]، هَذَا غبٌّ[4] مَا كَانَ يدورُ بينَكم من عتابِ الاستصلاح.

حَتَّى إذا قضتْ عمرتَها وخرجتْ فانتهتْ إِلَى سَرِفَ[5] لقِيَها رجلٌ مِنْ أخوالِها مِنْ بني لَيْثٍ – وكانت واصلةً لَهُمْ، رفيقةً عَلَيْهِم – يُقال لَهُ عبيدُ بنُ أبي

---

[1] هروب بني أمية معروفة دوافعه، ذلك أنهم أصحاب دم عثمان، ولو ظلوا في المدينة لقتلهم الثوار ليتخلصوا من أي أحد يالب بدم عثمان. فهرب بنوا أمية إلى مكة حتى تتضح الأمور. وهو ما كان.

[2] بعد أسبوع من مقتل عثمان، فقد قتل عثمان يوم الجمعة ثامن عشر، واستُخلف عليٌّ يوم الجمعة خامس وعشرين.

[3] هكذا.

[4] غب: عاقبة ونتيجة.

[5] موضع بين التنعيم ووادي فاطمة شمال غرب مكة المكرمة على بعد ١٢ كم منها، ويعد أحد أحياء ضواحي مكة المكرمة الشمالية حالياً.

سَلَمَة يُعرف بأمِّه أمِّ كلاب، فَقَالَتْ: مَهْيَم![1] فأصمَّ ودَمدَمَ[2]، فَقَالَتْ: ويحَكَ! علينا أو لنا؟ فَقَالَ: لا تُدرَى، قُتِل عُثْمَان وبَقُوا ثمانياً، قالت: ثُمَّ صَنَعوا ماذا؟ فَقَالَ: أخذوا أهلَ الْمَدِينَةِ بالاجتماعِ عَلَى عليٍّ، والقومُ[3] الغالبون عَلَى الْمَدِينَةِ.

فرجعتْ إِلَى مكةَ وَهِيَ لا تقولُ شَيْئًا وَلا يخرجُ منها شَيْء، حَتَّى نزلتْ عَلَى بابِ المسجدِ وقصدَتْ للحَجَر فَسَتَّرَتْ فِيهِ، واجتمع الناسُ إليها، فقالت: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّ الغَوغاءَ مِنْ أهلِ الأمصارِ وأهلِ المياه وعَبيدِ أهلِ الْمَدِينَةِ اجتمعوا أنْ عاب الغوغاءُ عَلَى هَذَا المقتولِ بالأمسِ الإرَبَ واستعمالَ مَنْ حَدَثَتْ سِنُّه، وَقَدِ استعمَلَ أسنانهم قبْلَه، ومواضعُ من مواضعِ الحِمى حَماها لَهُمْ، وَهِيَ أمورٌ قَدْ سُبِق بِهَا لا يَصلُحُ غيرُها، فتابَعَهم ونَزَعَ لهم عنها استصلاحاً لَهُمْ، فلما لم يجِدوا حُجَّة وَلا عُذْراً خَلَجُوا[4] وبادَرُوا بالعُدوان ونبا فعلُهم عن قولِهم، فسَفكوا الدمَ الحرامَ واستحلوا البلدَ الحرامَ وأخذوا المالَ الحرامَ، واستحلُّوا الشهرَ الحرامَ. وَاللَّهِ لإصبعُ عُثْمَانَ خيرٌ من طِباقِ الأرضِ أمثالِهم، ووالله لو أنَّ الَّذِي اعتَدَوا بِهِ عَلَيْهِ كَانَ ذنباً لخَلَصَ مِنْهُ كما يخلُصُ

---

[1] مَهْيَمْ : كلمةُ استفهام معناها ما شأنك أَو ما وراءَك؟

[2] أصم: تشاغل وتجاهل. دَمْدَمَ: تكلَّم كلامًا خفيًّا أو حرَّك لسانَه وشفتَيه بدون تلفُّظ.

[3] المنشقون قتلة عثمان.

[4] خلجوا: فسدوا واعوَجّوا.

الذهبُ من خَبَثِه أو الثوبُ من دَرَنِه إذ ماصُوهُ[1] كما يُماصُ الثوبُ بالماء. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابن عَامِرٍ الحضرمي: هأنَذا لها أولَ طالب – وَكَانَ أولَ مجيبٍ ومنْتَدَب.

عودة عائشة إلى المدينة

خَرَجَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نَحْوَ الْمَدِينَةِ مِنْ مَكَّةَ بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ، فَلَقِيَهَا رَجُلٌ مِنْ أَخْوَالِهَا، فَقَالَتْ: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: قُتِلَ عُثْمَانُ وَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى عَلِيٍّ، وَالأَمْرُ أَمْرُ الْغَوْغَاءِ فَقَالَتْ: مَا أَظُنُّ ذَلِكَ تَامًّا، رُدُّونِي.

فَانْصَرَفَتْ رَاجِعَةً إِلَى مَكَّةَ، حَتَّى إِذْ دَخَلَتْهَا أَتَاهَا عَبْدُ الله بن عَامِرٍ الْحَضْرَمِيُّ – وَكَانَ أَمِيرَ عُثْمَانَ عَلَيْهَا – فَقَالَ: مَا رَدَّكِ يَا أَمَّ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَتْ: رَدَّنِي أَنَّ عثمانَ قُتِلَ مظلوماً، وإنَّ الأَمْرَ لا يَسْتَقِيمُ وَلِهَذِهِ الْغَوْغَاءِ أَمْرٌ، فَاطْلُبُوا بِدَمِ عُثْمَانَ تُعِزُّوا الإِسْلامَ.

فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَجَابَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ الْحَضْرَمِيُّ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَتْ بَنُو أُمَيَّةَ بِالْحِجَازِ وَرَفَعُوا رُءُوسَهُمْ، وَقَامَ مَعَهُمْ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ، وَسَائِرُ بَنِي أُمَيَّةَ. وَقَدْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ[2] مِنَ الْبَصْرَةِ، وَيَعْلَى

---

[1] الموص: الغسل بالأصابع، يقال: مُصْتُه أموصُه مَوْصاً، أرادت أنهم استتابوه عما نقموا منه، فلما أعطاهم ما طلبوه قتلوه.

[2] عبد الله بن عامر بن كريز: صحابي جليل شريفٌ في قومه بارٌ بهم جوادٌ كريمٌ من أجود رجال قريش والعرب. فتح جميع إقليم خراسان وكان والياً في عهد عثمان على البصرة إلى أن قتل عثمان،

بْنُ أُمَيَّةَ مِنَ الْيَمَنِ، وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَاجْتَمَعَ مَلَؤُهُمْ بَعْدَ نَظَرٍ طَوِيلٍ فِي أَمْرِهِمْ عَلَى الْبَصْرَةِ.

وقالت عائشةُ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذَا حَدَثٌ عَظِيمٌ وَأَمْرٌ مُنْكَرٌ، فَانْهَضُوا فِيهِ إِلَى إِخْوَانِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَأَنْكِرُوهُ، فَقَدْ كَفَاكُمْ أَهْلُ الشَّامِ مَا عِنْدَهُمْ، لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْرِكُ لِعُثْمَانَ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِثَأْرِهِمْ.

وفي رواية أخرى

كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَجَابَ إِلَى ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ[1] وَبَنُو أُمَيَّةَ، وَقَدْ كَانُوا سَقَطُوا إِلَيْهَا بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ، ثُمَّ قَدِمَ عَبْدُ اللهِ بنُ عامر، ثم قدِمَ يَعْلى بنُ أميَّة، فاتفقا بمكةَ، ومع يَعْلى ستمائةُ بعيرٍ وستمائة أَلْفٍ[2]، فَأَنَاخَ بِالأَبْطَحِ مُعَسْكِرًا، وَقَدِمَ مَعَهُمَا طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، فَلَقِيَا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ: مَا وَرَاءَكُمَا؟ فَقَالا: وَرَاءَنَا أَنَّا تَحَمَّلْنَا بِقَلْيَتِنَا[3] هَرَابًا مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ غَوْغَاءَ وَأَعْرَابٍ،

فلما سمع ابن عامر بقتله حَمَل ما في بيت المال وسار إلى مكة، فوافى بها طلحة والزبير وعائشة وهم يريدون الشام، فقال: بل ائتوا البصرة فإن لي بها صنائع، وهي أرض الأموال وبها عَدَدُ الرجال. فساروا إلى البصرة. وشهد وَقعَة الجملِ معهم، فلما انهزموا سار إلى دمشق فأقام بها.

[1] الحضرمي، وهو غير ابن كريز.

[2] ستمائة ألف درهم. كما سيأتي.

[3] ارتحل القوم بقليتهم: لم يدَعوا وراءهم شيئاً.

وَفَارَقْنَا قَوْمًا حَيَارَى لا يَعْرِفُونَ حَقًّا وَلا يُنْكِرُونَ بَاطِلاً وَلا يَمْنَعُونَ أَنْفُسَهُمْ. قَالَتْ: فَائْتَمِرُوا أَمْرًا، ثم انهضُوا إلى هذه الغوغاءِ[1].

وتمثَّلَتْ:

ولو أَنَّ قَوْمِي طَاوَعَتْنِي سَرَاتُهُمْ ... لأَنْقَذْتُهُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَوِ الْحَبْلِ[2]

وَقَالَ الْقَوْمُ فِيمَا ائْتَمَرُوا بِهِ: الشَّامَ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ[3]: قَدْ كَفَاكُمُ الشَّامَ مَنْ يَسْتَمِرُّ فِي حَوْزَتِهِ[4]، فَقَالَ لَهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ: فَأَيْنَ؟ قَالَ: الْبَصْرَةَ، فَإِنَّ لِي بِهَا صَنَائِعَ وَلَهُمْ فِي طَلْحَةَ هَوًى، قالوا: قَبَّحَكَ اللهُ! فواللهِ مَا كُنْتَ بِالْمُسَالِمِ وَلا بِالْمُحَارِبِ، فَهَلَّا أَقَمْتَ[5] كَمَا أَقَامَ مُعَاوِيَةُ فَنُكْفَى بِكَ، وَنَأْتِي الْكُوفَةَ فَنَسُدَّ عَلَى هَؤُلاءِ الْقَوْمِ[6] الْمَذَاهِبَ! فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ جَوَابًا مَقْبُولاً.

---

[1] قتلة عثمان.

[2] الشطر الثاني مكسور، ولم أعثر عليه موزوناً. والشطر الأول من بيت لخَدِيج بْن الْعَوْجَاءِ النَّصْرِيّ، قاله يوم هزيمة قومه يوم غزوة حنين:

وَلَوْ أَنَّ قَوْمِي طَاوَعَتْنِي سَرَاتُهُمْ ... إِذَنْ مَا لَقِينَا الْعَارِضَ الْمُتَكَشِّفَا

[3] ابن كريز.

[4] يعني معاوية.

[5] يعني بالبصرة فيكفيهموها ويتوجهوا إلى الكوفة بدل البصرة.

[6] المشاركون في قتل عثمان من أهل الكوفة.

حَتَّى إِذَا اسْتَقَامَ لَهُمُ الرَّأْيُ عَلَى الْبَصْرَةِ قَالُوا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، دَعِي الْمَدِينَةَ فَإِنَّ مَنْ مَعَنَا لا يَقْرُنُونَ[1] لِتِلْكَ الْغَوْغَاءِ الَّتِي بِهَا، وَاشْخَصِي مَعَنَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَإِنَّا نَأْتِي بَلَدًا مُضَيَّعًا، وَسَيَحْتَجُّونَ عَلَيْنَا فِيهِ بِبَيْعَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَتُنهضِينَهُمْ كَمَا أَنْهَضْتِ أَهْلَ مَكَّةَ ثُمَّ تَقْعُدِينَ، فَإِنْ أَصْلَحَ اللَّهُ الأَمْرَ كَانَ الَّذِي تُرِيدِينَ، وَإِلا احْتَسَبْنَا وَدَفَعْنَا عَنْ هَذَا الأمرِ بجُهدِنا حتى يَقْضِيَ اللهُ ما أرادَ.

فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لَهَا – وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُسْتَقِيمًا إلا بِهَا – قَالَتْ: نَعَمْ، وَقَدْ كَانَ أزواجُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم مَعَهَا عَلَى قَصْدِ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا تَحَوَّلَ رَأْيُهَا إِلَى الْبَصْرَةِ تَرَكْنَ ذَلِكَ.

وَانْطَلَقَ الْقَوْمُ بَعْدَهَا إِلَى حَفْصَةَ، فَقَالَتْ: رَأْيِي تَبَعٌ لِرَأْيِ عَائِشَةَ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلا الْخُرُوجُ قَالُوا: كَيْفَ نَسْتَقِلُّ وَلَيْسَ مَعَنَا مَالٌ نُجَهِّزُ بِهِ الناسَ! فقالَ يَعْلى بنُ أميةَ: معي ستمائةُ ألفٍ وستمائةُ بَعِيرٍ فَارْكَبُوهَا، وَقَالَ ابْنُ عَامِرٍ: مَعِي كَذَا وَكَذَا فَتَجَهَّزُوا بِهِ، فَنَادَى الْمُنَادِي: إِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ شَاخِصُونَ إِلَى الْبَصْرَةِ، فَمَنْ كَانَ يُرِيدُ إِعْزَازَ الإِسْلامِ وَقِتَالَ الْمُحِلِّينَ وَالطَّلَبَ بِثأرِ عثمانَ، ومَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَرْكَبٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ جِهازٌ فهذا جهازٌ وهذه نفقةٌ.

---

[1] لَا يُطِيقُون مَنْ بِهَا مِنَ الْغَوْغَاءِ فليسوا قرناء لهم أي نظراء ومكافئون في العدد.

فحَمَلوا ستمائةَ رجلٍ على ستمائةِ نَاقَةٍ، سِوَى مَنْ كَانَ لَهُ مَرْكَبٌ – وَكَانُوا جَمِيعًا أَلْفًا – وَتَجَهَّزُوا بِالْمَالِ، وَنَادَوْا بِالرَّحِيلِ، وَاسْتَقَلُّوا ذَاهِبِينَ.

وَأَرَادَتْ حَفْصَةُ الْخُرُوجَ فَأَتَاهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فَطَلَبَ إِلَيْهَا أَنْ تَقْعُدَ، فَقَعَدَتْ وَبَعَثَتْ إِلَى عَائِشَةَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْخُرُوجِ، فَقَالَتْ: يَغْفِرُ اللَّهُ لِعَبْدِ اللَّهِ! وَبَعَثَتْ أُمُّ الْفَضْلِ بِنْتُ الْحَارِثِ[1] رَجُلاً مِنْ جُهَيْنَةَ يُدْعَى ظُفُرًا، فَاسْتَأْجَرَتْهُ عَلَى أَنْ يَطْوِيَ وَيَأْتِيَ عَلِيًّا بِكِتَابِهَا، فَقَدِمَ عَلَى عَلِيٍّ بِكِتَابِ أُمِّ الْفَضْلِ بِالْخَبَرِ.

وخَرَجَ المغيرةُ وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ مَعَهُمْ مَرْحَلَةً مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَ سَعِيدٌ لِلْمُغِيرَةِ: مَا الرَّأْيُ؟ قَالَ: الرَّأْيُ وَاللَّهِ الاعْتِزَالُ، فَإِنَّهُمْ مَا يُفْلِحُ أَمْرُهُمْ، فَإِنْ أظفَرَه اللهُ أتيناهُ[2] فقلْنا: كان هوانَا وصَغَوْنا مَعَكَ. فَاعْتَزَلا فَجَلَسَا، فَجَاءَ سَعِيدٌ مَكَّةَ فَأَقَامَ بِهَا، وَرَجَعَ مَعَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَالِدِ بْنِ أُسَيْدٍ[3].

---

[1] أم الفضل بنت الحارث المعروفة بلُبَابَة الكُبْرَى المشهور أنها ماتت سنة ٣٠ هـ، والرسالة إلى على كانت سنة ٣٦ هـ، فيتعذر نسبة هذا الخبر إليها، إلا إذا كان المقصود أختها لبابة الصغرى، والله أعلم.

[2] يعني عليّ بن أبي طالب.

[3] عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص الأموي: ابن أخي عتاب بن أسيد ووالد أمية بن عبد الله.

وفي رواية أخرى[1]

لَمَّا انْتَهَتْ عائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى سَرِفَ رَاجِعَةً فِي طَرِيقِهَا الى مكة، لقيها عبدُ بنُ أُمِّ كِلابٍ – وَهُوَ عَبْدُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، يُنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ – فَقَالَتْ لَهُ: مَهْيَمْ؟ قَالَ: قَتَلُوا عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَمَكَثُوا ثَمَانِيًا، قَالَتْ: ثُمَّ صَنَعُوا مَاذَا؟ قَالَ: أَخَذَهَا أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِالاجْتِمَاعِ، فَجَازَتْ بِهِمُ الأُمُورُ إِلَى خَيْرِ مُجَازٍ، اجْتَمَعُوا عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَيْتَ أَنَّ هَذِهِ انْطَبَقَتْ عَلَى هَذِهِ إِنْ تَمَّ الأَمْرُ لِصَاحِبِكَ! رُدُّونِي رُدُّونِي، فَانْصَرَفَتْ إِلَى مَكَّةَ وَهِيَ تَقُولُ: قُتِلَ وَاللَّهِ عُثْمَانُ مَظْلُومًا، وَاللَّهِ لأَطْلُبَنَّ بِدَمِهِ، فَقَالَ لَهَا ابْنُ أُمِّ كِلابٍ[2]: ولِمَ؟ فوالله إِنَّ أَوَّلُ مَنْ أَمَالَ حَرْفَهُ لأَنْتِ! وَلَقَدْ كُنْتِ تَقُولِينَ: اقْتُلُوا نَعْثَلاً فَقَدْ كَفَرَ[3]، قَالَتْ: إِنَّهُمُ اسْتَتَابُوهُ ثُمَّ قَتَلُوهُ، وَقَدْ قُلْتُ وَقَالُوا، وَقَوْلِي الأَخِيرُ خَيْرٌ مِنْ قَوْلِي الأَوَّلِ، فَقَالَ لَهَا ابْنُ أُمِّ كِلابٍ:

---

[1] رواية لم تثبت.

[2] ابن أم كلاب قال عنه ابن سعد في الطبقات إنه علوي.

[3] كلمة (نعثل) هي من ألفاظ السبئية في شتم عثمان. وحاشا عائشة أن تكفِّر مسلماً، فكيف بعثمان الذي خرجت تطالب بدمه. الخبر يحمل أمارات كذبه. وانظر إلى ما أخرجه خليفة بن خياط بسند صحيح (تأريخ خليفة/ ١٧٦) عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها: تركتموه كالثوب النقي من الدنس ثم قربتموه تذبحونه كما تذبح الشاة. قال مسروق: فقلت هذا عملك كتبتِ إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه، فقالت عائشة: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون

فَمِنْكِ الْبَدَاءُ وَمِنْكِ الْغِيَرْ وَمِنْكِ الرِّيَاحُ وَمِنْكِ الْمَطَرْ
وَأَنْتِ أَمَرْتِ بِقَتْلِ الإِمَامِ وَقُلْتِ لَنَا إِنَّهُ قَدْ كَفَرْ
فَهَبْنَا أَطَعْنَاكِ فِي قَتْلِهِ وَقَاتِلُهُ عِنْدَنَا مَنْ أَمَرْ
وَلَمْ يَسْقُطِ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِنَا وَلَمْ تنكسِفْ شَمْسُنَا وَالْقَمَرْ
وَقَدْ بَايَعَ النَّاسُ ذَا تَدْرُءٍ[1] يُزِيلُ الشَّبَا وَيُقِيمُ الصَّعَرْ[2]
وَيَلْبَسُ لِلْحَرْبِ أَثْوَابَهَا وَمَا مَنْ وَفَى مِثْلُ مَنْ قَدْ غَدَرْ[3]

فَانْصَرَفَتْ إِلَى مَكَّةَ فَنَزَلَتْ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَصَدَتْ لِلْحِجْرِ، فتَسَتَّرَتْ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهَا النَّاسُ، فَقَالَتْ: يا أيُّها الناسُ، إنَّ عثمانَ قُتِلَ مظلوماً، ووالله لأَطْلُبَنَّ بِدَمِهِ.

ما كتبت إليهم بسواد في بياض حتى جلست مجلسي هذا. قال الأعمش: فكانوا يرون: أنه كُتب على لسانها. اهـ. وعلى هذا فإن هذا الخبر فيه نظر، وهو من تساهلات سيف بن عمر.

[1] ذو تدرء: ذو عِدَّة وقوة واستعداد.

[2] الشبا: الشبهات. الصعر: الاعوجاج.

[3] وهذا الشعر أيضاً يحمل أمارات الصنعة والزيف، وأنه من وضع القوم؛ فكيف لأحد أن يخاطب أم المؤمنين بهذا الخطاب؟ ويحملها الاتهام بتكفير عثمان والأمر بقتله؟ فهذا الشعر لا شك عندي أنه مصنوع موضوع. وإن شئت فانظر إلى قوله (وَقَاتِلُهُ عِنْدَنَا مَنْ أَمَرْ) واسأل عن كلمة (عندنا). وقد وجدت أن كل خبر في هذا الكتاب صيغ في شعر فهو موضع ريبة. انظر ما سيأتي دليلاً على هذا.

توجه عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة

لَمَّا اجتَمَعَ إِلَى مكةَ بنو أميةَ ويَعْلى بنُ أميةَ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، ائتمَرُوا أمرَهم، وأجمع مَلَؤُهم عَلَى الطَلَبِ بدمِ عُثْمَانَ وقتالِ السَّبئيةِ حَتَّى يثأرُوا وينتقِمُوا، فأمرَتْهم عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالخروجِ إِلَى الْمَدِينَةِ، واجتَمَعَ القومُ عَلَى الْبَصْرَةِ وردُّوها عن رأيِها.

وَقَالَ لها طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ: إنا نأتي أرضاً قَدْ أُضيعتْ وصارت إِلَى عليٍّ، وَقَدْ أجبَرَنا عليٌّ عَلَى بيعتِه[1]، وهم محتجون علينا بِذَلِكَ وتاركو أمرِنا، إلا أنْ تخرُجي فتأمُري بمثلِ مَا أمرتِ بمكةَ، ثُمَّ ترجِعي.

فنادَى المنادِي: إن عَائِشَةَ تريدُ الْبَصْرَةَ، وليس في ستمائةِ بعيرٍ مَا تغنون بِهِ غوغاءَ وجلبةَ الأعرابِ وعبيداً قَدِ انتشَرُوا وافترَشُوا أذرعَهم مُسعدينَ لأولِ واعيةٍ.

وبعثتْ عائشةُ إِلَى حفصةَ، فأرادتْ حفصةُ الخروجَ، فعَزَمَ عَلَيْهَا ابنُ عمرَ فأقامتْ، فخرجتْ عَائِشَةُ ومعها طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، وَأَمَّرَتْ عَلَى الصَّلاةِ عبدَ

---

[1] قد مر أن المنشقين أجبروا علياً وأهلَ المدينة على هذه البيعة، وقالوا لعلي: أمامك ثلاثة أيام وإذا لم تقبل الخلافة قتلناك وقتلنا طلحة والزبير وناساً كثيراً.

الرَّحْمَنِ بنَ عتَّابِ بنِ أُسَيد[1]، فكان يُصلي بهم فِي الطريقِ وبالبصرةِ حَتَّى قُتِل، وخرج معها مَرْوَانُ وسائرُ بني أُمَيَّة، إلا مَنْ خَشَعَ، وتيامَنَتْ عن أوطاس[2]، وهم ستمائةُ راكبٍ، سِوَى مَن كَانَتْ لَهُ مطيَّة، فتركتِ الطريقَ ليلةً وتيامنتْ عنها كأنهم سيَّارةٌ ونُجعَةٌ[3]، مُساحِلِين[4]، لم يَدْنُ مِنَ المنكدِرِ وَلا واسطَ وَلا فَلْج مِنْهُمْ أحدٌ[5]، حَتَّى أتوا الْبَصْرَةَ فِي عامٍ خصيبٍ.

وتمثلتْ عائشةُ:

دَعِي بلادَ جموعِ الظُّلمِ إذ صَلَحَتْ فِيهَا المياهُ وسِيرِي سَيْرَ مَذْعُورِ
تَخَيَّرِي النَّبْتَ فارْعَيْ ثَمَّ ظاهِرةً وبَطْنَ وادٍ مِنَ الضّمارِ ممطُورِ

وقد جَمَعَ الزُّبَيْرُ بَنِيهِ حِينَ أَرَادَ الرَّحِيلَ، فَوَدَّعَ بَعْضَهُمْ وَأَخْرَجَ بَعْضَهُمْ، وَأَخْرَجَ ابْنَيْ أَسْمَاءَ جَمِيعًا، فَقَالَ: يَا فُلانُ أَقِمْ، يَا عَمْرُو أَقِمْ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، قَالَ: يَا عُرْوَةُ أَقِمْ، وَيَا مُنْذِرُ أَقِمْ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَيْحَكَ! أَسْتَصْحِبُ ابْنَيَّ وَأَسْتَمْتِعُ مِنْهُمَا، فَقَالَ: إِنْ خَرَجْتَ بِهِمْ جَمِيعًا فَاخْرُجْ، وَإِنْ خَلَّفْتَ مِنْهُمْ

---

[1] عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية الأموي: شهد الجمل مع عائشة، والتقي هو والأشتر، فقتله الأشتر.

[2] أخذت ناحية اليمين. وأوطاس بين مكة والطائف،

[3] مسافرون يتتبعون العشب والكلأ.

[4] سالكين الساحل.

[5] المنكدِرِ وَواسطَ وَفلْج في الطريق من مكة إلى البصرة.

أَحَدًا فَخَلِّفْهُمَا وَلا تُعَرِّضْ أَسْمَاءَ لِلثُّكْلِ مِنْ بَيْنِ نِسَائِكَ، فَبَكَى وَتَرَكَهُمَا، فَخَرَجُوا، حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى جِبَالِ أَوْطَاسَ تَيَامَنُوا وَسَلَكُوا طَرِيقًا نَحْوَ الْبَصْرَةِ، وَتَرَكُوا طَرِيقَهَا يَسَارًا، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنْهَا فَدَخَلُوهَا رَكِبُوا الْمُنْكَدِرَ.

وخَرَجَ الزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ ففَصَلا، ثُمَّ خرجَتْ عَائِشَةُ فتبِعها أمهاتُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى ذاتِ عِرْق[1]، فلم يُرَ يومٌ كَانَ أكثرَ باكياً عَلَى الإِسْلامِ أو باكياً لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْم، كَانَ يُسَمَّى يومَ النَّحِيب.

وأمرتْ عائشةُ عبدَ الرَّحْمَن بنَ عتَّاب، فكان يصلِّي بِالنَّاسِ، وَكَانَ عِدْلاً[2] بَيْنَهُمْ.

ولَمَّا تيامَنَ عسكرُها عن أوطاس أتَوا عَلَى مَلِيحِ بنِ عَوف السُّلَمي[3]، فسلَّمَ عَلَى الزُّبَيْر، وَقَالَ: يَا أَبَا عَبْد اللَّهِ، مَا هَذَا؟ قَالَ: عُدِيَ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقُتِلَ بلا تِرَةٍ[4] وَلا عُذْر، قَالَ: ومَنْ؟ قَالَ: الغوغاءُ من الأمصارِ ونِزاعِ[5] القبائل، وظاهَرَهُم الأعرابُ والعبيدُ، قَالَ: فتُريدون ماذا؟ قَالَ: نُنْهِض

---

[1] ذات عرق: مكان بالبادية قرب الطائف، سمي بذلك لعرق فيه والعرق هو الجبل، وهو من مواقيت الحج لأهل العراق ومن جاء عن طريقهم، ويبعد عن مكة مسافة ١١٠ كم شمالاً.

[2] عِدلاً: مَرضِياً مقبولاً من كل الأطراف.

[3] مُليح بن عوف السلميّ: صحابي له إدراك، وكان دليلًا في زمن عمر.

[4] ترة: جناية أو ذنب.

[5] نِزاع: غرباء ومطرودون.

الناسَ فيُدرَك بهذا الدمِ لئلَّا يُبْطَل، فإنَّ فِي إبطالِه توهينَ سلطانِ اللَّهِ بيننا أبداً، إذا لم يُفطَم الناسُ عن أمثالِها لم يَبْقَ إمامٌ إلا قَتَلَه هَذَا الضرب[1]، قَالَ: وَاللَّهِ إنَّ تركَ هَذَا لشديد، وَلا تدرون إِلَى أين ذَلِكَ يَسيرُ! فودَّعَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه، وافتَرَقا، ومَضَى الناسُ.

موقف عبد الله بن عمر

لَمَّا اجْتَمَعَ الرَّأْيُ مِنْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ بِمَكَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى السَّيْرِ إِلَى الْبَصْرَةِ وَالانْتِصَارِ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خَرَجَ الزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ حَتَّى لَقِيَا ابْنَ عُمَرَ وَدَعَوَاهُ إِلَى الْخُفُوفِ[2]، فَقَالَ: إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَإِنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى النُّهُوضِ أَنْهَضْ، وَإِنْ يَجْتَمِعُوا عَلَى الْقُعُودِ أَقْعُدْ، فَتَرَكَاهُ وَرَجَعَا[3].

خروج عليٍّ إلى الرَّبذة يريد البصرة

كانَ عَلِيٌّ فِي هَمٍّ مِنْ تَوَجُّهِ الْقَوْمِ، لا يَدْرِي إِلَى أَيْنَ يَأْخُذُونَ! وَكَانَ أَنْ يَأْتُوا الْبَصْرَةَ أَحَبَّ إِلَيْهِ، فَلَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّ الْقَوْمَ يُعَارِضُونَ طَرِيقَ الْبَصْرَةِ سُرَّ بِذَلِكَ.

---

[1] وهذا السبب الذي ذكره الزبير شرعي وعقلاني ومنطقي، غير أنه تجاوزٌ لحق أمير المؤمنين.

[2] الخفوف: النهوض والخروج معهم وإعانتهم على ما يريدون.

[3] وهذا ديدن ابن عمر، لزوم الجماعة الذي فيه البركة والوحدة.

وَقَالَ: الْكُوفَةُ فِيهَا رِجَالُ الْعَرَبِ وَبُيُوتَاتُهُمْ[1]، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عبَّاس: إنَّ الذي يَسُرُّكَ مِنْ ذلك ليسوؤني، إنَّ الْكُوفَةَ فُسْطَاطٌ فِيهِ أَعْلامٌ مِنْ أَعْلامِ الْعَرَبِ، وَلا يَحْمِلُهُمْ عِدَّةُ الْقَوْمِ، وَلا يَزَالُ فِيهِمْ مَنْ يَسْمُو إِلَى أَمْرٍ لا يَنَالُهُ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ شَغَّبَ عَلَيَّ الَّذِي قَدْ نَالَ حَتَّى يَفْثَأَهُ[2] فَيُفْسِدَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ. فَقَالَ عَلِيٌّ: إنَّ الأَمْرَ لَيُشْبِهُ مَا تَقُولُ، وَلَكِنَّ الأَثَرَةَ لأَهْلِ الطَّاعَةِ وَأَلْحَقَ بِأَحْسَنِهِمْ سَابِقَةً وَقُدْمَةً، فَإِنِ اسْتَوَوْا أَعْفَيْنَاهُمْ وَاجْتَبَرْنَاهُمْ، فَإِنْ أَقْنَعَهُمْ ذَلِكَ كَانَ خَيْرًا لَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يُقْنِعْهُمْ كَلَّفُونَا إِقَامَتَهُمْ وَكَانَ شَرًّا عَلَى مَنْ هُوَ شَرٌّ لَهُ. فَقَالَ ابنُ عباس: إنَّ ذلك لأمرٌ لا يُدْرَكُ إلا بِالْقُنُوعِ.

ولَمَّا جَاءَ عَلِيًّا الْخَبَرُ عَنْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَّرَ عَلَى الْمَدِينَةِ تَمَّامَ بْنَ الْعَبَّاسِ[3]، وَبَعَثَ إِلَى مَكَّةَ قُثَمَ بْنَ الْعَبَّاسِ، وَخَرَجَ وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَأْخُذَهُمْ

---

[1] يعني ذهابهم إلى الكوفة خير لوجود من يقنعهم بما فيه الخير.

[2] فَثَأَ غَضَبَه: كسَرَ حِدَّتَه.

[3] تمام بن العباس بن عبد المطلب: ابن عم النبي، وابن العباس بن عبد المطلب ولد في عهد رسول الله، وكان تمام واليًا لعلي بن أبي طالب على المدينة. وكان العبّاس يحمله ويقول:

تمّوا بتمامٍ فصاروا عشرةْ يا ربّ فاجعلهم كرامًا بررةْ

واجعل لهم ذِكرًا وأنمِ الشجرةْ

بِالطَّرِيقِ، وَأَرَادَ أَنْ يَعْتَرِضَهُمْ، فَاسْتَبَانَ لَهُ بِالرَّبَذَةِ[1] أَنْ قَدْ فَاتُوهُ، وَجَاءَهُ بِالْخَبَرِ عَطَاءُ بْنُ رِئَابٍ مَوْلَى الْحَارِثِ بْنِ حَزَنٍ.

وكان قد بَلَغَ عَلِيًّا الخبرُ - وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ - باجتماعِهم عَلَى الخروجِ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَبِالَّذِي اجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَلَؤُهم، طَلْحَةُ وَالزُّبَيْر وعائشةُ ومَنْ تَبِعَهم، وبَلَغَه قولُ عَائِشَةَ، وخَرَجَ عليٌّ يُبادِرُهم فِي تَعْبِيَتِه الَّتِي كَانَ تَعَبَّى بِهَا إِلَى الشام[2]، وخَرَجَ مَعَهُ مَنْ نَشِطَ مِنَ الكوفيين والبَصريين مُتَخَفِّفين في سبعمائة رجل، وهو يرجو أنْ يُدرِكهم فيحولَ بينَهم وبين الخُروج، فلقيه عَبْدُ اللَّهِ بنُ سَلام فأخذ بعِنانِ فرسِه، وَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لا تخرجْ منها، فوالله لَئِنْ خرجتَ منها لا ترجعْ إِلَيْهَا وَلا يعودُ إِلَيْهَا سلطانُ الْمُسْلِمِينَ أبداً[3]، فسَبُّوه، فَقَالَ: دَعُوا الرجلَ، فنِعْمَ الرجلُ مِنْ أَصْحَاب مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم! وسار حَتَّى انتهى إِلَى الرَّبْذَةِ، فبَلَغَه ممرُّهم، فأقام حينَ فاتُوه يأتمِرُ[4] بالرَّبَذة.

---

[1] الرَّبذة مدينة تاريخية أثرية، تقع في شرق المدينة المنورة وتبعد عنها قرابة ١٧٠ كم. وهي إحدى محطات القوافل على درب زبيدة الممتد من العراق إلى مكة المكرمة.

[2] الجيش الذي كان جهزه ليأتي به الشام.

[3] ابن سلام لا يقول هذا إلا عن خبر سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن هذا لا يكون إلا بوحي.

[4] يعني يشاور أصحابه.

وقالَ طارقُ بنُ شهاب[1]: خرجْنا مِنَ الْكُوفَةِ معتمِرِينَ حينَ أتانا قتلُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما انتهيْنا إِلَى الرَّبَذَة – وَذَلِكَ فِي وجْه الصُّبح – إذا الرفاقُ وإذا بعضُهم يحْدُو بعضاً فقلتُ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فقلتُ: ما له؟ قَالُوا: غلَبه طَلْحَةُ وَالزُّبَيْر، فخرَج يعترضُ لهما ليردَّهما، فبَلَغَه أنهما قَدْ فاتاهُ، فهو يريدُ أن يخرجَ فِي آثارِهما، فقلتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ! آتي عَلِيًّا فأقاتلُ مَعَهُ هَذَيْنِ الرجلينِ وأمَّ الْمُؤْمِنِينَ أو أخالفَه! إنَّ هَذَا لشديدٌ[2].

يقولُ طارقٌ: فخرجتُ فأتيتُه، فأقيمتِ الصَّلاةُ بغَلَس، فتقدَّم فصلَّى، فلمَّا انصرَفَ أتاه ابنُه الْحَسَنُ فجلَسَ فَقَالَ: قَدْ أَمَرْتُكَ فَعَصَيْتَنِي فَتُقْتَلُ غَدًا بِمَضْيَعَةٍ لَا نَاصِرَ لَكَ. فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: إِنَّكَ لَا تَزَالُ تَخِنُّ[3] خَنِينَ الْجَارِيَةِ، وَمَا الَّذِي أَمَرْتَنِي فَعَصَيْتُكَ؟ قَالَ: أَمَرْتُكَ يَوْمَ أُحِيطَ بِعُثْمَانَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَدِينَةِ فَيُقْتَلُ وَلَسْتَ بِهَا، ثُمَّ أَمَرْتُكَ يَوْمَ قُتِلَ أَلَّا تُبَايِعَ حَتَّى تَأْتِيَكَ وُفُودُ الْعَرَبِ وَبَيْعَةُ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَقْطَعُوا أَمْرًا دُونَكَ، فَأَبَيْتَ عَلَيَّ، وَأَمَرْتُكَ حِينَ خَرَجَ هَذَانِ الرَّجُلَانِ أَنْ تَجْلِسَ فِي بَيْتِكَ حَتَّى يَصْطَلِحُوا فَإِنْ كَانَ الْفَسَادُ كَانَ عَلَى يَدِ غَيْرِكَ، فَعَصَيْتَنِي فِي ذَلِكَ كُلِّهِ.

---

[1] طارق بن شهاب الأحمسي البجلي الكوفي: صحابي جليل غزا في خلافة أبي بكر غير مرة. توفي سنة ٨٢هـ.

[2] وهذا دليل على أن الناس تحيروا واختلطت عليهم الأمور.

[3] خنَّ الشَّخصُ: خرج صوته من أنفه.

فَقَالَ أَيْ بُنَيَّ! أَمَّا قَوْلُكَ: لَوْ خَرَجْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ حِينَ أُحِيطَ بِعُثْمَانَ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ أُحِيطَ بِنَا كَمَا أُحِيطَ بِهِ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: لَا تُبَايِعْ حَتَّى يُبَايِعَ أَهْلُ الْأَمْصَارِ، فَإِنَّ الْأَمْرَ أَمْرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَكَرِهْنَا أَنْ يَضِيعَ هَذَا الْأَمْرُ، وأَمَّا قولُك حين خَرَجَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، فإنَّ ذَلِكَ كَانَ وَهناً عَلَى أهلِ الإسلام، ووالله مَازلتُ مقهوراً مُذْ وَليتُ، منقوصاً لا أَصلُ إِلَى شَيْءٍ مما ينبغي، وأما قولُك: اجلسْ فِي بيتِك، فكيف لي بِمَا قَدْ لَزِمَنِي! أَوَمَنْ تُرِيدُنِي؟ أَتُرِيدُنِي أَنْ أَكُونَ كَالضَّبُعِ الَّتِي يُحَاطُ بِهَا ويقال: دَبابِ دَبابِ[1]! لَيْسَتْ هَاهُنَا حَتَّى يُحَلَّ عُرْقُوبَاهَا حَتَّى تَخْرُجَ، وَإِذَا لَمْ أَنْظُرْ فِيمَا يَلْزَمُنِي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ وَيَعْنِينِي فَمَنْ يَنْظُرُ فِيهِ؟ فَكُفَّ عَنْكَ يَا بُنَيَّ[2].

الموقف في البصرة

وَمَضَى النَّاسُ حَتَّى إِذَا عَاجُوا عَنِ الطَّرِيقِ وكانوا بفِناءِ البَصرةِ، لَقِيَهم عميرُ ابنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ، فَقَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْشُدُكِ بِاللَّهِ أَنْ تَقْدَمِي الْيَوْمَ عَلَى قَوْمٍ تُرَاسِلِي مِنْهُمْ أَحَدًا فَيَكْفِيكَهُمْ! فَقَالَتْ: جِئْتَنِي بِالرَّأْيِ، امْرؤٌ صالحٌ،

---

[1] يقال للضبع: دَبابِ، أي دُبِّي.

[2] هذا من الأخبار التي أرتاب في صحتها.

قال: فعَجِّلي ابنَ عامرٍ[1] فليدخلْ، فَإِنَّ لَهُ صَنَائِعَ[2] فَلْيَذْهَبْ إِلَى صَنَائِعِهِ فَلْيَلْقَوُا النَّاسَ حَتَّى تَقْدَمِي وَيَسْمَعُوا مَا جِئْتُمْ فِيهِ، فَأَرْسَلَتْهُ فَانْدَسَّ إِلَى الْبَصْرَةِ، فَأَتَى الْقَوْمَ.

وَكَتَبَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى رِجَالٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَكَتَبَتْ إِلَى الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ[3] وَصَبْرَةَ بْنِ شَيْمَانَ[4] وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْوُجُوهِ، وَمَضَتْ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بِالْحُفَيْرِ[5] انْتَظَرَتِ الْجَوَابَ بِالْخَبَرِ، وَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ دَعَا عُثْمَانُ بْنُ

---

[1] ابن كريز؟

[2] الصنائع: جمع صنيعة، هو صَنيعة فلان: ثمرة تربيته وربيب نعمته.

[3] الأحنف بن قيس بن معاوية بن الحصين التميمي البصري (٢٠ ق هـ – ٧٢ هـ): سيد تميم البصرة كلها، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يضرب له المثل في الحلم، أدرك النبي ولم يره.

[4] صبرة بن شيمان الأزدي (٢٠ ق هـ – ٤١ هـ): صحابي من الأشراف، رأس الأزد في أيامه. شهد فتوحات العراق، وكان رأس شنوءة في الفتوح زمن عمر بن الخطاب، نزل هو وقومه البصرة، وكان لهم جامع،وهو الجامع الذي نزلته السيدة عائشة يوم الجمل.

[5] الحفير: موضع على مدخل البصرة.

حُنَيْفٍ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ[1] – وَكَانَ رَجُلَ عَامَّةٍ – وَأَلَزَّهُ[2] بِأَبِي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ[3] – وَكَانَ رَجُلَ خَاصَّةٍ – فَقَالَ: انْطَلِقَا إِلَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ فَاعْلَمَا عِلمَها وعِلْمَ مَنْ مَعَهَا، فَخَرَجَا فَانْتَهَيَا إِلَيْهَا وَإِلَى النَّاسِ وَهُمْ بِالْحَفِيرِ، فَاسْتَأْذَنَا فَأَذِنَتْ لَهُمَا، فَسَلَّمَا وَقَالا: إِنَّ أَمِيرَنَا بَعَثَنَا إِلَيْكِ نَسْأَلُكِ عَنْ مَسِيرِكِ، فَهَلْ أَنْتِ مُخْبِرَتُنَا؟ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا مِثْلِي يَسِيرُ بِالأَمْرِ الْمَكْتُومِ وَلا يُغَطِّي لِبَنِيهِ الْخَبَرَ، إِنَّ الْغَوْغَاءَ مِنْ أَهْلِ الأَمْصَارِ ونُزَّاعَ الْقَبَائِلِ غَزَوْا حَرَمَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَحْدَثُوا فِيهِ الأَحْدَاثَ، وَآوَوْا فِيهِ الْمُحْدِثِينَ، وَاسْتَوْجَبُوا فِيهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَلَعْنَةَ رَسُولِهِ، مَعَ مَا نَالُوا مِنْ قَتْلِ إِمَامِ الْمُسْلِمِينَ بِلا تِرَةٍ وَلا عُذْرٍ، فَاسْتَحَلُّوا الدَّمَ الْحَرَامَ فَسَفَكُوهُ، وَانْتَهَبُوا الْمَالَ الْحَرَامَ، وَأَحَلُّوا الْبَلَدَ الْحَرَامَ، وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ، وَمَزَّقُوا الأَعْرَاضَ وَالْجُلُودَ، وَأَقَامُوا فِي دَارِ قَوْمٍ كَانُوا كَارِهِينَ

---

[1] عمران بن حصين: صحابي أسلم هو وأبوه وأبو هريرة في وقت واحد سنة ٧ هـ، في عام خيبر. لزم الحياد في الفتنة، وكانت حياته صورة من صور الصدق في العبادة والزهد والورع. توفي سنة ٥٢ هجرية بالبصرة.

[2] ضمه إليه.

[3] أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي الكناني (١٦ ق.هـ/٦٩ هـ): من ساداتِ التابعين وأعيانِهم وفقهائهم وشعرائهم ومحدِّثيهم ومن الدهاة حاضري الجواب، وهو كذلك عالم نحوي وأول واضع لعلم النحو في اللغة العربية وشكّل أحرف المصحف، بأمر من الإمام علي بن أبي طالب على ما ذكر. وِلد قبل بعثة النبي وآمن به لكنه لم يره، وصَحِب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي ولاه إمارة البصرة في خلافته، وشهد معه وقعة صفين والجمل ومحاربة الخوارج.

لِمُقَامِهِمْ ضَارِّينَ مُضِرِّينَ، غَيْرَ نَافِعِينَ وَلا مُتَّقِينَ، لا يَقْدِرُونَ عَلَى امْتِنَاعٍ وَلا يأمَنون، فَخَرَجْتُ فِي الْمُسْلِمِينَ أُعْلِمُهُمْ مَا أَتَى هَؤُلاءِ الْقَوْمُ وَمَا فِيهِ النَّاسُ وَرَاءَنَا، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَأْتُوا فِي إِصْلاحِ هَذَا وقَرَأْتُ: «لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ}. نَنْهَضُ فِي الإِصْلاحِ مِمَّنْ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ وأَمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلَّم، الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ وَالذَّكَرَ وَالأُنْثَى، فَهَذَا شَأْنُنَا إِلَى مَعْرُوفٍ نَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَنَحُضُّكُمْ عَلَيْهِ، وَمُنْكَرٍ نَنْهَاكُمْ عَنْهُ، وَنَحُثُّكُمْ عَلَى تَغْيِيرِهِ.

فَخَرَجَ أَبُو الأَسْوَدِ وَعِمْرَانُ مِنْ عِنْدِهَا فَأَتَيَا طَلْحَةَ فَقَالا: مَا أَقْدَمَكَ؟ قَالَ: الطَّلَبُ بدمِ عثمانَ، قَالا: أَلَمْ تُبَايِعْ عَلِيًّا؟ قَالَ: بَلَى، وَاللُّجُّ[1] عَلَى عُنُقِي، وَمَا أَسْتَقِيلُ[2] عَلِيًّا إِنْ هُوَ لَمْ يَحُلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَتَلَةِ عُثْمَانَ.

ثُمَّ أَتَيَا الزُّبَيْرَ فَقَالا: مَا أَقْدَمَكَ؟ قَالَ: الطَّلَبُ بدمِ عثمانَ، قَالا: أَلَمْ تُبَايِعْ عَلِيًّا؟ قَالَ: بَلَى، وَاللُّجُّ عَلَى عُنُقِي، وَمَا أَسْتَقِيلُ عَلِيًّا إِنْ هُوَ لَمْ يَحُلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَتَلَةِ عُثْمَانَ.

---

[1] اللج: السيف.

[2] ما أستقيله: ما أُعفيه من البيعة.

فَرَجَعَا إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فَوَدَّعَاهَا، فَوَدَّعَتْ عِمْرَانَ، وَقَالَتْ: يَا أَبَا الأَسْوَدِ إِيَّاكَ أَنْ يَقُودَكَ الْهَوَى إِلَى النَّارِ[1]، «كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ» فَسَرَّحَتْهُمَا، وَنَادَى مُنَادِيهَا بِالرَّحِيلِ، وَمَضَى الرَّجُلانِ حَتَّى دَخَلا عَلَى عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ، فَبَدَرَ أبو الأسْودِ عمرانَ فقال:

يابْنَ حُنَيْفٍ قَدْ أُتِيتَ فَانْفِرِ ... وَطَاعِنِ الْقَوْمَ وَجَالِدْ وَاصْبِرِ

وَابْرُزْ لَهُمْ مُسْتَلْئِمًا[2] وَشَمِّرِ

فقال عثمانُ[3]: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ! دَارَتْ رَحَا الإِسْلامُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، فَانْظُرُوا بِأَيِّ زَيَفَانَ تَزِيفُ[4]! فَقَالَ عِمْرَانُ: إِي وَاللَّهِ لَتَعْرِكَنَّكُمْ عَرْكًا طَوِيلا ثُمَّ لا يُسَاوِي مَا بَقِيَ مِنْكُمْ كَثِيرَ شَيْءٍ.

فقَالَ عثمانُ: فَأَشِرْ عَلَيَّ يَا عِمْرَانُ، قَالَ: إِنِّي قَاعِدٌ فَاقْعُدْ، فَقَالَ عُثْمَانُ: بَلْ أَمْنَعُهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ، قَالَ عِمْرَانُ: بَلْ يَحْكُمُ اللَّهُ مَا يُرِيدُ، فَانْصَرَفَ إِلَى بَيْتِهِ.

---

[1] ما الذي رأته عائشة في أبي الأسود حتى تقول له هذا؟

[2] مستلئم: لابس اللأمة، وهي خوذة توضع على الرأس في الحرب.

[3] ابن حنيف.

[4] تزيف: تسرع وتطحن وتميل.

وَقَامَ عُثْمَانُ فِي أَمْرِهِ، فَأَتَاهُ هِشَامُ بْنُ عَامِرٍ[1] فَقَالَ: يَا عُثْمَانُ، إِنَّ هَذَا الأَمْرَ الَّذِي تَرُومُ يُسْلِمُ إِلَى شَرٍّ مِمَّا تَكْرَهُ، إِنَّ هَذَا فَتْقٌ لا يُرْتَقُ، وَصَدْعٌ لا يُجْبَرُ، فَسَامِحْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ عَلِيٍّ ولاتحادّهم، فَأَبَى وَنَادَى عُثْمَانُ فِي النَّاسِ وَأَمَرَهُمْ بِالتَّهَيُّؤِ، وَلَبِسُوا السِّلاحَ، وَاجْتَمَعُوا إِلَى الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ.

وَأَقْبَلَ عُثْمَانُ عَلَى الْكَيْدِ[2] فَكَادَ النَّاسَ لِيَنْظُرَ مَا عِنْدَهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِالتَّهَيُّؤِ، وَأَمَرَ رَجُلاً وَدَسَّهُ إِلَى الناسِ خَدِعاً كوفِيّاً قَيْسِيّاً[3]، فقام فقالَ: يا أيُّها الناسُ، أنا قيسُ بنُ الْعَقْدِيَّةِ الْحُمَيْسِيُّ[4]، إِنَّ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ جَاءُوكُمْ إِنْ كَانُوا جَاءُوكُمْ خَائِفِينَ فَقَدْ جَاءُوا مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يَأْمَنُ فِيهِ الطَّيْرُ، وَإِنْ كَانُوا جَاءُوا يَطْلُبُونَ بِدَمِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَمَا نَحْنُ بِقَتَلَةِ عُثْمَانَ، أَطِيعُونِي فِي هَؤُلاءِ الْقَوْمِ فَرُدُّوهُمْ مِنْ حَيْثُ جَاءُوا. فَقَامَ الأَسْوَدُ بن سريع السَّعْدي[5]، فقال: أَوَزَعَموا أَنَّا قَتَلَةُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! فَإِنَّمَا فَزِعُوا إِلَيْنَا يَسْتَعِينُونَ بِنَا

---

[1] هِشَام بن عَامر الْأَنْصَارِيّ: ابْن عَم أنس بن مَالك، لَهُ صُحْبَة، نزل الْبَصْرَة.

[2] الكيد: الحيلة والمكر والاختبار والخديعة.

[3] يعني أنه من قيسية الكوفة. وبنو عبد القيس في العراق سكنوا الكوفة والبصرة.

[4] لم أعثر له على ترجمة.

[5] الأسود بن سريع التميمي السعدي: صحابي جليل وفارس وشاعر كان يعيش في البصرة، اشترك مع الرسول في أربع من غزواته. وهو أول من قصَّ في مسجد البصرة حيثُ كان للقصاصين مكانة خاصة في عصر صدر الإسلام.

عَلَى قَتَلَةِ عُثْمَانَ مِنَّا وَمِنْ غَيْرِنَا، فَإِنْ كَانَ الْقَوْمُ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ كَمَا زَعَمْتَ، فَمَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنْ إِخْرَاجِهِمُ الرِّجَال أَوِ الْبُلْدَان! فَحَصَبَهُ النَّاسُ.

فَعَرَفَ عُثْمَانُ أَنَّ لَهُمْ بِالْبَصْرَةِ نَاصِرًا مِمَّنْ يَقُومُ مَعَهُمْ، فَكَسَرَهُ ذَلِكَ.

وَأَقْبَلَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – فِيمَنْ مَعَهَا، حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى الْمِرْبَدِ[1] وَدَخَلُوا مِنْ أَعْلاهُ أَمْسَكُوا وَوَقَفُوا، حَتَّى خَرَجَ عُثْمَانُ فِيمَنْ مَعَهُ، وَخَرَجَ إِلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهَا وَيَكُونَ مَعَهَا، فَاجْتَمَعُوا بِالْمِرْبَدِ وَجَعَلُوا يَثُوبُونَ حَتَّى غَصَّ بِالنَّاسِ.

فَتَكَلَّمَ طَلْحَةُ وَهُوَ فِي مَيْمَنَةِ الْمِرْبَدِ وَمَعَهُ الزُّبَيْرُ وَعُثْمَانُ فِي مَيْسَرَتِهِ، فَأَنْصَتُوا لَهُ الناسَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَذَكَرَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفَضْلَهُ وَالْبَلَدَ[2] وَمَا اسْتُحِلَّ مِنْهُ، وَعَظَّمَ مَا أُتِيَ إِلَيْهِ، وَدَعَا إِلَى الطَّلَبِ بِدَمِهِ، وَقَالَ: إِنَّ فِي ذَلِكَ إِعْزَازَ دِينِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَسُلْطَانِهِ، وَأَمَّا الطَّلَبُ بِدَمِ الْخَلِيفَةِ الْمَظْلُومِ

---

[1] المِرْبَد أو مربد البصرة أو سوق المربد: سوق من الأسواق القديمة في البصرة. كان يبعد عن البصرة ثلاثة أميال. كانت تقام فبه مبارزات في الشعر بين الفرزدق وجرير وكان في الجاهلية – حتى عصر الخلفاء – سوقاً للإبل وكانت تحبس فيه الإبل ولذلك سمي بالمربد.

[2] المدينة المنورة.

فَإِنَّهُ حَدٌّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ[1]، وَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ أَصَبْتُمْ وَعَادَ أَمْرُكُمْ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ تَرَكْتُمْ لَمْ يَقُمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ، وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ نِظَامٌ.

فَتَكَلَّمَ الزُّبَيْرُ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَقَالَ مَنْ فِي مَيْمَنَةِ الْمِرْبَدِ: صَدَقَا وَبَرَّا، وَقَالا الْحَقَّ، وَأَمَرَا بِالْحَقِّ. وَقَالَ مَنْ فِي مَيْسَرَتِهِ: فَجَرَا وَغَدَرَا، وَقَالا الْبَاطِلَ، وَأَمَرَا بِهِ، قَدْ بَايَعَا ثُمَّ جَاءَا يَقُولانِ مَا يَقُولانِ! وَتَحَاثَى النَّاسُ[2] وَتَحَاصَبُوا وَأَرْهَجُوا[3].

فَتَكَلَّمَتْ عَائِشَةُ – وَكَانَتْ جَهْوَرِيَّةً يَعْلُو صَوْتُهَا كَثْرَةً كَأَنَّهُ صَوْتُ امْرَأَةٍ جَلِيلَةٍ[4] – فَحَمِدَتِ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ: كَانَ النَّاسُ يَتَجَنَّوْنَ عَلَى عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَيَزْرُونَ عَلَى عُمَّالِهِ، وَيَأْتُونَنَا بِالْمَدِينَةِ فَيَسْتَشِيرُونَنَا فِيمَا يُخْبِرُونَنَا عَنْهُمْ، وَيَرَوْنَ حسنًا مِنْ كَلامِنَا فِي صَلاحِ بَيْنِهِمْ، فَنَنْظُرُ فِي ذَلِكَ فَنَجِدُهُ بَرِيًّا تَقِيًّا وَفِيًّا، وَنَجِدُهُمْ فَجَرَةً كَذَبَةً يُحَاوِلُونَ غَيْرَ مَا يُظْهِرُونَ، فَلَمَّا قَوَوْا عَلَى الْمُكَاثَرَةِ كَاثَرُوهُ فَاقْتَحَمُوا عَلَيْهِ دَارَهُ، وَاسْتَحَلُّوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَالْمَالَ الْحَرَامَ، وَالْبَلَدَ الْحَرَامَ، بِلا تِرَةٍ وَلا عُذْرٍ، أَلا إِنَّ مِمَّا يَنْبَغِي لا يَنْبَغِي لَكُمْ

---

[1] قيام الزبير وطلحة وعائشة بالمطالبة بدم عثمان اجتهاد من قبيل "الحِسبة" التي يقوم بها كل مسلم. والله حسبهم وهو يتولى السرائر.

[2] تراموا بالحجارة.

[3] أرهَجَ بين القومِ: أثَارَ الفِتْنَةَ.

[4] بل هي جليلة.

غَيْرُهُ، أَخْذُ قَتَلَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَإِقَامَةُ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ}.

فَافْتَرَقَ أَصْحَابُ عُثْمَانَ بنِ حُنَيفٍ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ قَالَتْ صَدَقَتْ وَبَرَّتْ، وَجَاءَتْ وَاللَّهِ بِالْمَعْرُوفِ، وَقَالَ الآخَرُونَ: كَذَبْتُمْ وَاللَّهِ مَا نَعْرِفُ مَا تَقُولُونَ، فَتَحَاثَوْا وَتَحَاصَبُوا وَأَرْهَجُوا، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ عَائِشَةُ انْحَدَرَتْ وَانْحَدَرَ أَهْلُ الْمَيْمَنَةِ مُفَارِقِينَ لِعُثْمَانَ حَتَّى وَقَفُوا فِي الْمِرْبَدِ فِي مَوْضِعِ الدَّبَّاغِينَ، وَبَقِيَ أَصْحَابُ عُثْمَانَ عَلَى حَالِهِمْ يَتَدَافَعُونَ حَتَّى تَحَاجَزُوا، وَمَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى عائِشَةَ، وَبَقِيَ بَعْضُهُمْ مَعَ عُثْمَانَ عَلَى فَمِ السِّكة.

وأتى عثمانُ بنُ حُنَيْفٍ فِيمَنْ مَعَهُ، حَتَّى إِذَا كَانُوا عَلَى فَمِ السِّكَّةِ، سِكَّةِ الْمَسْجِدِ عَنْ يَمِينِ الدَّبَّاغِينَ اسْتَقْبَلُوا النَّاسَ فَأَخَذُوا عَلَيْهِمْ بِفَمِهَا[1].

وَأَقْبَلَ جَارِيَةُ بْنُ قُدَامَةَ السَّعْدِيُّ[2]، فَقَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهِ لَقَتْلُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ أَهْوَنُ مِنْ خُرُوجِكِ مِنْ بَيْتِكِ عَلَى هَذَا الْجَمَلِ الْمَلْعُونِ، عُرْضَةً لِلسِّلاحِ! إِنَّهُ قَدْ كَانَ لَكِ مِنَ اللَّهِ سِتْرٌ وَحُرْمَةٌ، فَهَتَكْتِ سِتْرَكِ وَأَبَحْتِ

---

[1] يعني منعوهم من المرور.

[2] الصحابي جارية بن قدامة التميمي السعدي: من البصريين، روى عنه أهل المدينة وأهل البصرة. وكان من أصحاب علي بن أبي طالب، وشهد معه حروبه، وهو الذي حصر عبد الله بن الحضرمي بالبصرة في دار ابن سنبل وحرقها عليه.

حُرْمَتَكِ، إِنَّهُ مَنْ رَأَى قتالَك فإنَّه يرى قتلَكِ، وإِنْ كُنْتِ أَتَيْتِنَا طَائِعَةً فَارْجِعِي إِلَى مَنْزِلِكِ، وَإِنْ كُنْتِ أَتَيْتِنَا مُسْتَكْرَهَةً فَاسْتَعِينِي بِالنَّاسِ[1].

فَخَرَجَ غُلامٌ شَابٌّ مِنْ بَنِي سَعْدٍ[2] إِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَقَالَ: أَمَّا أَنْتَ يَا زُبَيْرُ فَحَوَارِيُّ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَمَّا أَنْتَ يَا طَلْحَةُ فَوَقَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِيَدِكَ، وَأَرَى أُمَّكُمَا مَعَكُمَا[3]، فَهَلْ جِئْتُمَا بِنِسَائِكُمَا؟ قَالا: لا، قَالَ: فَمَا أَنَا مِنْكُمَا فِي شَيْءٍ، وَاعْتَزَلَ.

وَقَالَ السَّعْدِيُّ[4] فِي ذَلِكَ:

صُنْتُمْ حَلائِلَكُمْ وَقُدْتُمْ أُمَّكُمْ هَذَا لَعَمْرُكَ قِلَّةُ الإِنْصَافِ

---

[1] وهذا الخبر في عيني لا يصح، فكيف لكائن من كان أن يتركه مَن حول عائشة يخاطبها هذا الخطاب ويلعن جملها. وانتبهوا إلى ما قلته في الهامش التالي. ثم انظروا في الخبر بعده وفيه: (وَغَدَا حُكَيمُ بْنُ جَبَلَةَ وَهُوَ يُبَرْبِرُ وَفِي يَدِهِ الرُّمْحُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ: مَنْ هَذَا الَّذِي تَسُبُّ وَتَقُولُ لَهُ مَا أَسْمَعُ؟ قال: عائشةُ، قال: يابنَ الْخَبِيثَةِ، أَلِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ تَقُولُ هَذَا! فَوَضَعَ حُكَيمٌ السِّنَانَ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ مَرَّ بِامْرَأَةٍ وَهُوَ يَسُبُّهَا – يَعْنِي عَائِشَةَ – فَقَالَتْ: مَنْ هَذَا الَّذِي أَجْرَأَكَ إِلَى هَذَا؟ قَالَ: عَائِشَةُ، قَالَتْ: يابنَ الْخَبِيثَةِ، أَلِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ تَقُولُ هَذَا! فَطَعَنَهَا).

[2] لاحظوا يا رعاكم الله؛ غُلامٌ شَابٌّ مِنْ بَنِي سَعْدٍ، هكذا بصيغة التجهيل، ليضعوا على لسانه ما شاءوا.

[3] يعني عائشة.

[4] الشاب السابق ذكره.

أُمِرَتْ بِجَرِّ ذُيُولِهَا فِي بَيْتِهَا فَهَوَتْ تَشُقُّ الْبِيدَ بِالإِيجَافِ
غَرَضًا يُقَاتِلُ دُونَهَا أَبْنَاؤُهَا بِالنَّبْلِ وَالْخَطِّيِّ وَالأَسْيَافِ
هَتَكَتْ بِطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ سُتُورَهَا هَذَا الْمُخَبِّرُ عَنْهُمُ وَالْكَافِي[1]

وَأَقْبَلَ غُلامٌ مِنْ جُهَيْنَةَ[2] عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ – وَكَانَ مُحَمَّدٌ رَجُلاً عَابِدًا – فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ! فَقَالَ: نَعَمْ، دَمُ عُثْمَانَ ثَلاثَةُ أَثْلاثٍ، ثُلُثٌ عَلَى صَاحِبَةِ الْهَوْدَجِ – يَعْنِي عَائِشَةَ – وَثُلُثٌ عَلَى صَاحِبِ الْجَمَلِ الأَحْمَرِ – يَعْنِي طَلْحَةَ – وَثُلُثٌ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَضَحِكَ الْغُلامُ وَقَالَ: أَلا أُرَانِي عَلَى ضَلالٍ! وَلَحِقَ بِعَلِيٍّ[3]، وَقَالَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا:

سَأَلْتُ ابْنَ طَلْحَةَ عَنْ هَالِكٍ بِجَوْفِ الْمَدِينَةِ لَمْ يُقْبَرِ
فَقَالَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ هُمُ أَمَاتُوا ابْنَ عَفَّانَ وَاسْتَعْبِرِ
فَثُلْثٌ عَلَى تِلْكَ فِي خِدْرِهَا وَثُلْثٌ عَلَى رَاكِبِ الأَحْمَرِ
وَثُلْثٌ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ وَنَحْنُ بِدَوِّيَّةٍ قَرْقَرِ
فَقُلْتُ صَدَقْتَ عَلَى الأَوَّلَيْنِ وَأَخْطَأْتَ فِي الثَّالِثِ الأَزْهَرِ[4]

---

[1] أرى أن هذا الشعر مصنوع موضوع، وضعه القوم فيما بعد هو والقصة التي ورد فيها.

[2] لاحظوا يا رعاكم الله؛ غُلامٌ مِنْ جُهَيْنَةَ، هكذا بصيغة التجهيل، ليضعوا على لسانه ما شاءوا.

[3] لاحظوا أن كل خبر تظهر عليه علامات الوضع والصنعة يُتبعونه بأبيات تلخص الخبر. فانتبهوا.

[4] علامات الصنعة والوضع على هذا الشعر والخبر الذي قبله، وهي:

قتال عائشة وعثمان بن حُنيف

فَخَرَجَ أَبُو الأَسْوَدِ وَعِمْرَانُ وَأَقْبَلَ حُكَيمُ بْنُ جَبَلَةَ[1]، وَقَدْ خَرَجَ وَهُوَ عَلَى الْخَيْلِ، فَأَنْشَبَ الْقِتَالَ، وَأَشْرَعَ أَصْحَابُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رِمَاحَهُمْ وَأَمْسَكُوا لِيُمْسِكُوا، فَلَمْ يَنْتَهِ وَلَمْ يثْنِ، فَقَاتَلَهُمْ وَأَصْحَابُ عَائِشَةَ كَافُّونَ، إِلا مَا دَافَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَحكيمٌ يُذَمِّرُ خَيْلَهُ وَيَرْكَبُهُمْ بِهَا، وَيَقُولُ: إِنَّهَا قُرَيْشٌ لَيُرْدِينَّهَا جُبْنُهَا وَالطَّيْشُ، وَاقْتَتَلُوا عَلَى فَمِ السِّكَّةِ، وأشرف أَهْلُ الدُّورِ مِمَّنْ كَانَ لَهُ فِي وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ هَوًى، فَرَمَوْا بَاقِيَ الآخَرِينَ بِالْحِجَارَةِ.

وَأَمَرَتْ عَائِشَةُ أَصْحَابَهَا فَتَيَامَنُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَقْبُرَةِ بَنِي مَازِنٍ، فَوَقَفُوا بِهَا مَلِيًّا، وَثَارَ إِلَيْهِمُ النَّاسُ، فَحَجَزَ اللَّيْلُ بَيْنَهُمْ، فَرَجَعَ عُثْمَانُ إِلَى الْقَصْرِ، وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى قَبَائِلِهِمْ، وَجَاءَ أَبُو الْجَرْبَاءِ، أَحَدُ بَنِي عُثْمَانَ بْنِ مَالِكِ بْنِ عَمْرِو بْنِ

- تنكير وتجهيل الغلام من جهينة.
- محمد بن طلحة يحمِّل أباه ويحمِّل عائشة المسؤولية.
- قوله في البيت الأول: (هَالِكٍ بِجَوْفِ الْمَدِينَةِ لَمْ يُقْبَرِ) وعثمان مر على قبره ودفنه أيام كثيرة بل شهور.
- قوله في البيت الأخير: (وَأَخْطَأْتَ فِي الثَّالِثِ الأَزْهَرِ) فاتضح أن صانع الخبر والأبيات سَبَئي صاحب فتنة دسها وتلقاها الإخباريون ونشروها دون أي تمحيص.

[1] حُكَيْم بن جَبَلة العَبْدي: أحد المنتفضين ضد عائشة حين جاءت إلى البصرة، وكان من جملة الثائرين على عثمان وقتلته. قتل في الأحداث التي سبقت موقعة الجمل.

تَمِيمٍ إِلَى عَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَأَشَارَ عَلَيْهِمْ بِأَمْثَلَ مِنْ مَكَانِهِمْ فَاسْتَنْصَحُوهُ وَتَابَعُوا رَأْيَهُ، فَسَارُوا مِنْ مَقْبَرَةِ بَنِي مَازِنٍ فَأَخَذُوا عَلَى مُسَنَّاةِ الْبَصْرَةِ[1] مِنْ قِبَلِ الْجَبَّانَةِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الزَّابُوقَةِ[2]، ثُمَّ أَتَوْا مَقْبَرَةَ بَنِي حِصْنٍ وَهِيَ مُتَنَحِّيَةٌ إِلَى دَارِ الرِّزْقِ[3]، فَبَاتُوا يَتَأَهَّبُونَ، وَبَاتَ النَّاسُ يَسِيرُونَ إِلَيْهِمْ، وَأَصْبَحُوا وهم على رجلٍ في ساحةِ دارِ الرِّزْق، وَأَصْبَحَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ فَغَادَاهُمْ، وَغَدَا حُكَيمُ بْنُ جَبَلَةَ وَهُوَ يُبَرْبِرُ[4] وَفِي يَدِهِ الرُّمْحُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ: مَنْ هَذَا الَّذِي تَسُبُّ وَتَقُولُ لَهُ مَا أَسْمَعُ؟ قال: عائشةُ، قال: يابنَ الْخَبِيثَةِ، أَلِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ تَقُولُ هَذَا! فَوَضَعَ حُكَيمٌ السِّنَانَ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ مَرَّ بِامْرَأَةٍ وَهُوَ يَسُبُّهَا – يَعْنِي عَائِشَةَ – فَقَالَتْ: مَنْ هَذَا الَّذِي أَلْجَأَكَ إِلَى هَذَا؟ قَالَ: عَائِشَةُ، قَالَتْ: يابنَ الْخَبِيثَةِ، أَلِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ تَقُولُ هَذَا! فَطَعَنَهَا بَيْنَ ثَدْيَيْهَا فَقَتَلَهَا، ثُمَّ سَارَ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا وَاقَفُوهُمْ، فَاقْتَتَلُوا بِدَارِ الرِّزْقِ قِتَالاً شَدِيدًا مِنْ حِينِ بَزَغَتِ الشَّمْسُ إِلَى أَنْ زَالَ النَّهَارُ، وَقَدْ كَثُرَ الْقَتْلَى فِي أَصْحَابِ ابْنِ حُنَيْفٍ وَفَشَتِ الْجِرَاحَةُ فِي الْفَرِيقَيْنِ، وَمُنَادِي عَائِشَةَ يُنَاشِدُهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْكَفِّ فَيَأْبَوْنَ، حَتَّى إِذَا مَسَّهُمُ الشَّرُّ وَعَضَّهُمْ نَادَوْا أَصْحَابَ عَائِشَةَ إِلَى الصُّلْحِ

---

[1] المسناة: سد الماء.

[2] لزَّابوقَةِ: مَوضِع قَريب مِن البَصرَةِ كانت فيه وَقعةُ الجَملِ.

[3] دار الرزق: السوق، أو الساحة التي تخزن فيها الحبوب.

[4] بربر الشَّخصُ: أكثر الكلامَ في جَلَبة وصياح وغضب ونفور.

وَالْمَتَابِ، فَأَجَابُوهُمْ وَتَوَاعَدُوا، وَكَتَبُوا بَيْنَهُمْ كِتَابًا عَلَى أَنْ يَبْعَثُوا رَسُولاً إِلَى الْمَدِينَةِ، وَحَتَّى يَرْجِعَ الرَّسُولُ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَإِنْ كَانَا أُكْرِهَا[1] خَرَجَ عُثْمَانُ عَنْهُمَا وَأَخْلَى لَهُمَا الْبَصْرَةَ، وَإِنْ لَمْ يَكُونَا أُكْرِهَا خَرَجَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ:

كتاب الصلح بين الفريقين

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَعُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ.

إِنَّ عُثْمَانَ يُقِيمُ حَيْثُ أَدْرَكَهُ الصُّلْحُ عَلَى مَا فِي يَدِهِ، وَإِنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ يُقِيمَانِ حَيْثُ أَدْرَكَهُمَا الصُّلْحُ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمَا، حَتَّى يَرْجِعَ أَمِينُ الْفَرِيقَيْنِ وَرَسُولُهُمْ كَعْبُ بْنُ سُورٍ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَلا يُضَارُّ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الآخَرَ فِي مَسْجِدٍ وَلا سُوقٍ وَلا طَرِيقٍ وَلا فُرْضَةٍ[2]، بَيْنَهُمْ عَيْبَة مَفْتُوحَة، حَتَّى يَرْجِعَ كَعْبٌ بِالْخَبَرِ، فَإِنْ رَجَعَ بِأَنَّ الْقَوْمَ أَكْرَهُوا طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ[3] فَالأَمْرُ أَمْرُهُمَا، وَإِنْ

---

[1] يعني إن ثبت أن طلحة والزبير أكرها على البيعة. والثابت أن ذلك كذلك، فقد مر أن الأشتر جاء بطلحة والسيف على رقبته ليبايع، وكذلك جاءوا بالزبير والسيف على رقبته ليبايع.

[2] الفرضة: الساحة.

[3] يعني على المبايعة لعلي.

شَاءَ عُثْمَانُ خَرَجَ حَتَّى يَلْحَقَ بِطِيَّتِهِ[1]، وَإِنْ شَاءَ دَخَلَ مَعَهُمَا، وَإِنْ رَجَعَ بِأَنَّهُمَا لَمْ يُكْرَهَا فَالأَمْرُ أَمْرُ عُثْمَانَ، فَإِنْ شَاءَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَقَامَا عَلَى طَاعَةِ عَلِيٍّ، وَإِنْ شَاءَا خَرَجَا حَتَّى يَلْحَقَا بِطِيَّتِهِمَا، وَالْمُؤْمِنُونَ أَعْوَانُ الْفَالِحِ مِنْهُمَا".

فَخَرَجَ كَعْبٌ حَتَّى يَقْدَمَ الْمَدِينَةَ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِقُدُومِهِ، وَكَانَ قُدُومُهُ يَوْمَ جُمُعَةٍ، فَقَامَ كَعْبٌ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ، إِنِّي رَسُولُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ إِلَيْكُمْ، أَأَكْرَهَ هَؤُلاءِ الْقَوْمُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ عَلَى بَيْعَةِ عَلِيٍّ، أَمْ أَتَيَاهَا طَائِعَيْنِ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ، إِلا مَا كَانَ مِنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، فَإِنَّهُ قَامَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا لَمْ يُبَايِعَا إِلا وَهُمَا كَارِهَانِ، فَأَمَرَ بِهِ تَمَّامٌ[2]، فَوَاثَبَهُ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَالنَّاسُ، وَثَارَ صُهَيْبُ بْنُ سِنَانٍ وَأَبُو أَيُّوبَ بْنُ زَيْدٍ، فِي عِدَّةٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فِيهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ، حِينَ خَافُوا أَنْ يُقْتَلَ أُسَامَةُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فَانْفَرِجُوا عَنِ الرَّجُلِ، فَانْفَرَجُوا عَنْهُ، وَأَخَذَ صُهَيْبٌ بِيَدِهِ حَتَّى أَخْرَجَهُ فَأَدْخَلَهُ مَنْزِلَهُ، وَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ أُمَّ عَامِرٍ حَامِقَةٌ[3]، أَمَا وَسِعَكَ مَا

---

[1] مضى لطِيَّته: لناحيته، لقصده الذي قصده.

[2] تمام بن العباس. سبقت ترجمته.

[3] أم عامر: أنثى الضبع، ويضرب بها المثل في الحمق. والمقصود أن النفوس مشحونة حامقة.

وَسِعَنَا مِنَ السُّكُوتِ! قَالَ: لا وَاللَّهِ، مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الأَمْرَ يَتَرَامَى إِلَى ما رأيت، وقد أُبسِلْنا لعَظيم[1].

فَرَجَعَ كَعْبٌ وَقَدِ اعْتَدَّ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بِأَشْيَاءَ كُلُّهَا كَانَتْ مِمَّا يُعْتَدُّ بِهِ، مِنْهَا أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ طَلْحَةَ – وَكَانَ صَاحِبَ صَلاةٍ – قَامَ مُقَامًا قَرِيبًا مِنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ فَخَشِيَ بَعْضُ الزُّطِّ وَالسَّيَابِجَةِ[2] أَنْ يَكُونَ جَاءَ لِغَيْرِ مَا جَاءَ لَهُ، فَنَحَّيَاهُ، فَبَعَثَا إِلَى عُثْمَانَ، هَذِهِ وَاحِدَةٌ.

وَبَلَغَ عَلِيًّا الْخَبَرُ الَّذِي كَانَ بِالْمَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ، فَبَادَرَ بِالْكِتَابِ إِلَى عُثْمَانَ يُعْجِزُهُ وَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أُكْرِهَا إِلا كَرْهًا عَلَى فُرْقَةٍ، وَلَقَدْ أُكْرِهَا عَلَى جَمَاعَةٍ وَفَضْلٍ، فَإِنْ كَانَا يُرِيدَانِ الْخَلْعَ فَلا عُذْرَ لَهُمَا، وَإِنْ كَانَا يُرِيدَانِ غَيْرَ ذَلِكَ نَظَرْنَا وَنَظَرَا.

فَقَدِمَ الْكِتَابُ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ، فَأَصْبَحَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَبَيْتُ الْمَالِ وَالْحَرَسُ فِي أَيْدِيهِمَا، وَالنَّاسُ مَعَهُمَا، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمَا مَغْمُورٌ مُسْتَسِرٌّ.

---

[1] أبسلتُ فلاناً: أسلمتُه للهلكة.

[2] الزُّط: جنود من الهند. السيابجة: جنود من السند كانوا بالبصرة.

وَبَعَثَا حِينَ أَصْبَحَا بِأَنَّ حُكَيمًا فِي الْجَمْعِ[1]، فَبَعَثَتْ: لا تَحْبِسَا عُثْمَانَ وَدَعَاهُ، فَفَعَلا، فَخَرَجَ عُثْمَانُ فَمَضَى لِطِلْبَتِهِ[2].

وَأَصْبَحَ حُكَيمُ بْنُ جَبَلَةَ فِي خَيْلِهِ عَلَى رَجُلٍ فِيمَنْ تَبِعَهُ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ وَمَنْ نَزَعَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَفْنَاءِ رَبِيعَةَ، ثُمَّ وَجَّهُوا نَحْوَ دَارِ الرِّزْقِ وَهُوَ يَقُولُ: لَسْتُ بِأَخِيهِ إِنْ لَمْ أَنْصُرْهُ، وَجَعَلَ يَشْتُمُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَسَمِعَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ قومه فقالت: يابنَ الْخَبِيثَةِ، أَنْتَ أَوْلَى بِذَلِكَ! فَطَعَنَهَا فَقَتَلَهَا، فَغَضِبَتْ عَبْدُ الْقَيْسِ إِلا مَنْ كَانَ اغْتَمَرَ مِنْهُمْ، فَقَالُوا: فَعَلْتَ بِالأَمْسِ وَعُدْتَ لِمِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ! وَاللَّهِ لَنَدَعَنَّكَ حَتَّى يُقِيدَكَ اللَّهُ. فَرَجَعُوا وَتَرَكُوهُ.

وَمَضَى حُكَيمُ بْنُ جَبَلَةَ فِيمَنْ غَزَا مَعَهُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَحَصَرَهُ مِنْ نُزَّاعِ الْقَبَائِلِ كُلِّهَا، وَعَرَفُوا أَنْ لا مُقَامَ لَهُمْ بِالْبَصْرَةِ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَانْتَهَى بِهِمْ إِلَى الزَّابُوقَةِ عِنْدَ دَارِ الرِّزْقِ.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: لا تَقْتُلُوا إِلا مَنْ قَاتَلَكُمْ، وَنَادُوْا مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَلْيَكْفُفْ عَنَّا، فَإِنَّا لا نُرِيدُ إِلا قَتَلَةَ عُثْمَانَ وَلا نَبْدَأُ أَحَدًا، فَأَنْشَبَ حُكَيمٌ الْقِتَالَ، وَلَمْ يَرع لِلْمُنَادِي، فَقَالَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَ لَنَا ثَأْرَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، اللَّهُمَّ لا تُبْقِ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَأَقِدْ مِنْهُمْ

---

[1] يعني أن طلحة والزبير أرسلا إلى عائشة بأن حكيماً في الجيش المناوئ.

[2] الطِّلْبَةَ : المطلوب.

الْيَوْمَ فَاقْتُلْهُمْ، فَجَادُّوهُمُ الْقِتَالَ فَاقْتَتَلُوا أَشَدَّ قِتَالٍ وَمَعَهُ أَرْبَعَةُ قُوَّادٍ[1]، فَكَانَ حُكَيمٌ بِحِيَالِ طلحةَ، وذُرَيحٌ بِحِيَالِ الزُّبَيْرِ، وَابْنُ الْمُحَرِّشِ بِحِيَالِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتَّابٍ، وَحُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ بِحِيَالِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ.

فَزَحَفَ طَلْحَةُ لحُكَيمٍ وهو في ثلاثمائة رَجُلٍ، وَجَعَلَ حُكَيمٌ يَضْرِبُ بِالسَّيْفِ وَيَقُولُ:

أَضْرِبْهُمُ بِالْيَابِسِ ضَرْبَ غُلامٍ عَابِسِ
مِنَ الْحَيَاةِ آيِسِ فِي الْغُرُفَاتِ نَافِسِ

فَضَرَبَ رَجُلٌ رِجْلَهُ فَقَطَعَهَا، فَحَبَا حَتَّى أَخَذَهَا فَرَمَى بِهَا صَاحِبَهُ، فَأَصَابَ جَسَدَهُ فَصَرَعَهُ، فَأَتَاهُ حَتَّى قَتَلَهُ، ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَيْهِ وَقَالَ:

يَا فَخِذُ لَنْ تُرَاعِي إِنَّ مَعِي ذِرَاعِي
أَحْمِي بِهَا كرَاعِي

وَقَالَ وَهُوَ يَرْتَجِزُ:

لَيْسَ عَلَيَّ أَنْ أَمُوتَ عَارُ وَالْعَارُ فِي النَّاسِ هُوَ الْفِرَارُ
وَالْمَجْدُ لا يَقْضَحُهُ الدَّمَارُ

---

[1] مع حكيم.

فَأَتَى عَلَيْهِ رَجُلٌ وَهُوَ رَثِيثٌ[1]، رَأْسُهُ عَلَى الآخَرِ، فَقَالَ: مَا لَكَ يَا حُكَيمُ؟ قَالَ: قُتِلْتُ، قَالَ: مَنْ قَتَلَكَ؟ قَالَ: وِسَادَتِي، فَاحْتَمَلَهُ فَضَمَّهُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَتَكَلَّمَ يَوْمَئِذٍ حُكَيمٌ وَإِنَّهُ لَقَائِمٌ عَلَى رِجْلٍ، وَإِنَّ السُّيُوفَ لَتَأْخُذُهُمْ فَمَا يَتَتَعْتِعُ، وَيَقُولُ: إِنَّا خَلَّفْنَا هَذَيْنِ وَقَدْ بَايَعَا عَلِيًّا وَأَعْطَيَاهُ الطَّاعَةَ، ثُمَّ أَقْبَلا مُخَالِفَيْنِ مُحَارِبَيْنِ يَطْلُبَانِ بِدَمِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ، فَفَرَّقَا بَيْنَنَا، وَنَحْنُ أَهْلُ دَارٍ وَجِوَارٍ، اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا لَمْ يُرِيدَا عُثْمَانَ. فَنَادَى مُنَادٍ: يَا خَبِيثُ، جَزَعْتَ حِينَ عَضَّكَ نَكَالُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَى كَلامِ مَنْ نَصَبَكَ وَأَصْحَابَكَ بِمَا رَكِبْتُمْ مِنَ الإِمَامِ الْمَظْلُومِ، وَفَرَّقْتُمْ مِنَ الْجَمَاعَةِ، وَأَصَبْتُمْ مِنَ الدِّمَاءِ، وَنِلْتُمْ مِنَ الدُّنْيَا! فَذُقْ وَبَالَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَانْتِقَامَهُ، وَأَقِيمُوا فِيمَنْ أَنْتُمْ.

وَقُتِلَ ذُرَيْحٌ وَمَنْ مَعَهُ، وَأَفْلَتَ حُرقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فلَجَئوا إِلَى قَوْمِهِمْ.

وَنَادَى مُنَادِي الزُّبَيْرِ وَطَلْحَةَ بِالْبَصْرَةِ: أَلا مَنْ كَانَ فِيهِمْ مِنْ قَبَائِلِكُمْ أَحَدٌ مِمَّنْ غَزَا الْمَدِينَةَ فَلْيَأْتِنَا بِهِمْ، فَجِيءَ بِهِمْ كَمَا يُجَاءُ بِالْكِلابِ، فَقُتِلُوا، فَمَا أَفْلَتَ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ جَمِيعًا إِلا حُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ، فَإِنَّ عشيرته بَنِي سَعْدٍ مَنَعُوهُ، وَكَانَ مِنْ بَنِي سَعْدٍ، فَمَسَّهُمْ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ شَدِيدٌ، وَضَرَبُوا لَهُمْ فِيهِ

[1] الرثيث: الجريح وبه رمق.

أَجَلاً وَخَشَّنُوا صُدُورَ بَنِي سَعْدٍ، وَإِنَّهُمْ لَعُثْمَانِيَّةٌ[1]، حَتَّى قَالُوا: نَعْتَزِلُ، وَغَضِبَتْ عَبْدُ الْقَيْسِ حِينَ غَضِبَتْ سَعْدٌ لِمَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْوَقْعَةِ وَمَنْ كَانَ هَرَبَ إِلَيْهِمْ إِلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ لُزُومِ طَاعَةِ عَلِيٍّ.

فَأَمَرَا[2] لِلنَّاسِ بِأُعْطِيَاتِهِمْ وَأَرْزَاقِهِمْ وَحُقُوقِهِمْ، وَفَضَّلا بِالْفَضْلِ أَهْلَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَخَرَجَتْ عَبْدُ الْقَيْسِ وَكَثِيرٌ مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ حِينَ زَوَوْا عَنْهُمُ الْفُضُولَ، فَبَادَرُوا إِلَى بَيْتِ الْمَالِ، وَأَكَبَّ عَلَيْهِمُ النَّاسُ فَأَصَابُوا مِنْهُمْ، وَخَرَجَ الْقَوْمُ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى طَرِيقِ عَلِيٍّ.

وَأَقَامَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ لَيْسَ مَعَهُمَا بِالْبَصْرَةِ ثَأْرٌ إِلا حُرْقُوصٌ، وَكَتَبُوا إِلَى أَهْلِ الشَّامِ بِمَا صَنَعُوا وَصَارُوا إِلَيْهِ: إِنَّا خَرَجْنَا لِوَضْعِ الْحَرْبِ، وَإِقَامَةِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِإِقَامَةِ حُدُودِهِ فِي الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ والكثيرِ وَالْقَلِيلِ، حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يَرُدُّنَا عَنْ ذَلِكَ، فَبَايَعَنَا خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَنُجَبَاؤُهُمْ، وَخَالَفَنَا شِرَارُهُمْ وَنُزَّاعُهُمْ، فَرَدُّونَا بِالسِّلاحِ وَقَالُوا فِيمَا قَالُوا: نَأْخُذُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَهِينَةً، أَنْ أَمَرَتْهُمْ بِالْحَقِّ وَحَثَّتْهُمْ عَلَيْهِ، فَأَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سُنَّةَ الْمُسْلِمِينَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ[3]، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ حُجَّةٌ وَلا عُذْرٌ اسْتَبْسَلَ قَتَلَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

---

[1] يطلبون بثأره.

[2] طلحة والزبير.

[3] يعني أمهلهم مرة بعد مرة.

فَخَرَجُوا إِلَى مَضَاجِعِهِمْ فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ مُخْبِرٌ إِلا حُرْقُوصُ بْنُ زُهَيْرٍ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُقِيدُهُ[1] إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَكَانُوا كَمَا وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّا نُنَاشِدُكُمُ اللَّهَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلا نَهَضْتُمْ بِمِثْلِ مَا نَهَضْنَا بِهِ، فَنَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَتَلْقَوْنَهُ وَقَدْ أَعْذَرْنَا وَقَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا. وَبَعَثُوا بِهِ مَعَ سَيَّارٍ الْعِجْلِيِّ.

وَكَتَبُوا إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ بِمِثْلِهِ مَعَ رَجُلٍ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ أَسَدٍ يُدْعَى مُظَفَّرَ بْنَ مُعَرِّضٍ. وَكَتَبُوا إلى أهلِ اليَمامةِ وعليها سَبُرَةُ بنُ عمرو العَنْبري مَعَ الْحَارِثِ السَّدُوسِيِّ. وَكَتَبُوا إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَعَ ابْنِ قُدَامَةَ الْقُشَيْرِيِّ، فَدَسَّهُ إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ.

وَكَتَبَتْ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ مَعَ رَسُولِهِمْ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَالإِسْلامَ، أَقِيمُوا كِتَابَ اللَّهِ بِإِقَامَةِ مَا فِيهِ، اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِهِ، وَكُونُوا مَعَ كِتَابِهِ، فَإِنَّا قَدِمْنَا الْبَصْرَةَ فَدَعَوْنَاهُمْ إِلَى إِقَامَةِ كِتَابِ اللَّهِ بِإِقَامَةِ حُدُودِهِ، فَأَجَابَنَا الصَّالِحُونَ إِلَى ذَلِكَ، وَاسْتَقْبَلَنَا مَنْ لا خَيْرَ فِيهِ بِالسِّلاحِ، وَقَالُوا: لَنُتْبِعَنَّكُمْ عُثْمَانَ، لِيَزِيدوا الْحُدُودَ تَعْطِيلاً، فَعَانَدُوا فَشَهِدُوا عَلَيْنَا بِالْكُفْرِ وَقَالُوا لَنَا الْمُنْكَرَ، فَقَرَأْنَا عَلَيْهِمْ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ» فَأَذْعَنَ لِي بَعْضُهُمْ، وَاخْتَلَفُوا بَيْنَهُمْ، فَتَرَكْنَاهُمْ وَذَلِكَ، فَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ

---

[1] قاتله ومقتص منه.

عَلَى رَأْيِهِ الأَوَّلِ مِنْ وَضْعِ السِّلاحِ فِي أَصْحَابِي، وَعَزَمَ عَلَيْهِمْ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ إِلا قَاتَلُونِي، حَتَّى مَنَعَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالصَّالِحِينَ، فَرَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نُحُورِهِمْ، فَمَكَثْنَا سِتًّا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً نَدْعُوهُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَإِقَامَةِ حُدُودِهِ، وَهُوَ حَقْنُ الدِّمَاءِ أَنْ تُهْرَاقَ دُونَ مَنْ قَدْ حَلَّ دَمُهُ، فَأَبَوْا وَاحْتَجُّوا بِأَشْيَاءَ، فَاصْطَلَحْنَا عَلَيْهَا، فخافُوا وغَدَروا وخانُوا، فَجَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثَأْرَهُمْ، فَأَقَادَهُمْ، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ إِلا رجلٌ، وأَرْدَأَنا اللهُ[1]، ومَنَعَنا منهم بعُمَيرِ بنِ مَرْثَدٍ وَمَرْثَدِ بْنِ قَيْسٍ، وَنَفَرٍ مِنْ قَيْسٍ، وَنَفَرٍ مِنَ الرَّبَابِ وَالأَزْدِ، فَدَارَتْ عَلَيْهِمُ الرَّحَا، فَأَطَافَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَقَتَلُوهُمْ، وَجَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَلِمَةَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ عَلَى مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ، فَإِذَا قَتَلْنَا بِثَأْرِنَا وَسِعَنَا الْعُذْرُ.

مسير عليٍّ بن أبي طالب إلى البصرة

لَمَّا أَتَى عَلِيًّا الْخَبَرُ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ بِأَمْرِ عَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ أَنَّهُمْ قَدْ تَوَجَّهُوا نَحْوَ الْعِرَاقِ، خَرَجَ يُبَادِرُ وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يُدْرِكَهُمْ وَيَرُدَّهُمْ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الرَّبَذَةِ أَتَاهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ أمْعنُوا، فَأَقَامَ بِالرَّبَذَةِ أَيَّامًا، وَأَتَاهُ عَنِ الْقَوْمِ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْبَصْرَةَ، فَسُرِّيَ بِذَلِكَ عَنْهُ، وَقَالَ: إِنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ أَشَدُّ إِلَيَّ حباً، وفيهم رؤوسُ

[1] أردأ: أعان.

الْعَرَبِ وَأَعْلامُهُمْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ: إِنِّي قَدِ اخْتَرْتُكُمْ عَلَى الأَمْصَارِ وَإِنِّي بِالأَثَرَةِ[1].

ولَمَّا قَدِمَ عَلِيٌّ الرَّبَذَةَ أَقَامَ بِهَا وَسَرَّحَ مِنْهَا إِلَى الْكُوفَةِ مُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ وَمُحَمَّدَ بْنَ جَعْفَرٍ، وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ: إِنِّي اخْتَرْتُكُمْ عَلَى الأَمْصَارِ وَفَزِعْتُ إِلَيْكُمْ لِمَا حَدَثَ، فَكُونُوا لِدِينِ اللَّهِ أَعْوَانًا وَأَنْصَارًا، وَأَيِّدُونَا وَانْهَضُوا إِلَيْنَا؛ فَالإِصْلاحَ مَا نُرِيدُ، لِتَعُودَ الأُمَّةُ إِخْوَانًا، وَمَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ وَآثَرَهُ فَقَدْ أَحَبَّ الْحَقَّ وَآثَرَهُ، وَمَنْ أَبْغَضَ ذَلِكَ فَقَدْ أَبْغَضَ الْحَقَّ وَغَمَصَهُ.

فَمَضَى الرَّجُلانِ وَبَقِيَ عَلِيٌّ بِالرَّبَذَةِ يَتَهَيَّأُ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَحِقَهُ مَا أَرَادَ مِنْ دَابَّةٍ وَسِلاحٍ، وأمر أَمْرَهُ وَقَامَ فِي النَّاسِ فَخَطَبَهُمْ، وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعَزَّنَا بِالإِسْلامِ وَرَفَعَنَا بِهِ، وَجَعَلَنَا بِهِ إِخْوَانًا بَعْدَ ذِلَّةٍ وَقِلَّةٍ وَتَبَاغُضٍ وَتَبَاعُدٍ، فَجَرَى النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ، الإِسْلامُ دِينُهُمْ وَالْحَقُّ فِيهِمْ وَالْكِتَابُ إِمَامُهُمْ، حَتَّى أُصِيبَ هَذَا الرَّجُلُ بِأَيْدِي هَؤُلاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ نَزَغَهُمُ الشَّيْطَانُ لِيَنْزَغَ بَيْنَ هَذِهِ الأُمَّةِ، أَلا إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ لا بُدَّ مُفْتَرِقَةٌ كَمَا افْتَرَقَتِ الأُمَمُ قَبْلَهُمْ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا هُوَ كَائِنٌ. ثُمَّ عَادَ ثَانِيَةً فَقَالَ: إِنَّهُ لا بُدَّ مِمَّا

[1] يعني يؤثرهم ويختصهم.

هُوَ كَائِنٌ أَنْ يَكُونَ، أَلا وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً[1]، شَرُّهَا فِرْقَةٌ تَنْتَحِلُنِي وَلا تَعْمَلُ بِعَمَلِي، فَقَدْ أَدْرَكْتُمْ وَرَأَيْتُمْ فَالْزَمُوا دِينَكُمْ وَاهْدُوا بِهَدْيِ نبيكم صلى الله عليه وسلم، وَاتَّبِعُوا سُنَّتَهُ، وَاعْرِضُوا مَا أُشْكِلَ عَلَيْكُمْ عَلَى الْقُرْآنِ، فَمَا عَرَّفَهُ الْقُرْآنُ فَالْزَمُوهُ، وَمَا أَنْكَرَهُ فَرُدُّوهُ، وَارْضَوْا بِاللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ ديناً وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نَبِيًّا، وَبِالْقُرْآنِ حَكَمًا وَإِمَامًا.

ولَمَّا أَرَادَ عَلِيٌّ الْخُرُوجَ مِنَ الرَّبَذَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ قَامَ إِلَيْهِ ابْنٌ لِرِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَيَّ شَيْءٍ تُرِيدُ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ بِنَا؟ فَقَالَ: أَمَّا الَّذِي نُرِيدُ وَنَنْوِي فَالإِصْلاحُ، إِنْ قَبِلُوا مِنَّا وأجابُونا اإليه، قال: فإنْ لم يُجيبوا إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَدَعُهُمْ بِعُذْرِهِمْ وَنُعْطِيهِمُ الْحَقَّ وَنَصْبِرُ، قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَرْضَوْا؟ قَالَ: نَدَعُهُمْ مَا تَرَكُونَا، قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَتْرُكُونَا؟ قَالَ: امْتَنَعْنَا مِنْهُمْ، قَالَ: فَنَعَمْ إِذنْ.

وَقَامَ الْحَجَّاجُ بْنُ غَزِيَّةَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: لأُرْضِيَنَّكَ بِالْفِعْلِ كَمَا أَرْضَيْتَنِي بِالْقَوْلِ وَقَالَ:

دَرَاكَهَا دَرَاكَهَا قَبْلَ الْفَوْتْ ... وَانْفُرْ بِنَا وَاسْمُ بِنَا نَحْوَ الصَّوْتْ

---

[1] حديث (إنَّ بني اسرائيلَ افترقتْ على إحدى وسبعين فرقةً، وإنَّ أمتي ستفترقُ على اثنتيْنِ وسبعين فرقةً، كلُّها في النارِ إلا واحدةً وهي الجماعةُ) رواه أنس بن مالك وعوف بن مالك الأشجعي، وهو صحيح الإسناد.

لا وَأَلَتْ نَفْسِي إِنْ هِبْتُ الْمَوْتْ

وَاللَّهِ لأَنْصُرَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا سَمَّانَا أَنْصَارًا.

فَخَرَجَ أَمِيرُ المؤمنينَ وعلى مُقَدِّمَتِهِ أَبُو لَيْلَى بْنُ عُمَرَ بْنِ الْجَرَّاحِ، والرايةُ مع محمدِ بنِ الْحَنَفِيَّةِ، وَعَلَى الْمَيْمَنَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ أَوْ عَمْرُو بْنُ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ الأَسَدِ، وَخَرَجَ عليٌّ وهو في سَبْعمائة وَسِتِّينَ، وَرَاجِزُ عَلِيٍّ يَرْجُزُ بِهِ:

سِيرُوا أَبَابِيلَ وَحُثُّوا السَّيْرَا

إِذْ عَزَمَ السَّيْرُ وَقُولُوا خَيْرَا

حَتَّى يُلاقُوا وَتُلاقُوا خَيْرَا

نَغْزُو بِهَا طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَا

وَهُوَ أَمَامَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ حَمْرَاءَ، يَقُودُ فَرَسًا كُمَيْتًا.

فَتَلَقَّاهُمْ بِفَيْدَ غُلامٌ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَامِرٍ يُدْعَى مُرَّةَ، فَقَالَ: مَنْ هَؤُلاءِ؟ فَقِيلَ: أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: سَفَرَةٌ فَانِيَةٌ فِيهَا دِمَاءٌ مِنْ نُفُوسٍ فَانِيَةٍ، فَسَمِعَهَا عَلِيٌّ فَدَعَاهُ، فَقَالَ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: مُرَّةُ، قال: أمرَّ اللهُ عيشَك، كاهنٌ سائرَ اليوم؟ قَالَ: بَلْ عَائِفٌ .

فَلَمَّا نَزَلَ بِفَيْدَ أَتَتْهُ أَسَدٌ وطَيِّئٌ فَعَرَضُوا عَلَيْهِ أَنْفُسَهُمْ، فَقَالَ: الْزَمُوا قَرَارَكُمْ؛ فِي الْمُهَاجِرِينَ كِفَايَةٌ.

وَقَدِمَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ فَيْدَ قَبْلَ خُرُوجِ عَلِيٍّ فَقَالَ: مَنِ الرَّجُلُ؟ قَالَ: عَامِرُ بْنُ مَطَرٍ، قَالَ: اللَّيْثِيُّ؟ قَالَ الشَّيْبَانِيُّ: قَالَ: أَخْبِرْنِي عَمَّا وَرَاءَكَ، فَأَخْبَرَهُ حَتَّى سَأَلَهُ عَنْ أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: إِنْ أَرَدْتَ الصُّلْحَ فَأَبُو مُوسَى صَاحِبُ ذَلِكَ، وَإِنْ أَرَدْتَ الْقِتَالَ فَأَبُو مُوسَى لَيْسَ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ حَتَّى يُرَدَّ عَلَيْنَا، قَالَ: قَدْ أَخْبَرْتُكَ الْخَبَرَ، وَسَكَتَ وَسَكَتَ عَلِيٌّ.

وَلَمَّا نَزَلَ عَلِيٌّ الثَّعْلَبِيَّةَ أَتَاهُ الَّذِي لَقِيَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ وَحَرَسُهُ ، فَقَامَ وَأَخْبَرَ الْقَوْمَ الْخَبَرَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَافِنِي مِمَّا ابْتَلَيْتَ بِهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ مِنْ قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ، وَسَلِّمْنَا مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الإِسَادِ أَتَاهُ مَا لَقِيَ حُكَيمُ بْنُ جَبَلَةَ وَقَتَلَةُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، مَا يُنْجِينِي مِنْ طلحة والزبير إذ أصابا ثَأْرَهُمَا أَوْ يُنْجِيهِمَا! وَقَرَأَ: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا».

وَقَالَ:

دَعَا حُكَيمٌ دَعْوَةَ الزِّمَاعِ ... حَلَّ بِهَا مَنْزِلَةَ النزاعِ

وَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى ذِي قَارٍ انْتَهَى إِلَيْهِ فِيهَا عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ شَعْرٌ، فَلَمَّا رَآهُ عَلِيٌّ نَظَرَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: انْطَلَقَ هَذَا مِنْ عِنْدِنَا وَهُوَ شَيْخٌ، فَرَجَعَ إِلَيْنَا وَهُوَ شَابٌّ. فَلَمْ يَزَلْ بِذِي قَارٍ يَتَلَوَّمُ مُحَمَّدًا وَمُحَمَّدًا ، وَأَتَاهُ الْخَبَرُ بِمَا لَقِيَتْ رَبِيعَةُ وَخُرُوجِ عَبْدِ الْقَيْسِ وَنُزُولِهِمْ بِالطَّرِيقِ، فَقَالَ: عَبْدُ الْقَيْسِ خَيْرُ رَبِيعَةَ، وفِي كُلِّ رَبِيعَةَ خَيْرٌ. وَقَالَ:

يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى رَبِيعَةْ

رَبِيعَةَ السَّامِعَةِ الْمُطِيعَةْ

قَدْ سَبَقَتْنِي فِيهِمُ الْوَقِيعَةْ

دَعَا عَلِيٌّ دَعْوَةً سَمِيعَةْ

حَلُّوا بِهَا الْمَنْزِلَةَ الرَّفِيعَةْ

وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ، فَقَالَ لَهُمْ مِثْلَ مَا قال لطيِّئ وَأَسَدٍ.

موقف أبي موسى الأشعري

وَلَمَّا قَدِمَ مُحَمَّدٌ وَمُحَمَّدٌ عَلَى الْكُوفَةِ وَأَتَيَا أَبَا مُوسَى بِكِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَامَا فِي النَّاسِ بِأَمرِهِ، لم يُجَابَا إِلَى شَيْءٍ، فَلَمَّا أَمْسَوْا دَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْحِجَا عَلَى أَبِي مُوسَى، فَقَالُوا: مَا تَرَى فِي الْخُرُوجِ؟ فَقَالَ: كَانَ الرَّأْيُ بِالأَمْسِ لَيْسَ بِالْيَوْمِ، إِنَّ الَّذِي تَهَاوَنْتُمْ بِهِ فِيمَا مَضَى هُوَ الَّذِي جَرَّ عَلَيْكُمْ مَا تَرَوْنَ،

وَمَا بَقِيَ إِنَّمَا هُمَا أَمْرَانِ: الْقُعُودُ سَبِيلُ الآخِرَةِ وَالْخُرُوجُ سَبِيلُ الدُّنْيَا، فَاخْتَارُوا، فَلَمْ يَنْفِرْ إِلَيْهِ أَحَدٌ.

فَغَضِبَ الرَّجُلانِ وَأَغْلَظَا لأَبِي موسى، فقال أَبُو مُوسَى: وَاللَّهِ إِنَّ بَيْعَةَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَفِي عُنُقِي وَعُنُقِ صَاحِبِكُمَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ قِتَالٍ لا نُقَاتِلُ أَحَدًا حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ قَتَلَةِ عُثْمَانَ حَيْثُ كَانُوا.

فَانْطَلَقَا إِلَى عَلِيٍّ فَوَافَيَاهُ بِذِي قَارٍ، وَأَخْبَرَاهُ الْخَبَرَ، وَقَدْ خَرَجَ مَعَه الأَشْتَرُ وَقَدْ كَانَ يُعَجِّلُ إِلَى الْكُوفَةِ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا أَشْتَرُ، أَنْتَ صَاحِبُنَا فِي أَبِي مُوسَى وَالْمُعْتَرِضِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، اذْهَبْ أَنْتَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ فَأَصْلِحْ مَا أَفْسَدا.

فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَمَعَهُ الأَشْتَرُ، فَقَدِمَا الْكُوفَةَ وَكَلَّمَا أَبَا مُوسَى وَاسْتَعَانَا عَلَيْهِ بِأُنَاسٍ مِنَ الْكُوفَةِ، فَقَالَ لِلْكُوفِيِّينَ: أَنَا صَاحِبُكُمْ يَوْمَ الْجَرَعَةِ وَأَنَا صَاحِبُكُمُ الْيَوْمَ.

فَجَمَعَ أبو موسى النَّاسَ فَخَطَبَهُمْ وَقَالَ: يا أيها النَّاسُ، إِنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ صَحِبُوهُ فِي الْمَوَاطِنِ أَعْلَمُ بِاللَّهِ جلَّ وعزَّ وبرسولِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ لَمْ يَصْحَبْهُ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْنَا حَقًّا فَأَنَا مُؤَدِّيهِ إِلَيْكُمْ. كَانَ الرَّأْيُ أَلا تَسْتَخِفُّوا بِسُلْطَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلا تَجْتَرِئُوا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ الرَّأْيُ الثَّانِي أَنْ تَأْخُذُوا مَنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ فَتَرُدُّوهُمْ إِلَيْهَا حَتَّى يَجْتَمِعُوا، وَهُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ تَصْلُحُ لَهُ الإِمَامَةُ مِنْكُمْ، وَلا تُكَلِّفُوا

الدَّخُولَ فِي هذا، فأمَّا إذْ كَانَ مَا كَانَ فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ صَمَّاءُ، النَّائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْيَقْظَانِ، وَالْيَقْظَانُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَاعِدِ، وَالْقَاعِدُ خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الرَّاكِبِ، فَكُونُوا جُرْثُومَةً مِنْ جَرَاثِيمِ الْعَرَبِ ، فَاغْمِدُوا السُّيُوفَ، وَانْصِلُوا الأَسِنَّةَ، وَاقْطَعُوا الأَوْتَارَ، وَآوُوا الْمَظْلُومَ وَالْمُضْطَهَدَ حَتَّى يَلْتَئِمَ هَذَا الأَمْرُ، وَتَنْجَلِي هَذِهِ الْفِتْنَةُ.

وَلَمَّا رَجَعَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِلَى عَلِيٍّ بِالْخَبَرِ دَعَا الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَرْسَلَهُ، وَأَرْسَلَ مَعَهُ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ، فَقَالَ لَهُ: انْطَلِقْ فَأَصْلِحْ مَا أَفْسَدْتَ، فَأَقْبَلا حَتَّى دَخَلا الْمَسْجِدَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَتَاهُمَا مَسْرُوقُ بْنُ الأَجْدَعِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا، وَأَقْبَلَ عَلَى عَمَّارٍ فَقَالَ: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ، عَلامَ قَتَلْتُمْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؟ قَالَ: عَلَى شَتْمِ أَعْرَاضِنَا وَضَرْبِ أَبْشَارِنَا! فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا عَاقَبْتُمْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَكَانَ خَيْرًا لِلصَّابِرِينَ.

فَخَرَجَ أَبُو مُوسَى، فَلَقِيَ الْحَسَنَ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، وَأَقْبَلَ عَلَى عَمَّارٍ فَقَالَ: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ، أَعَدَوْتَ فِيمَنْ عَدَا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَحْلَلْتَ نَفْسَكَ مَعَ الْفُجَّارِ! فَقَالَ: لَمْ أَفْعَلْ ولمْ يَسُؤْنِي.

وَقَطَعَ عَلَيْهِمَا الْحَسَنُ، فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي مُوسَى، فَقَالَ: يَا أَبَا مُوسَى، لِمَ تُثَبِّطِ النَّاسَ عنا! فواللهِ مَا أَرَدْنَا إِلا الإِصْلاحَ، وَلا مِثْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يُخَافُ عَلَى شَيْءٍ، فَقَالَ: صَدَقْتَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! وَلَكِنَّ الْمُسْتَشَارَ مُؤْتَمَنٌ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ

الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خيرٌ مِنَ الراكب" ، قد جَعَلَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِخْوَانًا، وَحَرَّمَ عَلَيْنَا أموالَنا ودِماءنا، وقال: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ»، «وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً» وَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ».

فَغَضِبَ عَمَّارٌ وَسَبَّهُ وَقَامَ وَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا قَالَ لَهُ وَحْدَهُ: أَنْتَ فِيهَا قَاعِدًا خَيْرٌ مِنْكَ قَائِمًا.

وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ لِعَمَّارٍ: اسْكُتْ أَيُّهَا الْعَبْدُ، أَنْتَ أَمْسِ مَعَ الْغَوْغَاءِ وَالْيَوْمَ تُسَافِهُ أَمِيرَنَا.

وَثَارَ زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ وَطَبَقَتُهُ وَثَارَ النَّاسُ، وَجَعَلَ أَبُو مُوسَى يُكَفْكِفُ النَّاسَ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى أَتَى الْمِنْبَرَ، وَسَكَّنَ النَّاسَ.

وَأَقْبَلَ زَيْدٌ عَلَى حِمَارٍ حَتَّى وَقَفَ بِبَابِ الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ الْكِتَابَانِ مِنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَيْهِ وَإِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَقَدْ كَانَ طَلَبَ كِتَابَ الْعَامَّةِ فَضَمَّهُ إِلَى كِتَابِهِ، فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَمَعَهُ كِتَابُ الْخَاصَّةِ وَكِتَابُ الْعَامَّةِ وفيه: أَمَّا بَعْدُ، فَثَبِّطُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَاجْلِسُوا فِي بُيُوتِكُمْ إلا عَنْ قتلةِ عثمانَ بنِ عفانَ رضي الله عنه.

فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الْكِتَابِ قَالَ : أُمِرَتْ بِأَمْرٍ وَأُمِرْنَا بِأَمْرٍ، أُمِرَتْ أَنْ تَقَرَّ فِي بَيْتِهَا، وَأُمِرْنَا أَنْ نُقَاتِلَ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ، فَأَمَرَتْنَا بِمَا أُمِرَتْ بِهِ وَرَكِبَتْ مَا أُمِرْنَا بِهِ.

فَقَامَ إِلَيْهِ شَبَثُ بْنُ رِبْعِيٍّ فَقَالَ: يَا عُمَانِيُّ – وَزَيْدٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ عُمَانَ

وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْبَحْرَيْنِ – سَرَقْتَ بِجَلُولاءَ فَقَطَعَكَ اللَّهُ ، وَعَصَيْتَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ فَقَتَلَكَ اللَّهُ! مَا أَمَرَتْ إِلا بِمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ بِالإِصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ، فَقُتِلْتَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. وَتَهَاوَى النَّاسُ.

وَقَامَ أَبُو مُوسَى فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَطِيعُونِي تَكُونُوا جُرْثُومَةً مِنْ جَرَاثِيمِ الْعَرَبِ يَأْوِي إِلَيْكُمُ الْمَظْلُومُ وَيَأْمَنُ فِيكُمُ الْخَائِفُ، إِنَّا أصحابُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم أعلم بِمَا سَمِعْنَا، إِنَّ الْفِتْنَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ شَبَّهَتْ وَإِذَا أَدْبَرَتْ بَيَّنَتْ، وَإِنَّ هَذِهِ الْفِتْنَةَ بَاقِرَةٌ كَدَاءِ الْبَطْنِ تَجْرِي بِهَا الشَّمَالُ وَالْجَنُوبُ وَالصَّبَا وَالدَّبُورُ، فَتَسْكُنُ أَحْيَانًا فَلا يُدْرَى مِنْ أَيْنَ تُؤْتَى، تَذَرُ الْحَلِيمَ كَابْنِ أَمْسِ، شِيمُوا سُيُوفَكُمْ وَقَصِّدُوا رِمَاحَكُمْ ، وَأَرْسِلُوا سِهَامَكُمْ، واقطعوا أوتارَكم، والزَمُوا بيوتَكم، خَلُّوا قريشاً – إِذْ أَبَوْا إِلا الْخُرُوجَ مِنْ دَارِ الْهِجْرَةِ وَفِرَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالإِمْرَةِ – تَرْتِقُ فَتْقَهَا، وَتُشْعِبُ صَدْعَهَا، فَإِنْ فَعَلَتْ فَلأَنْفُسِهَا سَعَتْ، وَإِنْ أَبَتْ فَعَلَى أَنْفُسِهَا جَنَتْ سَمْنَهَا تُهْرِيقُ فِي أَدِيمِهَا ، اسْتَنْصِحُونِي وَلا تَسْتَغِشُّونِي، وَأَطِيعُونِي يَسْلَمْ لَكُمْ دِينُكُمْ وَدُنْيَاكُمْ، وَيَشْقَى بحَرِّ هَذِهِ الْفِتْنَةِ مَنْ جَنَاهَا.

فَقَامَ زَيْدٌ فَشَالَ يَدَهُ الْمَقْطُوعَةَ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ ، رُدَّ الْفُرَاتَ عَنْ دِرَاجِهِ، ارْدُدْهُ مِنْ حَيْثُ يَجِيءُ حَتَّى يَعُودَ كَمَا بَدَأَ، فَإِنْ قَدَرْتَ عَلَى ذَلِكَ فَسَتَقْدِرُ عَلَى مَا تُرِيدُ، فَدَعْ عَنْكَ مَا لَسْتَ مُدْرِكَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: «الم. أَحَسِبَ

النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا» إِلَى آخِرِ الآيَتَيْنِ، سِيرُوا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيِّدِ الْمُسْلِمِينَ، وَانْفُرُوا إِلَيْهِ أَجْمَعِينَ تُصِيبُوا الْحَقَّ.

فَقَامَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: إِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ، وَعَلَيْكُمْ شَفِيقٌ، أُحِبُّ أَنْ تَرْشُدُوا، وَلأَقُولَنَّ لَكُمْ قَوْلاً هُوَ الْحَقُّ، أَمَّا مَا قَالَ الأمير فهو الأَمْرُ لَوْ أَنَّ إِلَيْهِ سبيلاً، وَأَمَّا مَا قَالَ زَيْدٌ فَزَيْدٌ فِي الأَمْرِ فَلا تَسْتَنْصِحُوهُ؛ فَإِنَّهُ لا يُنْتَزَعُ أَحَدٌ مِنَ الْفِتْنَةِ طَعَنَ فِيهَا وَجَرَى إِلَيْهَا، وَالْقَوْلُ الَّذِي هُوَ الْقَوْلُ إِنَّهُ لا بُدَّ مِنْ إِمَارَةٍ تُنَظِّمُ النَّاسَ وتَزِعُ الظَّالِمَ وَتُعِزُّ الْمَظْلُومَ، وَهَذَا عَلِيٌّ يَلِي بِمَا وُلِّيَ، وَقَدْ أَنْصَفَ فِي الدُّعَاءِ، وَإِنَّمَا يَدْعُو إِلَى الإِصْلاحِ، فَانْفِرُوا وَكُونُوا مِنْ هَذَا الأَمْرِ بِمَرْأًى وَمَسْمَعٍ.

وَقَالَ سَيْحَانُ : أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لا بُدَّ لِهَذَا الأَمْرِ وَهَؤُلاءِ النَّاسِ مِنْ وَالٍ يَدْفَعُ الظَّالِمَ وَيُعِزُّ الْمَظْلُومَ وَيَجْمَعُ النَّاسَ، وَهَذَا وَالِيكُمْ يَدْعُوكُمْ لِيَنْظُرَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبَيْهِ، وَهُوَ الْمَأْمُونُ عَلَى الأُمَّةِ، الْفَقِيهُ فِي الدِّينِ، فَمَنْ نَهَضَ إِلَيْهِ فَإِنَّا سَائِرُونَ مَعَهُ.

وَلانَ عَمَّارٌ بَعْدَ نَزْوَتِهِ الأُولَى، فَلَمَّا فَرَغَ سَيْحَانُ مِنْ خُطْبَتِهِ، تَكَلَّمَ عَمَّارٌ فَقَالَ: هَذَا ابنُ عمِّ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستنفرُكم إلى زوجةِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهَا زَوْجَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَانْظُرُوا ثُمَّ انْظُرُوا فِي الْحَقِّ فَقَاتِلُوا مَعَهُ.

فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَبَا الْيَقْظَانِ، لَهُوَ مَعَ مَنْ شَهِدْتَ لَهُ بِالْجَنَّةِ عَلَى مَنْ لَمْ تَشْهَدْ لَهُ .

فَقَالَ الْحَسَنُ: اكْفُفْ عَنَّا يَا عَمَّارُ، فَإِنَّ لِلإِصْلاحِ أَهْلاً.

وقام الحَسَنُ بنُ عليٍّ، فقالَ: يا أيها النَّاسُ، أَجِيبُوا دَعْوَةَ أَمِيرِكُمْ، وَسِيرُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ، فَإِنَّهُ سَيُوجَدُ لِهَذَا الأَمْرِ مَنْ يَنْفِرُ إِلَيْهِ، وَاللَّهِ لأَنْ يَلِيَهُ أُولُو النُّهَى أَمْثَلُ فِي الْعَاجِلَةِ وَخَيْرٌ فِي الْعَاقِبَةِ، فَأَجِيبُوا دَعْوَتَنَا وَأَعِينُونَا عَلَى مَا ابْتُلِينَا بِهِ وَابْتُلِيتُمْ. فَسَامَحَ النَّاسُ وَأَجَابُوا وَرَضُوا بِهِ.

وَأَتَى قَوْمٌ مِنْ طَيِّءٍ عَدِيًّا فَقَالُوا: مَاذَا تَرَى وَمَاذَا تَأْمُرُ؟ فَقَالَ: نَنْتَظِرُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ، فَأُخْبِرَ بِقِيَامِ الْحَسَنِ وَكَلامِ مَنْ تَكَلَّمَ، فَقَالَ: قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ، وَقَدْ دَعَانَا إِلَى جَمِيلٍ، وَإِلَى هَذَا الْحَدَثِ الْعَظِيمِ لِنَنْظُرَ فِيهِ، وَنَحْنُ سَائِرُونَ وَنَاظِرُونَ.

وَقَامَ هِنْدُ بْنُ عَمْرٍو ، فَقَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَعَانَا وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رُسُلَهُ حَتَّى جَاءَنَا ابْنُهُ، فَاسْمَعُوا إِلَى قَوْلِهِ، وَانْتَهُوا إِلَى أَمْرِهِ، وَانْفِرُوا إِلَى أَمِيرِكُمْ فَانْظُرُوا مَعَهُ فِي هَذَا الأَمْرِ وَأَعِينُوهُ بِرَأْيِكُمْ.

وَقَامَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ أَجِيبُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وانْفِرُوا خِفافاً وَثِقالًا، مُرُّوا وأنا أَوَّلُكُمْ.

وَقَامَ الأَشْتَرُ فَذَكَرَ الْجَاهِلِيَّةَ وَشِدَّتَهَا، وَالإِسْلامَ وَرَخَاءَهُ، وَذَكَرَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَقَامَ إِلَيْهِ الْمُقَطِّعُ بْنُ الْهَيْثَمِ بْنِ فُجَيْعٍ الْعَامِرِيُّ ثُمَّ الْبَكَّائِيُّ، فَقَالَ: اسْكُتْ قَبَّحَكَ اللَّهُ! كَلْبٌ خُلِّيَ وَالنُّبَاحَ، فَثَارَ النَّاسُ فَأَجْلَسُوهُ.

وَقَامَ الْمُقَطِّعُ، فَقَالَ: إِنَّا وَاللَّهِ لا نَحْتَمِلُ بَعْدَهَا أَنْ يَبُوءَ أَحَدٌ بِذِكْرِ أَحَدٍ مِنْ أَئِمَّتِنَا، وَإِنَّ عَلِيًّا عِنْدَنَا لَمُقْنَعٌ، وَاللَّهِ لَئِنْ يَكُنْ هَذَا الضَّرْبُ لا يَرْضَى بِعَلِّيٍ، فَعَضَّ امْرُؤٌ عَلَى لِسَانِهِ فِي مَشَاهِدْنَا، فَأَقْبِلُوا عَلَى مَا أَحْثَاكُمْ. فَقَالَ الْحَسَنُ: صَدَقَ الشَّيْخُ.

وَقَالَ الْحَسَنُ: أَيُّهَا الناسُ، إني غادٍ، فمَن شاءَ منكم أَنْ يَخْرُجَ مَعِي عَلَى الظَّهْرِ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَخْرُجْ فِي الْمَاءِ، فَنَفَرَ مَعَهُ تِسْعَةُ آلافٍ، فَأَخَذَ بَعْضُهُمُ الْبَرَّ، وَأَخَذَ بَعْضُهُمُ الْمَاءَ، وَعَلَى كُلِّ سَبْعٍ رَجُلٌ، أَخَذَ الْبَرَّ سِتَّةُ آلافٍ ومائتانِ، وأخذَ الماءَ ألفانِ وثمانمائةٍ.

نزول أمير المؤمنين على ذي قار

لَمَّا الْتَقَوْا بِذِي قَارٍ تَلَقَّاهُمْ عَلِيٌّ فِي أُنَاسٍ، فِيهِمُ ابْنُ عَبَّاسٍ فَرَحَّبَ بِهِمْ، وَقَالَ: يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَنْتُمْ وَلِيتُمْ شَوْكَةَ الْعَجَمِ وَمُلُوكِهِمْ، وَفَضَضْتُمْ جُمُوعَهُمْ، حَتَّى صَارَتْ إِلَيْكُمْ مَوَارِيثُهُمْ، فَأَغْنَيْتُمْ حَوْزَتَكُمْ، وَأَعَنْتُمُ النَّاسَ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَقَدْ دَعَوْتُكُمْ لِتَشْهَدُوا مَعَنَا إِخْوَانَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، فَإِنْ يَرْجِعُوا فَذَاكَ مَا

نُرِيدُ، وَإِنْ يلجُّوا دَاوَيْنَاهُمْ بِالرِّفْقِ، وَبَايَنَّاهُمْ حَتَّى يَبْدَءُونَا بِظُلْمٍ، وَلَنْ نَدَعَ أَمْرًا فِيهِ صَلاحٌ إِلا آثَرْنَاهُ عَلَى مَا فِيهِ الْفَسَادُ إِنْ شَاءَ اللَّه، وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ.

فَاجْتَمَعَ بِذِي قَارٍ سَبْعَةُ آلافٍ وَمِائَتَانِ، وَعَبْدُ الْقَيْسِ بِأَسْرِهَا فِي الطَّرِيقِ بَيْنَ عَلِيٍّ وَأَهْلِ الْبَصْرَةِ يَنْتَظِرُونَ مُرُورَ عَلِيٍّ بِهِمْ، وَهُمْ آلافٌ – وَفِي الْمَاءِ ألفانِ وأربعمائة.

مساعي الإصلاح

لَمَّا نَزَلَ عَلِيٌّ ذَا قَارٍ أَرْسَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ وَالأَشْتَرَ بعدَ محمدِ بنِ أبي بكرٍ ومحمدِ بنِ جَعْفَرٍ، وَأَرْسَلَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعَمَّارًا بَعْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالأَشْتَرِ، فَخَفَّ فِي ذَلِكَ الأَمْرِ جَمِيعُ مَنْ كَانَ نَفَرَ فِيهِ، وَلَمْ يقدِّمْ فِيهِ الْوُجُوهُ أَتْبَاعَهُمْ، فَكَانُوا خَمْسَةَ آلافٍ، أَخَذَ نِصْفُهُمْ فِي الْبَرِّ وَنِصْفُهُمْ فِي الْبَحْرِ، وَخَفَّ مَنْ لَمْ يَنْفِرْ فِيهَا وَلَمْ يَعْمَلْ لَهَا، وَكَانَ عَلَى طَاعَتِهِ مُلازِمًا لِلْجَمَاعَةِ، فَكَانُوا أَرْبَعَةَ آلافٍ، فَكَانَ رُؤَسَاءَ الْجَمَاعَةِ: الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو، وسعدُ بنُ مالكٍ وهندُ بنُ عمروٍ، والهيثمُ بنُ شِهَابٍ ، وَكَانَ رُؤَسَاءَ النُّفَّارِ: زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ، وَالأَشْتَرُ مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ، وَعَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، وَالْمُسَيَّبُ بْنُ نَجَبَةَ، ويزيدُ بْنُ قَيْسٍ وَمَعَهُمْ أَتْبَاعُهُمْ، وَأَمْثَالٌ لَهُمْ لَيْسُوا دُونَهُمْ إِلا أَنَّهُمْ لَمْ يُؤَمَّرُوا، مِنْهُمْ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ، وَابْنُ مَحْدُوجٍ الْبَكْرِيُّ، وَأَشْبَاهٌ لَهُمَا لَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ الْكُوفَةِ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ الرَّأْيِ غَيْرُهُمْ، فَبَادَرُوا فِي الْوَقْعَةِ إِلا قَلِيلاً.

فَلَمَّا نَزَلُوا عَلَى ذِي قَارٍ دَعَا عليٌّ الْقَعْقَاعَ بْنَ عَمْرٍو فَأَرْسَلَهُ إِلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقَالَ لَهُ: اِلْقَ هذينِ الرجُلينِ يابنَ الحنظليَّة – وكان القعقاع من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَادْعُهُمَا إِلَى الأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَعَظِّمْ عَلَيهِمَا الْفُرْقَةَ.

وَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ فِيمَا جَاءَكَ مِنْهُمَا مِمَّا لَيْسَ عِنْدَكَ فِيهِ وَصَاةٌ مِنِّي؟ فَقَالَ: نَلْقَاهُمْ بِالَّذِي أَمَرْتَ بِهِ، فَإِذَا جَاءَ مِنْهُمَا أَمْرٌ لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْكَ فِيهِ رَأْيٌ اجْتَهَدْنَا الرَّأْيَ وَكَلَّمْنَاهُمْ عَلَى قَدْرِ مَا نَسْمَعُ وَنَرَى أَنَّهُ يَنْبَغِي. قَالَ: أَنْتَ لَهَا.

فَخَرَجَ الْقَعْقَاعُ حَتَّى قَدِمَ الْبَصْرَةَ، فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، وَقَالَ: أَيْ أُمَّهْ، مَا أَشْخَصَكِ وَمَا أَقْدَمَكِ هَذِهِ الْبَلْدَةَ؟ قَالَتْ: أَيْ بُنَيَّ، إِصْلاحٌ بَيْنَ النَّاسِ، قَالَ: فَابْعَثِي إِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ حَتَّى تَسْمَعِي كَلامِي وَكَلامَهُمَا، فَبَعَثَتْ إِلَيْهِمَا فَجَاءَا، فَقَالَ: إِنِّي سَأَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ: مَا أَشْخَصَهَا وَأَقْدَمَهَا هَذِهِ الْبِلادَ؟ فَقَالَتْ: إِصْلاحٌ بَيْنَ النَّاسِ، فَمَا تَقُولانِ أَنْتُمَا؟ أَمُتَابِعَانِ أَمْ مُخَالِفَانِ؟ قَالا: مُتَابِعَانِ، قَالَ: فَأَخْبِرَانِي مَا وجهُ هذا الإصلاحِ؟ فواللهِ لَئِنْ عَرَفْنَا لَنُصْلِحَنَّ، وَلَئِنْ أَنْكَرْنَاهُ لا نُصْلِحُ، قَالا: قَتَلَةَ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّ هَذَا إِنْ تُرِكَ كَانَ تَرْكًا لِلْقُرْآنِ، وَإِنْ عُمِلَ به كان إحياءً لِلْقُرْآنِ.

فَقَالَ: قَدْ قَتَلْتُمَا قَتَلَةَ عُثْمَانَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَأَنْتُمْ قَبْلَ قَتْلِهِمْ أَقْرَبُ إِلَى الاستقامةِ منكمُ اليومَ، قَتَلْتُمْ سِتمائةً إِلا رَجُلاً، فَغَضِبَ لَهُمْ سِتَّةُ آلافٍ، وَاعْتَزَلُوكُمْ، وَخَرَجُوا مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ، وَطَلَبْتُمْ ذَلِكَ الَّذِي أَفْلَتَ – يَعْنِي حُرْقُوصَ بْنَ زُهَيْرٍ – فَمَنَعَهُ سِتَّةُ آلافٍ وَهُمْ عَلَى رَجُلٍ، فَإِنْ تَرَكْتُمُوهُ كُنْتُمْ تَارِكِينَ لِمَا تَقُولُونَ، وَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ وَالَّذِينَ اعْتَزَلُوكُمْ، فَأُدِيلُوا عَلَيْكُمْ، فَالَّذِي حَذَرْتُمْ وَقَرَّبْتُمْ بِهِ هَذَا الأَمْرَ أَعْظَمُ مِمَّا أَرَاكُمْ تَكْرَهُونَ، وَأَنْتُمْ أَحْمَيْتُمْ مُضَرَ وَرَبِيعَةَ مِنْ هَذِهِ الْبِلادِ، فَاجْتَمَعُوا عَلَى حَرْبِكُمْ وَخِذْلانِكُمْ نُصْرَةً لِهَؤُلاءِ، كَمَا اجْتَمَعَ هَؤُلاءِ لأَهْلِ هَذَا الْحَدَثِ الْعَظِيمِ وَالذَّنْبِ الْكَبِيرِ.

فَقَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ: فَتَقُولُ أَنْتَ مَاذَا؟ قَالَ: أَقُولُ هَذَا الأَمْرُ دَوَاؤُهُ التَّسْكِينُ، وَإِذَا سَكَنَ اخْتَلَجُوا، فَإِنْ أَنْتُمْ بَايَعْتُمُونَا فَعَلامَةُ خَيْرٍ وَتَبَاشِيرُ رَحْمَةٍ وَدَرَكٌ بِثَأْرِ هَذَا الرَّجُلِ، وَعَافِيَةٌ وَسَلامَةٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ، وَإِنْ أَنْتُمْ أَبَيْتُمْ إِلا مُكَابَرَةَ هَذَا الأَمْرِ وَاعْتِسَافَهِ، كَانَتْ عَلامَةَ شَرٍّ، وَذَهَابَ هَذَا الثَّأْرِ، وَبَعْثَةَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ هَزَاهِزَهَا ، فَآثِرُوا الْعَافِيَةَ تُرْزَقُوهَا، وَكُونُوا مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ كَمَا كُنْتُمْ تَكُونُونَ، وَلا تُعَرِّضُونَا لِلْبَلاءِ وَلا تَعْرِضُوا لَهُ فَيَصْرَعَنَا وَإِيَّاكُمْ. وَايْمُ اللَّهِ إِنِّي لأَقُولُ هَذَا وَأَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وَإِنِّي لَخَائِفٌ أَلا يَتِمَّ حَتَّى يَأْخُذَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَاجَتَهُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي قَلَّ مَتَاعُهَا وَنَزَلَ بِهَا مَا نَزَلَ، فَإِنَّ هَذَا الأَمْرَ الَّذِي حَدَثَ أَمْرٌ لَيْسَ يُقَدَّرُ، وَلَيْسَ كَالأُمُورِ، وَلا كَقَتْلِ الرَّجُلِ الرَّجُلَ، وَلا النَّفَرِ الرَّجُلَ، وَلا الْقَبِيلَةِ الرَّجُلَ.

فَقَالُوا: نَعَمْ، إِذنْ قَدْ أَحْسَنْتَ وَأَصَبْتَ الْمَقَالَةَ، فَارْجِعْ فَإِنْ قَدِمَ عَلِيٌّ وَهُوَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِكَ صَلَحَ هَذَا الأَمْرُ. فَرَجَعَ إِلَى عَلِيٍّ فَأَخْبَرَهُ فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ، وَأَشْرَفَ الْقَوْمُ عَلَى الصُّلْحِ، كَرِهَ ذَلِكَ مَنْ كَرِهَهُ، وَرَضِيَهُ مَنْ رَضِيَهُ.

وَأَقْبَلَتْ وُفُودُ الْبَصْرَةِ نَحْوَ عَلِيٍّ حِينَ نَزَلَ بِذِي قَارٍ، فَجَاءَتْ وُفُودُ تَمِيمٍ وَبَكْرٍ قَبْلَ رَجُوعِ الْقَعْقَاعِ لِيَنْظُرُوا مَا رَأَى إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ نَهَضُوا إِلَيْهِمْ، وَلِيُعْلِمُوهُمْ أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ رَأْيُهُمُ الإِصْلاحَ، وَلا يَخْطُرُ لَهُمْ قِتَالٌ عَلَى بَالٍ. فَلَمَّا لَقُوا عَشَائِرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ بِالَّذِي بَعَثَهُمْ فِيهِ عَشَائِرُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَقَالَ لَهُمُ الْكُوفِيُّونَ مِثْلَ مَقَالَتِهِمْ، وَأَدْخَلُوهُمْ عَلَى عَلِيٍّ فَأَخْبَرُوهُ خَبَرَهُمْ، سَأَلَ عَلِيٌّ جريرَ بْنَ شرسٍ عَنْ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فَأَخْبَرَهُ عَنْ دَقِيقِ أَمْرِهِمَا وَجَلِيلِهِ، حَتَّى تَمَثَّلَ لَهُ:

أَلا أبلغْ بني بكرٍ رسولاً

فليس إلى بني كعبٍ سبيلُ

سيرجعُ ظلمُكمْ منكمْ عليكمْ

طويلَ السَّاعِدَيْنِ لَهُ فُضُولُ

وَتَمَثَّلَ عَلِيٌّ عِنْدَهَا:

أَلَمْ تَعْلَمْ أَبَا سَمْعَانَ أَنَّا

نَرُدُّ الشَّيْخَ مِثْلَكَ ذا الصُّداعِ

ويذهل عقلُهُ بالحربِ حتى

يقومَ فَيَسْتَجِيبَ لِغَيْرِ دَاعِ

فَدَافِعْ عَنْ خُزَاعَةَ جَمْعَ بَكْرٍ

وَمَا بِكَ يَا سُرَاقَةُ مِنْ دِفَاعِ

ولَمَّا جَاءَتْ وُفُودُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ وَرَجَعَ الْقَعْقَاعُ مِنْ عِنْدِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ بِمِثْلِ رَأْيِهِمْ، جَمَعَ عَلِيٌّ النَّاسَ، ثُمَّ قَامَ عَلَى الْغَرَائِرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَكَرَ الْجَاهِلِيَّةَ وَشَقَاءَهَا وَالإِسْلامَ وَالسَّعَادَةَ، وَإِنْعَامِ اللَّهِ عَلَى الأُمَّةِ بِالْجَمَاعَةِ بِالْخَلِيفَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، ثُمَّ حَدَثَ هَذَا الْحَدَثُ الَّذِي جَرَّهُ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ أَقْوَامٌ طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا، حَسَدُوا مَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَى الْفَضِيلَةِ، وَأَرَادُوا رَدَّ الأَشْيَاءَ عَلَى أَدْبَارِهَا، وَاللَّهُ بَالِغٌ أَمْرَهُ، وَمُصِيبٌ مَا أَرَادَ، أَلا وَإِنِّي رَاحِلٌ غَدًا فَارْتَحِلُوا، أَلا وَلا يَرْتَحِلَنَّ غداً أحدٌ أعان على عثمانَ بِشَيْءٍ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ، وَلْيُغْنِ السُّفَهَاءُ عَنِّي أَنْفُسَهُمْ.

رؤوس الفتنة يحبطون مساعي الإصلاح

فَاجْتَمَعَ نَفَرٌ، مِنْهُمْ عِلْبَاءُ بْنُ الْهَيْثَمِ ، وَعَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، وَسَالِمُ بْنُ ثَعْلَبَةَ الْعَبْسِيُّ، وَشُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى بْنِ ضُبَيْعَةَ، وَالأَشْتَرُ، فِي عِدَّةٍ مِمَّنْ سَارَ إِلَى عُثْمَانَ، ورَضِيَ بسَيرِ مَنْ سارَ، وجاء معهمُ الْمِصْرِيُّونَ: ابْنُ السَّوْدَاءِ، وَخَالِدُ بْنُ

مُلْجِمٍ، وَتَشَاوَرُوا، فَقَالُوا: مَا الرَّأْيُ؟ وَهَذَا وَاللَّهِ عَلِيٌّ، وَهُوَ أَبْصَرُ النَّاسِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَأَقْرَبُ مِمَّنْ يَطْلُبُ قَتَلَةَ عُثْمَانَ وَأَقْرَبُهُمْ إِلَى الْعَمَلِ بِذَلِكَ، وَهُوَ يَقُولُ مَا يَقُولُ، وَلَمْ يَنْفِرْ إِلَيْهِ إِلَّا هُمْ وَالْقَلِيلُ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَكَيْفَ بِهِ إِذَا شَامَ الْقَوْمَ وَشَامُوهُ ، وَإِذَا رَأَوْا قِلَّتَنَا فِي كَثْرَتِهِمْ! أَنْتُمْ وَاللَّهِ تُرَادُونَ، وَمَا أَنْتُمْ بِأَنْجَى مِنْ شَيْءٍ.

فَقَالَ الأَشْتَرُ: أَمَّا طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَقَدْ عَرَفْنَا أَمْرَهُمَا، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَلَمْ نَعْرِفْ أَمْرَهُ حَتَّى كَانَ الْيَوْمُ، وَرَأْيُ النَّاسِ فِينَا وَاللَّهُ وَاحِدٌ، وَإِنْ يَصْطَلِحُوا وَعَلِيٌّ فَعَلَى دِمَائِنَا، فَهَلُمُّوا فَلْنَتَوَاثَبْ عَلَى عَلِيٍّ فَنُلْحِقَهُ بِعُثْمَانَ، فَتَعُودَ فِتْنَةً يُرْضَى مِنَّا فِيهَا بِالسُّكُونِ.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ السَّوْدَاءِ: بِئْسَ الرَّأْيُ رَأَيْتَ! أَنْتُمْ يَا قَتَلَةَ عُثْمَانَ مِنْ أَهْلِ الكوفةِ بذي قارٍ ألفانِ وخَمْسمائةٍ أو نحوٍ مِنْ سِتِّمائةٍ، وَهَذَا ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ وَأَصْحَابُهُ فِي خَمْسَةِ آلافٍ بِالأَشْوَاقِ إِلَى أَنْ يَجِدُوا إِلَى قِتَالِكُمْ سَبِيلاً، فَارْقَأْ عَلَى ظلعِك .

وَقَالَ عِلْبَاءُ بْنُ الْهَيْثَمِ: انْصَرِفُوا بِنَا عَنْهُمْ وَدَعُوهُمْ، فَإِنْ قَلُّوا كَانَ أَقْوَى لِعَدُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَثُرُوا كَانَ أَحْرَى أَنْ يَصْطَلِحُوا عَلَيْكُمْ، دَعُوهُمْ وَارْجِعُوا فَتَعَلَّقُوا بِبَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ حَتَّى يَأْتِيَكُمْ فِيهِ مَنْ تَتَّقُونَ بِهِ، وَامْتَنِعُوا مِنَ النَّاسِ.

فَقَالَ ابْنُ السَّوْدَاءِ: بِئْسَ مَا رَأَيْتَ! وَدَّ وَاللَّهِ النَّاسُ أَنَّكُمْ عَلَى جَدِيلَةٍ ، وَلَمْ تَكُونُوا مَعَ أَقْوَامٍ براءٍ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي تَقُولُ لَتَخَطَّفَكُمْ كُلُّ شَيْءٍ.

فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: وَاللَّهِ مَا رَضِيتُ وَلا كَرِهْتُ، وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ تَرَدُّدِ مَنْ تَرَدَّدَ عَنْ قَتْلِهِ فِي خَوْضِ الْحَدِيثِ، فَأَمَّا إِذْ وَقَعَ مَا وَقَعَ وَنَزَلَ مِنَ النَّاسِ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ، فَإِنَّ لَنَا عَتَادًا مِنْ خُيُولٍ وَسِلاحٍ مَحْمُودًا، فَإِنْ أَقْدَمْتُمْ أَقْدَمْنَا، وَإِنْ أَمْسَكْتُمْ أَحْجَمْنَا.

فَقَالَ ابْنُ السَّوْدَاءِ: أَحْسَنْتَ!

وَقَالَ سَالِمُ بْنُ ثَعْلَبَةَ: مَنْ كَانَ أَرَادَ بِمَا أَتَى الدُّنْيَا فَإِنِّي لَمْ أُرِدْ ذَلِكَ، وَاللَّهِ لَئِنْ لَقِيتُهُمْ غَدًا لا أَرْجِعُ إِلَى بَيْتِي، وَلَئِنْ طَالَ بَقَائِي إِذَا أَنَا لاقَيْتُهُمْ لا يَرِدْ عَلَى جَزْرِ جَزُورٍ، وَأَحْلِفُ بِاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَفْرِقُونَ السُّيُوفَ فَرْقَ قَوْمٍ لا تَصِيرُ أُمُورُهُمْ إلا إِلَى السَّيْفِ.

فَقَالَ ابْنُ السَّوْدَاءِ: قَدْ قَالَ قَوْلاً.

وَقَالَ شُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى: أَبْرِمُوا أُمُورَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجُوا، وَلا تُؤَخِّرُوا أَمْرًا يَنْبَغِي لَكُمْ تَعْجِيلُهُ، وَلا تُعَجِّلُوا أَمْرًا يَنْبَغِي لَكُمْ تَأْخِيرُهُ، فَإِنَّا عِنْدَ النَّاسِ بِشَرِّ الْمَنَازِلِ، فَلا أَدْرِي مَا النَّاسُ صَانِعُونَ غَدًا إِذَا ما هُمُ التَقَوا!

وتكلَّمَ ابْنُ السَّوْدَاءِ فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنَّ عِزَّكُمْ فِي خُلْطَةِ النَّاسِ، فَصَانِعُوهُمْ، وَإِذَا الْتَقَى النَّاسُ غَدًا فَأَنْشِبُوا الْقِتَالَ، وَلا تُفَرِّغُوهُمْ لِلنَّظَرِ، فَإِذَا مَنْ أَنْتُمْ مَعَهُ

لا يَجِدُ بُدًّا مِنْ أَنْ يَمْتَنِعَ، ويشغلُ اللَّهُ عَلِيًّا وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَمَنْ رَأَى رَأْيَهُمْ عَمَّا تَكْرَهُونَ، فَأَبْصِرُوا الرَّأْيَ، وَتَفَرَّقُوا عَلَيْهِ وَالنَّاسُ لا يَشْعُرُونَ.

وَأَصْبَحَ عَلِيٌّ عَلَى ظَهْرٍ ، فَمَضَى وَمَضَى النَّاسُ حَتَّى إِذَا انْتَهَى إِلَى عَبْدِ الْقَيْسِ نَزَلَ بِهِمْ وَبِمَنْ خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ وَهُمْ أَمَامَ ذَلِكَ، ثم ارتحلَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ وَهُمْ أَمَامَ ذَلِكَ، وَالنَّاسُ مُتَلاحِقُونَ بِهِ وَقَدْ قَطَعَهُمْ، وَلَمَّا بَلَغَ أَهْلَ الْبَصْرَةِ رَأْيُهُمْ وَنَزَلَ عَلِيٌّ بِحَيْثُ نزلَ، قام أبو الجَرْباءِ إلى الزبيرِ ابنِ الْعَوَّامِ فَقَالَ: إِنَّ الرَّأْيَ أَنْ تَبْعَثَ الآنَ أَلْفَ فَارِسٍ فَيُمَسُّوا هَذَا الرَّجُلَ وَيُصَبِّحُوهُ قَبْلَ أَنْ يُوَافِيَ أَصْحَابَهُ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: يَا أَبَا الْجَرْبَاءِ، إِنَّا لَنَعْرِفُ أُمُورَ الْحَرْبِ، وَلَكِنَّهُمْ أَهْلُ دَعْوَتِنَا، وَهَذَا أَمْرٌ حَدَثَ فِي أَشْيَاءَ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ الْيَوْمِ، هَذَا أَمْرٌ مَنْ لَمْ يَلْقَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ بِعُذْرٍ انْقَطَعَ عُذْرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ إِنَّهُ قَدْ فَارَقَنَا وَافِدُهُمْ عَلَى أَمْرٍ، وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يَتِمَّ لَنَا الصُّلْحُ، فَأَبْشِرُوا وَاصْبِرُوا.

وَأَقْبَلَ صَبْرَةُ بْنُ شَيْمَانَ فَقَالَ: يَا طَلْحَةُ، يَا زُبَيْرُ، انتهزْ ابنا هَذَا الرَّجُلَ فَإِنَّ الرَّأْيَ فِي الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنَ الشِّدَّةِ، فَقَالا: يَا صَبْرَةُ إِنَّا وَهُمْ مُسْلِمُونَ، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ الْيَوْمِ فَيَنْزِلُ فِيهِ قُرْآنٌ، أَوْ يَكُونُ فِيهِ مِنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُنَّةٌ، إِنَّمَا هُوَ حَدَثٌ وَقَدْ زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي تَحْرِيكُهُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَلِيٌّ وَمَنْ مَعَهُ، فَقُلْنَا: نَحْنُ لا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتْرُكَهُ الْيَوْمَ وَلا نُؤَخِّرَهُ فَقَالَ عَلِيٌّ: هَذَا الَّذِي نَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ إِقْرَارِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ شَرٌّ وَهُوَ خَيْرٌ مِنْ شَرٍّ مِنْهُ، وَهُوَ

كَأَمْرٍ لا يُدْرَكُ، وَقَدْ كَادَ أَنْ يَبِينَ لَنَا، وَقَدْ جَاءَتِ الأَحْكَامُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بِإِيثَارِ أَعَمِّهَا مَنْفَعَةً وَأَحْوَطِهَا.

وَأَقْبَلَ كَعْبُ بْنُ سُورٍ فَقَالَ: مَا تَنْتَظِرُونَ يَا قَوْمُ بَعْدُ تُورِدُكُمْ أَوَائِلُهُمْ! اقْطَعُوا هَذَا الْعُنُقَ مِنْ هَؤُلاءِ، فَقَالُوا: يَا كَعْبُ، إِنَّ هَذَا أَمْرٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، وَهُوَ أَمْرٌ مُلْتَبِسٌ، لا وَاللَّهِ ما أخذَ أصحابُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم مُذْ بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ طَرِيقًا إلا عَلِمُوا أَيْنَ مَوَاقِعُ أَقْدَامِهِمْ، حَتَّى حَدَثَ هَذَا، فَإِنَّهُمْ لا يَدْرُونَ أَمُقْبِلُونَ هُمْ أَمْ مُدْبِرُونَ! إِنَّ الشَّيْءَ يَحْسُنُ عِنْدَنَا الْيَوْمَ وَيَقْبُحُ عِنْدَ إِخْوَانِنَا، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَبُحَ عِنْدَنَا وَحَسُنَ عِنْدَهُمْ، وَإِنَّا لَنَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِالْحُجَّةِ فَلا يَرَوْنَهَا حُجَّةً، ثُمَّ يَحْتَجُّونَ بِهَا عَلَى أَمْثَالِهَا، وَنَحْنُ نَرْجُو الصُّلْحَ إِنْ أَجَابُوا إِلَيْهِ وَتَمُّوا، وَإِلا فَإِنَّ آخِرَ الدَّوَاءِ الْكَيُّ.

وَقَامَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَقْوَامٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ يَسْأَلُونَهُ عَنْ إِقْدَامِهِمْ عَلَى الْقَوْمِ، فَقَامَ إِلَيْهِ فِيمَنْ قَامَ الأَعْوَرُ بْنُ بَنَّانٍ الْمِنْقَرِيُّ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: عَلَى الإِصْلاحِ وَإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ[1]، لَعَلَّ اللَّهَ يَجْمَعُ شَمْلَ هَذِهِ الأُمَّةِ بِنَا وَيَضَعُ حَرْبَهُمْ، وَقَدْ أَجَابُونِي، قَالَ: فَإِنْ لَمْ يُجِيبُونَا؟ قَالَ: تَرَكْنَاهُمْ مَا تَرَكُونَا، قَالَ: فإنْ لَمْ يَتْرُكُونَا؟ قَالَ: دَفَعْنَاهُمْ عَنْ أَنْفُسِنَا، قَالَ: فَهَلْ لَهُمْ مِثْلُ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ.

---

[1] النَّائِرَةُ: العداوةُ والشَّحْنَاء.

وَقَامَ إِلَيْهِ أَبُو سَلامَةَ الدَّالانِيُّ[1] فَقَالَ: أَتَرَى لِهَؤُلاءِ الْقَوْمِ حُجَّةً فِيمَا طَلَبُوا مِنْ هَذَا الدَّمِ، إِنْ كَانُوا أَرَادُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَتَرَى لَكَ حُجَّةً بِتَأْخِيرِكَ ذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ الشَّيْءَ إِذَا كَانَ لا يُدْرَكُ فَالْحُكْمُ فِيهِ أَحْوَطُهُ وَأَعَمُّهُ نَفْعًا، قَالَ: فَمَا حَالُنَا وَحَالُكُمْ إِنِ ابْتُلِينَا غَدًا؟ قَالَ: إِنِّي لأَرْجُو أَلا يُقْتَلَ أَحَدٌ نَقَّى قَلْبَهُ لِلَّهِ مِنَّا وَمِنْهُمْ إِلا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ.

وَقَامَ إِلَيْهِ مَالِكُ بْنُ حَبِيبٍ[2]، فَقَالَ: مَا أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا لَقِيتَ هَؤُلاءِ الْقَوْمَ؟ قَالَ: قَدْ بَانَ لَنَا وَلَهُمْ أَنَّ الإِصْلاحَ الْكَفُّ عَنْ هَذَا الأَمْرِ، فَإِنْ بَايَعُونَا فَذَلِكَ، فَإِنْ أَبَوْا وَأَبَيْنَا إِلا الْقِتَالَ فَصَدْعٌ لا يَلْتَئِمُ، قَالَ: فَإِنِ ابْتُلِينَا فَمَا بَالُ قَتْلانَا؟ قَالَ: مَنْ أَرَادَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَفَعَهُ ذَلِكَ وَكَانَ نَجَاءَهُ.

وَقَامَ عَلِيٌّ، فَخَطَبَ النَّاسِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: يَا أَيُّهَا الناسُ، امْلِكُوا أنفسَكم، كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَلْسِنَتَكُمْ عَنْ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ، فَإِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَاصْبِرُوا عَلَى مَا يَأْتِيكُمْ، وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَسْبِقُونَا فَإِنَّ الْمَخْصُومَ غَدًا مَنْ خُصِمَ الْيَوْمَ.

---

[1] عمّار بن أبي سلامة الدالاني الهمداني المشهور بأبي سلامة: صحابي، من أصحاب علي، ومن المجاهدين بين يديه في حروبه الثلاث، الجمل وصفيّن والنهروان. استشهد يوم عاشوراء.

[2] مالك بن حبيب اليربوعي التميمي (ت ٤٠ هـ): له إدراك لعصر النبوة، ومن قادات الفتوح الإسلامية في بلاد فارس. وكان من أصحاب علي بن أبي طالب المقربين، وصاحب شرطته.

ثُمَّ ارْتَحَلَ وَأَقْدَمَ وَدَفَعَ تَعْبِيَتَهُ الَّتِي قَدِمَ فِيهَا، حَتَّى إِذَا أَطَلَّ عَلَى الْقَوْمِ بَعَثَ إِلَيْهِمْ حكيمَ بْنَ سَلامَةَ[1] وَمَالِكَ بْنَ حَبِيبٍ: إِنْ كُنْتُمْ عَلَى مَا فَارَقْتُمْ عَلَيْهِ الْقَعْقَاعَ بنَ عَمْرٍو فَكُفُّوا وَأَقِرُّونَا نَنْزِلْ وَنَنْظُرْ فِي هَذَا الأَمْرِ.

فَخَرَجَ إِلَيْهِ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ وَبَنُو سعدٍ مشمِّرين، قد مَنَعُوا حُرقوصَ ابنَ زُهَيْرٍ، وَلا يَرَوْنَ الْقِتَالَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، إِنَّ قَوْمَنَا بِالْبَصْرَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ إِنْ ظَهَرْتَ عَلَيْهِمْ غَدًا إِنَّكَ تَقْتُلُ رِجَالَهُمْ وَتُسْبِي نِسَاءَهُمْ.

فَقَالَ: مَا مِثْلِي يُخَافُ هَذَا مِنْهُ، وَهَلْ يَحِلُّ هَذَا إِلا مِمَّنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قولِ اللهِ عزَّ وجلَّ: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ»، وَهُمْ قَوْمٌ مُسْلِمُونَ! هَلْ أَنْتَ مُغْنٍ عَنِّي قَوْمَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَاخْتَرْ مِنِّي وَاحِدَةً مِنْ ثِنْتَيْنِ: إِمَّا أَنْ أَكُونَ آتِيكَ فَأَكُونَ مَعَكَ بِنَفْسِي، وَإِمَّا أَنْ أَكُفَّ عَنْكَ عَشَرَةَ آلافِ سَيْفٍ.

فَرَجَعَ إِلَى النَّاسِ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْقُعُودِ وَقَدْ بَدَأَ، فَقَالَ: يالَ خندفٍ، فأجابَه ناسٌ، ثم نادى يالَ تميمٍ! فأجابه ناسٌ، ثم نادى: يالَ سعدٍ، فَلَمْ يَبْقَ سَعْدِيٌّ

---

[1] حكيم بن سلامة الحزامي: والي الموصل في الفترة بين ٣٤ – ٣٦ هـ. شهد معركة القادسية وفتوح العراق. وفي وقعة الجملوأرسله عليّ بن أبي طالب يدعو أهل الجمل مع مالك بن حبيب اليربوعي، أن يكفوا عن القتال، للألفة والجماعة والمحبة.

إلا أَجَابَهُ، فَاعْتَزَلَ بِهِمْ، ثُمَّ نَظَرَ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ، فَلَمَّا وَقَعَ الْقِتَالُ وَظَفَرَ عَلِيٌّ جَاءُوا وَافِرِينَ، فَدَخَلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ.

وكذلك أَرْسَلَ عِمْرَانُ بنُ حُصَيْنٍ فِي النَّاسِ يُخَذِّلُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا، كما صَنَعَ الأَحْنَفُ، وَأَرْسَلَ إِلَى بَنِي عَدِيٍّ فِيمَنْ أَرْسَلَ، فَأَقْبَلَ رَسُولُهُ حَتَّى نَادَى عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِمْ: أَلا إِنَّ أَبَا نُجَيْدٍ عِمْرَانَ بْنَ الْحُصَيْنِ يُقْرِئُكُمُ السَّلامَ، وَيَقُولُ لَكُمْ: وَاللَّهِ لأَنْ أَكُونَ فِي جَبَلِ حضنٍ مَعَ أَعْنُزٍ خُضْرٍ وَضَأْنٍ، أَجُزُّ أَصْوَافَهَا، وَأَشْرَبُ أَلْبَانَهَا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَرْمِيَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَيْنِ الصَّفَّيْنِ بِسَهْمٍ، فَقَالَتْ بَنُو عَدِيٍّ جَمِيعًا بِصَوْتٍ وَاحِدٍ: إِنَّا وَاللَّهِ لا نَدَعُ ثَفَلَ[1] رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِشَيْءٍ – يَعْنُونَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ[2].

وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ فِرَقٌ: فِرْقَةٌ مَعَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، وَفِرْقَةٌ مَعَ عَلِيٍّ، وَفِرْقَةٌ لا تَرَى الْقِتَالَ مَعَ أَحَدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.

وَجَاءَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – مِنْ مَنْزِلِهَا الَّذِي كَانَتْ فِيهِ حَتَّى نَزَلَتْ فِي مَسْجِدِ الْحُدَّانِ فِي الأَزْدِ، وَكَانَ الْقِتَالُ فِي سَاحَتِهِمْ، وَرَأْسُ الأَزْدِ يَوْمَئِذٍ صَبِرَةُ بْنُ شَيْمَانَ[3]، فَقَالَ لَهُ كَعْبُ بْنُ سُورٍ: إِنَّ الْجُمُوعَ إِذَا تَرَاءَوْا لَمْ تَسْتَطِعْ،

---

[1] الثَّفَل: البِساط يوضع تحت الشيء. وهو هنا كناية عن الزوجة.

[2] يعني رفضوا كلام عمران بن حصين فانحازوا إلى عائشة.

[3] صبرة بن شيمان الأزدي (٢٠ ق هـ – ٤١ هـ): صحابي من الأشراف، رأس الأزد في أيامه. شهد الفتوحات العربية لتحرير العراق، وكان رأس شنوءة في الفتوح زمن عمر بن الخطاب، نزل هو

وَإِنَّمَا هِيَ بُحُورٌ تَدَفَّقُ، فَأَطِعْنِي وَلا تَشْهَدْهُمْ، وَاعْتَزِلْ بِقَوْمِكَ، فَإِنِّي أَخَافُ أَلا يَكُونَ صُلْحٌ، وَدَعْ مُضَرَ وَرَبِيعَةَ، فَهُمَا أَخَوَانِ، فَإِنِ اصْطَلَحَا فَالصُّلْحُ مَا أَرَدْنَا، وَإِنِ اقْتَتَلا كُنَّا حُكَّامًا عَلَيْهِمْ غَدًا – وَكَانَ كَعْبٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَصْرَانِيًّا – فَقَالَ صَبرَةُ: أَخْشَى أَنْ يَكُونَ فِيكَ شَيْءٌ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ، أَتَأْمُرُنِي أَنْ أَغِيبَ عَنْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَنْ أَخْذُلَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ إِنْ رَدُّوا عَلَيْهِمُ الصُّلْحَ، وَأَدَعَ الطَّلَبَ بِدَمِ عُثْمَانَ! لا وَاللَّهِ لا أَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَدًا، فَأَطْبَقَ أَهْلُ الْيَمَنِ عَلَى الْحُضُورِ.

ولَمَّا رَجَعَ الأحنفُ بنُ قيس من عِنْد عليٍّ لَقِيَه هلالُ بنُ وكيعِ بنِ مالكِ بنِ عَمْرٍو[1]، فَقَالَ للأحنَفِ: مَا رأيُك؟ قَالَ: الاعتزالُ، فما رأيُك؟ قَالَ هلالٌ: مكانَفَةُ أمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أفتَدَعُنا وأنتَ سيدُنا! قَالَ: إنما أكون سيِّدَكم غداً إذا قُتِلْتَ وبَقِيتُ، فَقَالَ هلالٌ: هَذَا وأنتَ شيخُنا! فَقَالَ: أنا الشيخُ المعصِي،

وقومه البصرة، وكان لهم جامع، وهو الجامع الذي نزلته السيدة عائشة يوم الجمل. وكان في وقعة الجمل على راية الأزد مع عائشة ويوم صفين مع عليّ.

[1] هلال بن وكيع التميمي (٢٠ ق هـ – ٣٦ هـ): فارس، خطيب، ومن رؤساء بني تميم. مولده ومقتله في البصرة، وفد على عمر بن الخطاب لما ولي الخلافة في وفد من البصرة مع الأحنف بن قيس، وكانت له رئاسة بني تميم في زمن الخليفة عمر، كان في آخر أمره على ميسرة جيش عائشة في يوم الجمل، وكان على راية بني تميم، فقتله مالك بن الأشتر.

وأنتَ الشابُّ المطاع. فاتَّبعتْ بنو سعدٍ الأحنَفَ، فاعتزلَ بهم إِلَى وادي السِّباع، واتَّبعتْ بنو حنظلةَ هلالاً، وتابعتْ بنو عَمْرٍو أبا الجَرْبَاء فقاتَلوا.

وكانوا لَمَّا أقبلَ الأحنفُ نادَى: يا لَأَدٍّ، اعتزِلُوا هَذَا الأمرَ، ووَلُّوا هَذَيْنِ الفريقينِ كَيْسَه وعَجْزَه[1]، فقام المنجابُ بنُ راشدٍ[2] فقال: يالَ الربابِ! لا تعتزِلوا، واشهَدُوا هَذَا الأمرَ، وتوَلُّوا كَيْسَه.

فلما قال: يالَ تميمٍ، اعتزِلُوا هَذَا الأمرَ ووَلُّوا هَذَيْنِ الفريقينِ كَيْسَه وعَجْزَه، قام أَبُو الجَرْباء – وَهُوَ من بني عثمانَ بنِ مالكِ بنِ عمرِو بنِ تميم – فقال: يالَ عمرٍو، لا تعتزِلوا هَذَا الأمرَ وتولُّوا كَيْسَه، فكان أَبُو الجَرْباءِ عَلَى بني عَمْرو بن تميم، والمنجابُ بنُ راشدٍ عَلَى بني ضبَّة.

فلمَّا قال: يالَ زيدِ مناةٍ، اعتزِلوا هَذَا الأمرَ، ووَلُّوا هَذَيْنِ الفريقينَ كَيْسَه وعَجْزَه قَالَ هلالُ بنُ وكيعٍ: لا تعتزِلوا هذا الأمرَ، ونادَى: يالَ حنظلةَ تولُّوا كَيْسَه، فكان هلالٌ عَلَى حنظلةَ، وطاوعتْ سعدُ الأحنفَ، واعتزَلوا إِلَى وادي السِّباعِ.

---

[1] الكَيس والعجز: ضدان، الأول القدرة، والآخر الضعف.

[2] المِنْجابُ بنُ رَاشد الضبي: صحابي من أشراف الكوفة.

وكَانَ عَلَى هوازنَ وعلى بني سليمٍ والأعجازِ مجاشِعُ بنُ مسعودٍ السلميُّ[1]، وعلى عَامِرِ زُفَرُ بنُ الْحَارِث[2]، وعلى غطفانَ أعصُرُ بنُ النُّعْمَانِ الباهليُّ[3]، وعلى بكرِ بنِ وائلٍ مالكُ بنُ مسمعٍ[4]، واعتزلتْ عبدُ القيس إِلَى عليٍّ إلا رجلاً فإنه أقام، ومِن بكرِ بنِ وائلٍ قيام، واعتزل مِنْهُمْ مثلُ مَنْ بَقِي مِنْهُمْ، عَلَيْهِم سنانٌ، وكانت الأزدُ عَلَى ثلاثةِ رؤساء: صبرة بن شيمان، ومسعود، وزياد بن عَمْرو، والشواذبُ عَلَيْهِم رجلان: عَلَى مُضَر الخريتُ بنُ راشد،

---

[1] مُجَاشِع بن مَسْعود السلمي: صحابي أسلم بعد الفتح فجاء بابن أخ له لمبايعة النبي على الهجرة، فقال النبي: «لاَ، بَلْ نُبَايِعُ عَلَى الإِسْلاَمِ؛ فَإِنَّهُ لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ». شارك في فتح فارس، وغزا كابل، وصالحه الأصبهذ ملكها، وقيل إنه فتح حصن أبرويز، ومدينة توّج، وغزا مكران. كان يوم الجَمَل مع عائشة أميراً على بني سليم، فقتل قبل المعركة، ودفن بالبصرة.

[2] زفر بن الحارث الكلابي: تابعي من أهل الجزيرة الفراتية، وكبير قيس عيلان، وكان من الأمراء. سكن البصرة، وخرج مع جيشها لإعانة عثمان بن عفان في حصار الفتنة. وشهد موقعة الجَمَل مع السيدة عائشة أم المؤمنين، ثم توجه إلى الشام بعدها، وشهد معركة صفين مع معاوية بن أبي سفيان. توفي في خلافة عبد الملك بن مروان، في بضع وسبعين من الهجرة.

[3] لم أجده.

[4] مالك بن مسمع بن شيبان البكري: سيد ربيعة وزعيم بكر بن وائل في البصرة. وفد على معاوية بن أبي سفيان، وشهد معركة الجفرة وفقئت عينه فيها على يد عباد بن الحصين، وتوفي في عام ٧٣ هـ في زمن الخليفة عبد الملك بن مروان بالبصرة.

وعلى قضاعةَ والتوابعِ الرعيُّ الجرميُّ – وَهُوَ لقب – وعلى سائرِ اليمنِ ذو الآجرة الحميريُّ.

فخرج طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فنزلا بِالنَّاسِ مِنَ الزابوقةِ، فِي موضعِ قريةِ الأَرْزاقِ، فنزلتْ مُضَرُ جميعاً وهم لا يشكُّون فِي الصُّلح، ونزلتْ رَبِيعَةُ فوقَهم جميعاً وهم لا يشكُّون فِي الصُّلح، ونزلتِ اليمنُ جميعاً أسفلَ مِنْهُمْ، وهم لا يشكُّون فِي الصُّلح، وعائشةُ فِي الحَدَّانِ، والناسُ فِي الزابوقة، عَلَى رؤسائهم هَؤُلاءِ وهم ثلاثون ألفاً، وردُّوا حُكَيماً ومالِكاً إِلَى عليٍّ، بأنا عَلَى مَا فارقنا عَلَيْهِ القعقاع فاقدُمْ، فخَرَجا حَتَّى قَدِما عَلَيْهِ بِذَلِكَ، فارتحلَ حَتَّى نزلَ عَلَيْهِم بحيالِهم، فنزلتِ القبائلُ إِلَى قبائلهم: مضرُ إِلَى مضرَ، وربيعةُ إِلَى رَبِيعَةَ، واليمنُ إِلَى اليمنِ، وهم لا يشكُّون فِي الصُّلح، فكان بعضُهم بحيالِ بعضٍ، وبعضُهم يخرُجُ إِلَى بعضٍ، وَلا يذكرون وَلا ينوون إلا الصُّلحَ، وخَرَجَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فيمن مَعَهُ، وهم عشرون ألفاً، وأهلُ الْكُوفَة عَلَى رؤسائهم الَّذِينَ قدِموا معهم ذا قارٍ، وعبدُ القيسِ عَلَى ثلاثةِ رؤساءٍ: جذيمةَ وبكر عَلَى ابن الجارود، والعمور عَلَى عَبْد اللَّهِ بن السوداء، وأهل هجر عَلَى ابن الأشج، وبكر بن وائل من أهل الْبَصْرَة عَلَى ابن الْحَارِث بن نهار، وعلى دنور بن علي الزُّط والسَّيابجة، وقدم عليٌّ ذا قارٍ فِي عشرةِ آلافٍ، وانضم إِلَيْهِ عشرةُ آلافٍ.

فلما نزل الناسُ واطمأنُّوا، خرج عليٌّ وخَرَجَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، فتواقَفُوا، وتكلَّموا فِيمَا اختَلَفُوا فِيهِ، فلم يجدوا أمراً هُوَ أمثلُ من الصُّلح ووضْعِ الحرْبِ حين رأوا

الأمرَ قَدْ أخذ فِي الانقشاع، وأنه لا يُدرك، فافترقُوا عن موقفِهم عَلَى ذَلِكَ، ورجَعَ عليٌّ إِلَى عسكرِهِ، وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ إِلَى عسكرِهما.

المعركة بأيدي قتلة عثمان

وَبَعَثَ عَلِيٌّ مِنَ الْعَشِيِّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ إِلَى طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، وَبَعَثَا هُمَا مِنَ الْعَشِيِّ مُحَمَّدَ بْنَ طَلْحَةَ إِلَى عَلِيٍّ، وَأَنْ يُكَلِّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابَهُ، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَلَمَّا أَمْسَوْا – وَذَلِكَ فِي جُمَادَى الآخِرَةِ – أَرْسَلَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ إِلَى رُؤَسَاءِ أَصْحَابِهِمَا، وَأَرْسَلَ عَلِيٌّ إِلَى رُؤَسَاءِ أَصْحَابِهِ، مَا خَلا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَثَارُوا أَمْرَ عُثْمَانَ، فَبَاتُوا عَلَى الصُّلْحِ، وَبَاتُوا بِلَيْلَةٍ لَمْ يَبِيتُوا بِمِثْلِهَا لِلْعَافِيَةِ مِنَ الَّذِي أَشْرَفُوا عَلَيْهِ، وَالنُّزُوعِ عَمَّا اشْتَهَى الَّذِينَ اشْتَهَوْا، وَرَكِبُوا مَا رَكِبُوا، وَبَاتَ الَّذِينَ أَثَارُوا أَمْرَ عُثْمَانَ بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتُوهَا قَطُّ، قَدْ أَشْرَفُوا عَلَى الْهَلَكَةِ، وَجَعَلُوا يَتَشَاوَرُونَ لَيْلَتَهُمْ كُلَّهَا، حَتَّى اجْتَمَعُوا عَلَى إِنْشَابِ الْحَرْبِ فِي السِّرِّ، وَاسْتَسَرُّوا بِذَلِكَ خَشْيَةَ أَنْ يُفْطَنَ بِمَا حَاوَلُوا مِنَ الشَّرِّ، فَغَدَوْا مَعَ الْغَلَسِ، وَمَا يَشْعُرُ بِهِمْ جِيرَانُهُمْ، انْسَلُّوا إِلَى ذَلِكَ الأَمْرِ انْسِلالاً، وَعَلَيْهِمْ ظُلْمَةٌ، فَخَرَجَ مُضَرِيهم إِلَى مُضَرِيهم، وَرَبَعِيهِمْ إِلَى رَبَعِيهِمْ، وَيَمَانِيهِمْ إِلَى يَمَانِيهِمْ، فَوَضَعُوا فِيهِمُ السِّلاحَ، فَثَارَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ، وَثَارَ كُلُّ قَوْمٍ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ بَهَتُوهُمْ[1]،

[1] بهتوهم: كذبوهم.

وَخَرَجَ الزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ فِي وُجُوهِ النَّاسِ مِنْ مُضَرَ فبعثا الى الميمنةِ، وهم ربيعةُ، يعبؤها عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَإِلَى الميسرة عبد الرحمن بن عتاب ابن أُسَيْدٍ، وَثَبَتَا فِي الْقَلْبِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: طَرَقَنَا أَهْلُ الْكُوفَةِ لَيْلاً، فَقَالا: قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ عَلِيًّا غَيْرُ مُنْتَهٍ حَتَّى يَسْفِكَ الدِّمَاءَ، وَيَسْتَحِلَّ الْحُرْمَةَ، وَأَنَّهُ لَنْ يُطَاوِعَنَا[1]، ثُمَّ رَجَعَا بِأَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَقَصَفَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ أُولَئِكَ حَتَّى رَدُّوهُمْ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، فَسَمِعَ عَلِيٌّ وَأَهْلُ الْكُوفَةِ الصَّوْتَ، وَقَدْ وَضَعُوا رَجُلًا قَرِيبًا مِنْ عَلِيٍّ لِيُخْبِرَهُ بِمَا يُرِيدُونَ، فَلَمَّا قَالَ: مَا هذا؟ قال ذاك الرجلُ: ما فَجَأنا إِلا وَقَوْمٌ مِنْهُمْ بَيَّتُونَا، فَرَدَدْنَاهُمْ مِنْ حَيْثُ جَاءُوا، فَوَجَدْنَا الْقَوْمَ عَلَى رَجُلٍ فَرَكِبُونَا، وَثَارَ النَّاسُ، وَقَالَ عَلِيٌّ لِصَاحِبِ مَيْمَنَتِهِ: ائْتِ الْمَيْمَنَةَ، وَقَالَ لِصَاحِبِ مَيْسَرَتِهِ: ائْتِ الْمَيْسَرَةَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ غَيْرَ مُنْتَهِيَيْنِ حَتَّى يَسْفِكَا الدِّمَاءَ، وَيَسْتَحِلا الْحُرْمَةَ، وَأَنَّهُمَا لَنْ يُطَاوِعَانَا، وَالسَّبَئِيَّةُ لا تَفْتُرُ إِنْشَابًا.

وَنَادَى عَلِيٌّ فِي النَّاسِ: أَيُّهَا النَّاسُ، كُفُّوا فَلا شَيْءَ، فَكَانَ مِنْ رَأْيِهِمْ جَمِيعًا فِي تِلَكَ الْفِتْنَةِ أَلا يَقْتَتِلُوا حَتَّى يُبْدَءُوا، يَطْلُبُونَ بِذَلِكَ الْحُجَّةَ، وَيَسْتَحِقُّونَ[2]

---

[1] وهي فرصة ثمينة لإبليس.

[2] يستحقون: يطلبون الحق.

عَلَى الآخَرِينَ، وَلا يَقْتُلُوا مُدْبِرًا، وَلا يُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ، وَلا يَتْبعُوا. فَكَانَ مِمَّا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الْفَرِيقَانِ وَنَادَوْا فِيمَا بَيْنَهُمَا.

وَأَقْبَلَ كَعْبُ بْنُ سُورٍ حَتَّى أَتَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ: أَدْرِكِي فَقَدْ أَبَى الْقَوْمُ إِلا الْقِتَالَ، لَعَلَّ اللَّهَ يُصْلِحُ بِكِ، فَرَكِبَتْ، وَأَلْبَسُوا هَوْدَجَهَا الأَدْرَاعَ، ثُمَّ بَعَثُوا جَمَلَهَا، وَكَانَ جَمَلُهَا يُدْعَى عَسْكَرًا، حَمَلَهَا عَلَيْهِ[1] يَعْلَى بْنُ أُمَيَّةَ، اشْتَرَاهُ بِمِائَتَيْ دِينَارٍ، فَلَمَّا بَرَزَتْ مِنَ الْبُيُوتِ – وَكَانَتْ بِحَيْثُ تَسْمَعُ الْغَوْغَاءَ – وَقَفَتْ، فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ سَمِعَتْ غَوْغَاءَ شَدِيدَةً، فَقَالَتْ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: ضَجَّةُ الْعَسْكَرِ، قَالَتْ: بِخَيْرٍ أَوْ بِشَرٍّ؟ قَالُوا: بِشَرٍّ، قَالَتْ: فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ كَانَتْ مِنْهُمْ هَذِهِ الضَّجَّةُ فهمُ المهزومونَ، وهي واقفةٌ، فوالله مَا فَجَأَهَا إِلا الْهَزِيمَةُ.

فَمَضَى الزُّبَيْرُ مِنْ سَنَنِهِ فِي وَجْهِهِ، فَسَلَكَ وَادِيَ السِّبَاعِ، وَجَاءَ طَلْحَةَ سَهْمُ غَرْبٍ[2] يُخِلُّ رُكْبَتَهُ بِصَفْحَةِ الْفَرَسِ، فَلَمَّا امْتَلأَ مَوْزَجُهُ[3] دَمًا وَثَقُلَ قَالَ لِغُلامِهِ: أَرْدِفْنِي وَأَمْسِكْنِي، وَابْغِنِي مَكَانًا[4] أَنْزِلُ فِيهِ، فَدَخَلَ الْبَصْرَةَ وَهُوَ يَتَمَثَّلُ مثْلَهُ وَمثْلَ الزُّبَيْرِ:

---

[1] اشتراه لها.

[2] سهم غرب: لا يدرى راميه.

[3] موزجه: خُفُّه، والموزج معرَّب من الفارسية.

[4] ابغني مكانا: التمس لي مكاناً.

فَإِنْ تَكُنِ الْحَوَادِثُ أَقْصَدَتْنِي وَأَخْطَأَهُنَّ سَهْمِي حِينَ أَرْمِي[1]
فَقَدْ ضُيِّعْتُ حِينَ تَبِعْتُ سَهْمًا سِفَاهًا مَا سَفِهَتُ وَضَلَّ حَلْمِي
نَدِمْتُ نَدَامَةً الْكُسَعِيِّ[2] لَمَّا شَرِبتُ رِضَا بَنِي سَهْمٍ بِرُغْمِي
أَطَعْتُهُمُ بِعَرْقَةِ آلِ لَأْيٍ فَأَلْقَوْا لِلسِّبَاعِ دَمِي وَلَحْمِي

وفي رواية أخرى

ولما انهزم الناسُ فِي صدْرِ النَّهار، نادى الزُّبَيْرُ: أنا الزُّبَيْر، هلُمُّوا إليَّ أَيُّهَا النَّاسُ، وَمَعَهُ مولى لَهُ ينادي: أعنْ حواريِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنهزمون! وانصرف الزُّبَيْرُ نحو وادي السِّباع، واتَّبعه فرسان، وتشاغل الناسُ

---

[1] وهذه الأبيات في في ديوان الحطيئة.

[2] الكسعي: رجلٌ يُنسب إلى كُسَع (قبيلة في اليمن) يُضربُ به المثل في الندامة، من خبره أنهُ كان يرعى إبله في البر فرأى شجيرة يصلح خشبها للسهام فسقاها من قِربته وظل يسقيها كل يوم مما يحمل من ماء حتى استوى عودها وصنع منها قوسا وخمسة أسهم. ثم أتى الرجلُ على أرض صخرية تكثر فيها الظباء، فكمن خلف صخرة ورمى ظبياً بسهم فقدح السهم في صخرة فظن الكسعي أن السهم قد خاب، وكمن حتى أتى سرب آخر ورمى ظبياً آخر فقدح السهم شرراً في الصخر، وصنع الأمر نفسه بسهامه الخمسة، فاستبد به الغضب فهوى بقوسه على الصخرة فكسر القوس تكسيراً. غير أنه بعدما خرج من مكمنه وجد خمسة ظباء مصابة على الأرض، فعلم أن أسهمه كانت تخترق كل ظبي ثم تقتدح في الصخر، فندم على كسر قوسه. ثم قال:

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذا لقطعت خمسي
تبين لي سفاه الرأي مني لعمر أبيك حين كسرت قوسي

عنه بِالنَّاسِ، فلما رَأَى الفرسانَ تتبعُه عطف عَلَيْهِم، ففرَّق بينهم، فكرُّوا عليه، فلما عرفوه قالوا: الزبير! فدعوه، فلما نفر فِيهِمْ علباءُ بنُ الهيثم، ومرَّ القعقاعُ فِي نفرٍ بطلحةَ وَهُوَ يقولُ: إليَّ عبادَ اللَّه، الصبرَ الصبرَ! قَالَ لَهُ: يَا أَبَا مُحَمَّد، إنكَ لجريحٌ، وإنك عمَّا تريدُ لعليلٌ، فادخُلِ الأبياتَ، فَقَالَ: يَا غلامُ، أدْخِلني وابْغِني مكاناً، فأُدْخِلَ الْبَصْرَةَ وَمَعَهُ غلامٌ ورجُلانِ، فاقتتلَ الناسُ بعدَه، فأقبل الناسُ فِي هزيمتهم تِلْكَ وهم يريدون الْبَصْرَة.

فلما رأوا الجملَ أطافتْ بِهِ مُضَرُ عادُوا قلباً كما كَانُوا حَيْثُ التقوا، وعادوا إِلَى أمرٍ جديد، ووقفتْ رَبِيعَةُ الْبَصْرَة، مِنْهُمْ ميمنةٌ ومنهم ميسرةٌ، وقالتْ عَائِشَةُ: خلِّ يَا كعبُ عنِ البعير، وتقدمْ بكتابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فادعُهم إِلَيْهِ، ودفعتْ إِلَيْهِ مصحفاً، وأقبل القومُ وأمامَهم السَّبئيةُ يخافون أن يجريَ الصُّلحُ، فاستقبلَهم كعبٌ بالمصحفِ، وعليٌّ مِن خلفِهم يَزَعُهم، ويأبُون إلا إقداماً، فلما دعاهم كعبٌ رشَقُوه رشقاً واحداً، فقتلُوه، ورمَوا عَائِشَةَ فِي هودَجِها، فجعلتْ تنادِي: يَا بَنِي، البقيةَ البقيةَ – ويعلو صوتُها كثرةً – اللَّهَ اللَّهَ، اذكرُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ والحسابَ، فيأبُون إلا إقداماً، فكان أولَ شَيْءٍ أحدثتْه حين أبَوا أنْ قالت: أَيُّهَا النَّاسُ، الْعَنوا قتلةَ عُثْمَانَ وأشياعَهم، وأقبلتْ تَدْعو.

وضَجَّ أهلُ الْبَصْرَةِ بالدعاءِ، وسمِعَ عَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ الدعاءَ فَقَالَ: مَا هَذِهِ الضَّجَّةُ؟ قَالُوا: عَائِشَةُ تَدْعُو عَلَى قَتَلَةِ عُثْمَانَ وَأَشْيَاعِهِمْ. فَقَالَ عَلِيٌّ: اللَّهُمَّ الْعَنْ قَتَلَةَ عُثْمَانَ.

أَرْسَلَتْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَتَّابٍ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَرْثِ بْنِ هِشَامٍ أَنِ اثْبُتَا مَكَانَكُمَا، وَحَرَّضَتِ النَّاسَ حِينَ رَأَتِ الْقَوْمَ يُرِيدُونَهَا وَلَا يَكُفُّونَ، فَحَمَلَتْ مُضَرُ الْبَصْرَةِ حَتَّى قَصَفَتْ مُضَرَ الْكُوفَةِ، حَتَّى زوحم عليٌّ، فنخس عليٌّ قفا مُحَمَّد[1]، وَقَالَ: احملْ، فنكلَ، فاهوى عليٌّ الى الرايةِ ليأخذَها مِنْهُ، فحَمَلَ، فترك الرايةَ فِي يدِه، وَحَمَلَتْ مُضَرُ الْكُوفَةِ، فَاجْتَلَدُوا قُدَّامَ الْجَمَلِ حَتَّى ضَرَسُوا[2]، وَالْمُجَنِّبَتَانِ عَلَى حَالِهِمَا لَا تَصْنَعُ شَيْئًا، وَمَعَ عَلِيٍّ قَوْمٌ مِنْ غَيْرِ مُضَرَ، مِنْهُمْ زَيْدُ بْنُ صُوحَانَ، طَلَبُوا ذَلِكَ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: تَنَحَّ إِلَى قَوْمِكَ، مَا لَكَ وَلِهَذَا الْمَوْقِفِ؟ أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ مُضَرَ بِحِيَالِكَ، وَالْجَمَلَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَنَّ الْمَوْتَ دُونَهُ؟ فَقَالَ: الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنَ الْحَيَاةِ، الْمَوْتَ أُرِيدُ، فَأُصِيبَ هُوَ وَأَخُوهُ سَيْحَانُ، وَارْتُثَّ صَعْصَعَةُ أَخُوهُمَا، وَاشْتَدَّتِ الْحَرْبُ، فَلَمَّا رَأَى عَلِيٌّ ذَلِكَ بَعَثَ إِلَى رَبِيعَةَ وَإِلَى الْيَمَنِ أَنِ اجْمَعُوا مَنْ يَلِيكُمْ. فَقَامَ رَجُلٌ مَنْ عَبْدِ الْقَيْسِ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ فَقَالَ: نَدْعُوكُمْ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ، فَقَالُوا: وَكَيْفَ يَدْعُونَا إِلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَقِيمُ وَلَا يُقِيمُ حُدُودَ اللَّهِ، وَقَدْ قَتَلَ كَعْبَ بْنَ سُورٍ دَاعِيَ اللَّهِ! وَرَمَتْهُ رَبِيعَةُ رَشْقًا وَاحِدًا فَقَتَلُوهُ.

---

[1] ابنه. وَكَانَتِ الرَّايَةُ مَعَهُ.

[2] ضرسوا: عضوا أصابعهم بالأضراس.

وَقَامَ مُسْلِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعِجْلِيُّ مَكَانَهُ، فَرَشَقُوهُ رَشْقًا وَاحِدًا فَقَتَلُوهُ، وَدَعَتْ يَمَنُ الْكُوفَةِ يَمَنَ الْبَصْرَةِ فَرَشَقُوهُمْ.

وكَانَ القتال الأول يستحر إِلَى انتصاف النهار، وأصيب فِيهِ طَلْحَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذهبَ فِيهِ الزُّبَيْرُ، فلما أوَوا إِلَى عَائِشَةَ وأبى أهلُ الْكُوفَةِ إلا القتالَ، ولم يريدوا إلا عَائِشَةَ، ذمرتهم عَائِشَةُ، فاقتتلوا حَتَّى تنادَوا فتحاجَزُوا، فرجَعُوا بعد الظُّهر فاقتَتَلوا، وَذَلِكَ يومَ الخَميس فِي جمادى الآخرة، فاقتتلوا صدْرَ النهارِ مع طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، وفي وسطِه مع عَائِشَةَ، وتزاحف الناسُ، فهزمتْ يَمَنُ الْبَصْرَةِ يَمَنَ الْكُوفَةِ، وربيعةُ الْبَصْرَةِ رَبِيعَةَ الْكُوفَةِ، ونَهَدَ[1] عليٌّ بمضرِ الْكُوفَةِ إِلَى مضرِ الْبَصْرَةِ، وَقَالَ: إن الموتَ ليس مِنْهُ فوتٌ، يدرك الهاربُ، وَلا يترك المقيمُ.

واقتتلتِ المجنِّبتان حين تزاحفتا قتالاً شديداً، يشبه مَا فِيهِ القلبانِ، واقتتل أهلُ اليَمَن، فقُتِلَ عَلَى رايةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أهلِ الْكُوفَة عشرةٌ، كلما أخذَها رجلٌ، قُتِلَ مْسةٌ مِنْ هَمْدَانَ، وَخَمْسَةٌ مِنْ سَائِرِ الْيَمَنِ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ يَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ أَخَذَهَا فَثَبَتَتْ فِي يَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ:

قَدْ عِشْتِ يَا نَفْسِي وَقَدْ غَنِيتِ ... دَهْرًا فَقَدْكِ الْيَوْمَ مَا بَقِيتِ

أَطْلُبُ طُولَ الْعُمْرِ مَا حَيِيتِ

وإنما تمثَّلها وَهُوَ قولُ الشاعرِ قبلَه.

---

[1] شجعهم على النهوض والصمود.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَمِرَانِ الْهَمْدَانِيُّ:

جَرَّدْتُ سَيْفِي فِي رِجَالِ الْأَزْدِ ... أَضْرِبُ فِي كَهَوْلِهِمْ وَالْمُرْدِ

كُلَّ طَوِيلِ السَّاعِدَيْنِ نَهْدِ

وأقبلت رَبِيعَةُ، فقُتِلَ عَلَى رايةِ الميسرةِ مِنْ أهلِ الْكُوفَةِ زَيْدٌ، وصُرِعَ صعصعةُ، ثُمَّ سَيحانُ، ثُمَّ عَبْدُ اللَّهِ بن رقبةَ بنِ الْمُغِيرَة، ثُمَّ أبو عبيدةَ بنُ راشدِ بنِ سلمى وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَنْتَ هَدَيْتَنَا مِنَ الضَّلَالَةِ، وَاسْتَنْقَذْتَنَا مِنَ الْجَهَالَةِ، وَابْتَلَيْتَنَا بِالْفِتْنَةِ، فَكُنَّا فِي شُبْهَةٍ وَعَلَى رِيبَةٍ، حَتَّى قُتِلَ.

ثُمَّ الحصينُ بنُ معبدِ بنِ النُّعْمَانِ، فأعطاها ابنَه معبَداً، وجعل يقولُ: يَا معبدُ، قرب لها بوها تحدب، فثبتَتْ فِي يدِه.

ولَمَّا رأتِ الكماةُ[1] مِنْ مُضَرِ الْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ الصَّبْرَ تَنَادَوْا: طَرِّفُوا إِذَا فَرَغَ الصَّبْرُ، فَجَعَلُوا يتوجَّؤون الأطرافَ[2]: الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلَ، فَمَا رُؤِيَ وَقْعَةٌ كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْهَا قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا، وَلَا أَكْثَرَ ذَرَاعًا مَقْطُوعَةً وَلَا رِجْلًا مَقْطُوعَةً، لا يُدْرَى مَنْ صاحبُها.

وأصيبتْ يدُ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ عتَّابٍ يَوْمَئِذٍ قبل قتلِه، وَكَانَ الرجلُ مِنْ هَؤُلاءِ وهؤلاءِ إذا أصيبَ شَيْءٍ من أطرافِه استقتلَ إِلَى أن يُقتلَ.

---

[1] الشجعان.

[2] يتوجؤون الأطراف: يضربونهم في أيديهم وأرجلهم.

واشْتَدَّ الأَمْرُ حَتَّى أَرَزَتْ[1] مَيْمَنَةُ الْكُوفَةِ إِلَى الْقَلْبِ، حَتَّى لَزِقَتْ به، ولَزِقَتْ مَيْسَرَةَ الْبَصْرَةِ بِقَلْبِهِمْ، وَمَنَعُوا مَيْمَنَةَ أَهْلِ الْكُوفَةِ أَنْ يَخْتَلِطُوا بِقَلْبِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا إِلَى جَنْبِهِمْ، وَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ مَيْسَرَةُ الْكُوفَةِ وَمَيْمَنَةُ الْبَصْرَةِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – لِمَنْ عَنْ يَسَارِهَا: مَنِ الْقَوْمِ؟ قَالَ صَبْرَةُ بْنُ شَيْمَانَ: بَنُوكِ الأَزْدَ، قَالَتْ: يَا آلَ غَسَّانَ! حَافِظُوا الْيَوْمَ جِلادَكُمُ الَّذِي كُنَّا نَسْمَعُ بِهِ، وَتَمَثَّلَتْ:

وَجَالَدَ مِنْ غَسَّانَ أَهْلُ حِفَاظِهَا ... وَهِنْبٌ وَأَوْسٌ جَالَدَتْ وَشَبِيبُ

وَقَالَتْ لِمَنْ عَنْ يَمِينِهَا: مَنِ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ، قَالَتْ: لَكُمْ يَقُولُ الْقَائِلُ:

وَجَاءُوا إِلَيْنَا فِي الْحَدِيدِ كَأَنَّهُمْ ... مِنَ الْعِزَّةِ الْقَعْسَاءِ بَكْرُ بْنُ وَائِلِ

إِنَّمَا بِإِزَائِكُمْ عَبْدُ الْقَيْسِ.

فَاقْتَتَلُوا أَشَدَّ الْقِتَالِ مِنْ قِتَالِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى كَتِيبَةٍ بَيْنَ يَدَيْهَا، فَقَالَتْ: مَنِ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: بَنُو نَاجِيَةَ، قَالَتْ: بَخٍ بَخٍ! سُيُوفٌ أَبْطَحِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ قُرَشِيَّةٌ، فَجَالِدُوا جِلادًا يُتَفَادَى مِنْهُ.

ثُمَّ أَطَافَتْ بِهَا بَنو ضَبَّة، فقالت: وَيْهاً جَمْرَةَ الْجَمَرَاتِ! حَتَّى إِذَا رَقَوْا خَالَطَهُمْ بَنُو عَدِيٍّ، وَكَثُرُوا حَوْلَهَا، فَقَالَتْ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: بَنُو عَدِيٍّ، خَالَطْنَا

[1] أرزت: لجأت.

إِخْوَانَنَا، فَقَالَتْ: مَا زَالَ رَأْسُ الْجَمَلِ مُعْتَدِلاً حَتَّى قُتِلَتْ بَنُو ضَبَّةَ حَوْلِي، فَأَقَامُوا رَأْسَ الْجَمَلِ، وَضَرَبُوا ضَرْبًا شَدِيدًا لَيْسَ بِالتَّعْذِيرِ، وَلَا يَعْدِلُونَ بِالتَّطْرِيفِ، حَتَّى إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ، وَظَهَرَ فِي الْعَسْكَرَيْنِ جَمِيعًا رَامُوا الْجَمَلَ وَقَالُوا: لَا يَزَالُ الْقَوْمُ أَوْ يُصْرَعُ الْجَمَلُ.

وَأَرَزَتْ مُجَنِّبَتَا عَلِيٍّ فَصَارَتَا فِي الْقَلْبِ، وَفَعَلَ ذَلِكَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ، وَكَرِهَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَلاقَوْا جَمِيعًا بِقَلْبَيْهِمْ، وَأَخَذَ ابْنُ يَثْرِبِيٍّ[1] بِرَأْسِ الْجَمَلِ[2] وَهُوَ يرتجِزُ، وادَّعى قتلَ عِلْبَاءِ بْنِ الْهَيْثَمِ وَزَيْدِ بْنِ صُوحَانَ وَهِنْدِ بْنِ عَمْرٍو، فَقَالَ:

أَنَا لِمَنْ يُنْكِرُنِي ابْنُ يَثْرِبِي ... قَاتِلُ عِلْبَاءَ وَهِنْدِ الْجَمَلِي

وَابْنِ لِصُوحَانَ عَلَى دِينِ عَلِي

فَنَادَاهُ عَمَّارٌ: لَقَدْ لَعَمْرِي لُذْتَ بِحَرِيزٍ[3]، وَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ، فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَاخْرُجْ مِنْ هَذِهِ الْكَتِيبَةِ إِلَيَّ، فَتَرَكَ الزِّمَامَ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ حَتَّى كَانَ بَيْنَ أَصْحَابِ عَائِشَةَ وَأَصْحَابِ عَلِيٍّ، فَزَحَمَ النَّاسُ عَمَّارًا حَتَّى أَقْبَلَ إِلَيْهِ،

---

[1] عمرو بن يثربي الضبي: كان من رؤوس ضبة في الجاهلية ثم أسلم. وهو قاتل علباء بن الهيثم السدوسي، وهند بن عمرو الجملي، وزيد بن صوحان العبدي، قتلهم يوم الجمل، فأسره عمار بن ياسر فجاء به إلى علي رضي الله عنه فأمر بقتله. ولم يقتل أسيراً غيره.

[2] يعني أخذ بزمام الجمل حمايةً لأم المؤمنين.

[3] حريز : حصين، منيع.

فَاتَّقَاهُ عَمَّارٌ بِدَرَقَتِهِ[1]، فَضَرَبَهُ فَانْتَشَبَ[2] سَيْفُهُ فِيهَا، فَعَالَجَهُ فَلَمْ يَخْرُجْ، فَخَرَجَ عَمَّارٌ إِلَيْهِ لا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئًا، فَأَسَفَّ[3] عَمَّارٌ لِرِجْلَيْهِ فَقَطَعَهُمَا، فَوَقَعَ عَلَى اسْتِهِ، وَحَمَلَهُ أَصْحَابُهُ، فَارْتُثَّ بَعْدُ، فَأُتِيَ بِهِ عَلِيٌّ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ. وَلَمَّا أُصِيبَ ابْنُ يَثْرِبِيٍّ تَرَكَ ذَلِكَ الْعَدَوِيُّ الزِّمَامَ، ثُمَّ خَرَجَ فَنَادَى: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَخَنَسَ عَمَّارٌ، وَبَرَزَ إِلَيْهِ رَبِيعَةُ الْعَقِيلِيُّ - وَالْعَدَوِيُّ يُدْعَى عَمْرَةَ بْنَ بُجْرَةَ، أَشَدُّ النَّاسِ صَوْتًا، وَهُوَ يَقُولُ:

يَا أُمَّتَا أَعَقَّ أُمٍّ نَعْلَمُ[4] وَالْأُمُّ تَغْذُو وَلَدًا وَتَرْحَمُ

أَلا تَرِينَ كَمْ شُجَاعٍ يُكْلَمُ وَتُخْتَلَى مِنْهُ يَدٌ وَمِعْصَمُ

ثُمَّ اضْطَرَبَا، فَأَثْخَنَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، فَمَاتَا.

وَقَالَ عَطِيَّةُ بْنُ بِلالٍ: وَلَحِقَ بِنَا مِنْ آخِرِ النَّهَارِ رَجُلٌ يُدْعَى الْحَارِثَ، مِنْ بَنِي ضَبَّةَ، فَقَامَ مَقَامَ الْعَدَوِيِّ، فَمَا رَأَيْنَا رَجُلا قَطُّ أَشَدَّ منه، وجعل يقولُ:

---

[1] الدرع.

[2] علق بها.

[3] هوى إليهما.

[4] كَذَبَ فَهِيَ مِنْ أَبَرِّ أُمٍّ نَعْلَمُ. وسيأتي بعد قليل أنه بعد انتهاء الحرب ودَخَلَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى عَائِشَةَ فِي أَوَّلِ مَنْ دَخَلَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ بِالأَمْسِ اجْتَلَدَا بَيْنَ يَدَيَّ وَارْتَجَزَا بِكَذَا، فَهَلْ تَعْرِفُ كُوفِيَّكَ مِنْهُمَا؟ قَالَ: نَعَمْ، ذَاكَ الَّذِي قَالَ: أَعَقَّ أُمٍّ نَعْلَمُ، وَكَذَبَ وَاللَّهِ، إِنَّكِ لأَبَرُّ أُمٍّ نَعْلَمُ، وَلَكِنْ لَمْ تُطَاعِي.

نَحْنُ بَنُو ضَبَّةَ أَصْحَابُ الْجَمَلْ نُبَارِزُ الْقِرْنَ إِذَا الْقِرْنُ نَزَلْ
نَنْعَى ابْنَ عَفَّانَ بِأَطْرَافِ الْأَسَلْ والْمَوْتُ أَحْلَى عِنْدِنَا مِنَ الْعَسَلْ
رُدُّوا عَلَيْنَا شَيْخَنَا ثُمَّ بَجَلْ

وجعل أَبُو الجَرْباء يَوْمَئِذٍ يرتجز ويقولُ:

أسامعٌ أنتَ مطيعٌ لعلِي مِنْ قبلِ أن تذوقَ حدَّ المشْرفِي
وخاذلٌ فِي الحقِّ أزواجَ النَّبِي أعرف قوماً لست فِيهِ بعني

وقد كانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فِي حلقةٍ من أهلِ النَّجَداتِ والبصائرِ من أفناءِ مُضَر، فكان لا يأخذ أحدٌ بالزمامِ إلا كَانَ يحمل الرايةَ واللواءَ لا يحسِن تركَها، فَكَانَ لَا يَأْخُذُ الْخِطَامَ أَحَدٌ إِلَّا قُتِلَ، وَكَانَ لَا يَأْخُذُهُ وَالرَّايَةَ إِلَّا مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْمُطِيفِينَ بِالْجَمَلِ فَيَنْتَسِبُ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. فَوَاللَّهِ إِنْ كَانَ لَيُقَاتِلُونَ عَلَيْهِ[1]، وَإِنَّهُ لَلْمَوْتُ لَا يُوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا بِطِلْبَةٍ وَعَنَتٍ، وَمَا رَامَهُ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ إِلَّا قُتِلَ أَوْ أَفْلَتَ ثُمَّ لَمْ يَعُدْ.

ولما اختلط الناسُ بالقلبِ جَاءَ عديُّ بنُ حاتم فحَمَلَ عَلَيْهِ، ففقئت عينه ونكل، فَجَاءَ الأَشْتَر فحامله عبد الرَّحْمَن بن عتاب بن أسيد وإنه لأقطع

[1] الجمل.

منزوف، فاعتنقه، ثُمَّ جلد بِهِ الأرض عن دابتِه، فاضطربَ تحتَه، فأفلتَ وَهُوَ جَرِيض[1].

وكانَ لا يَجِيءُ رَجُلٌ فَيَأْخُذُ بِالزِّمَامِ حَتَّى يَقُولَ: أَنَا فُلانُ بْنُ فُلانٍ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، فَجَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، فَقَالَتْ حِينَ لَمْ يَتَكَلَّمْ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ: أَنَا عَبْدُ الله، أنا ابنُ أختِك، قالت: وا ثكلَ أَسْمَاءَ[2]! - تَعْنِي أُخْتَهَا - وَانْتَهَى إِلَى الْجَمَلِ الأَشْتَرُ وعديُّ بنُ حاتم، فخرج عبدُ الله ابن حكيمِ بْنِ حِزَامٍ إِلَى الأَشْتَرِ، فَمَشَى إِلَيْهِ الأَشْتَرُ، فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ، فَقَتَلَهُ الأَشْتَرُ، وَمَشَى إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، فَضَرَبَهُ الأَشْتَرُ عَلَى رَأْسِهِ، فَجَرَحَهُ جُرْحًا شَدِيدًا، وَضَرَبَ عَبْدُ اللَّهِ الأَشْتَرَ ضَرْبَةً خَفِيفَةً، وَاعْتَنَقَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ، وَخَرَّا إِلَى الأَرْضِ يَعْتَرِكَانِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ:

اقْتُلُونِي وَمَالِكًا وَاقْتُلُوا مَالِكًا مَعِي[3]

وَكَانَ مَالِكٌ يَقُولُ: مَا أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ قَالَ: وَالأَشْتَرَ وَأَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ. وَشَدَّ أُنَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ وَأَصْحَابِ عَائِشَةَ فَافْتَرَقَا، وَتَنَقَّذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ.

---

[1] مختنق.

[2] أسماء أختها؛ وقالت ذلك بسبب مقتل الزبير.

[3] فَلَوْ يَعْلَمُونَ مَنْ مَالِكٌ لَقَتَلُوهُ، إِنَّمَا كَانَ يُعَرَفُ بِالْأَشْتَرِ.

وَجَاءَ مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ فَأَخَذَ بِزِمَامِ الْجَمَلِ، فَقَالَ: يَا أُمَّتَاهُ، مُرِينِي بِأَمْرِكِ! قَالَتْ: آمُرُكَ أَنْ تَكُونَ كَخَيْرِ بَنِي آدَمَ إِنْ تَرَكْتَ. فَحَمَلَ فَجَعَلَ لا يَحْمِلُ عَلَيْهِ أَحَدٌ إِلا حَمَلَ عَلَيْهِ وَيَقُولُ: حاميم لا يُنْصَرُونَ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ نَفَرٌ، فَكُلُّهُمُ ادَّعَى قَتْلَهُ: الْمُكَعْبَرُ الأَسَدِيُّ، وَالْمُكَعْبَرُ الضَّبِّيُّ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ شَدَّادٍ الْعَبْسِيُّ، وَعَفَّانُ بْنُ الأَشْقَرِ النَّصْرِيُّ، فَأَنْفَذَهُ بَعْضَهُمْ بِالرُّمْحِ، فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ قَاتِلُهُ مِنْهُمْ:

وَأَشْعَثَ قَوَّامٍ بِآيَاتِ رَبِّهِ ... قَلِيلِ الْأَذَى فِيمَا تَرَى الْعَيْنُ مُسْلِمِ
هَتَكْتُ لَهُ بِالرُّمْحِ جَيْبَ قَمِيصِهِ ... فَخَرَّ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ
يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّمْحُ شَاجِرٌ ... فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ تَابِعًا ... عَلِيًّا وَمَنْ لَا يَتْبَعِ الْحَقَّ يَنْدَمِ

قَالَ القعقاعُ بنُ عَمْرٍو للأشترِ يؤلِّبُه يَوْمَئِذٍ: هَلْ لَكَ فِي الْعَوْدِ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ. فَقَالَ: يَا أَشْتَرُ بَعْضُنَا أَعْلَمُ بِقِتَالِ بَعْضٍ مِنْكَ، وَحَمَلَ الْقَعْقَاعُ وَالزِّمَامُ مَعَ زُفَرِ بْنِ الْحَارِثِ، وَكَانَ آخِرَ مَنْ أَخَذَ الْخِطَامَ، فَلَمْ يَبْقَ شَيْخٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ إِلَّا أُصِيبَ قُدَّامَ الْجَمَلِ، وَزُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ:

يَا أُمَّتَا مِثْلُكِ لَا يُرَاعْ ... كُلُّ بَنِيكِ بَطَلٌ شُجَاعْ
لَيْسَ بِوِهْوَاهٍ وَلَا بِرَاعْ

وقام القعقاعُ يرتجز ويقول:

إِذَا وَرَدْنَا آجِنًا جَهَرْنَاهْ ... وَلَا يُطَاقُ وِرْدُ مَا مَنَعْنَاهْ

تمثَّلها تمثلاً.

وكَانَ مِنْ آخرِ مَنْ قاتل ذَلِكَ الْيَوْم زُفَرُ بنُ الْحَارِث، فزحف إِلَيْهِ القعقاعُ، فلم يبق حول الجملِ عامريٌّ مكتهلٌ إلا أصيب، يتسرَّعون إِلَى الموت، وقال القعقاعُ: يَا بُجَيْرُ بْنَ دُلْجَةَ! صِحْ بِقَوْمِكَ فَلْيَعْقِرُوا الْجَمَلَ قَبْلَ أَنْ تُصَابُوا وَتُصَابَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ بُجَيْرٌ: يَا آلَ ضَبَّةَ! يَا عَمْرَو بْنَ دُلْجَةَ! ادْعُ بِي إِلَيْكَ، فَدَعَاهُ، فَقَالَ: أَنَا آمِنٌ حَتَّى أَرْجِعَ عَنْكُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَاجْتَثَّ سَاقَ الْبَعِيرِ، فَرَمَى نَفْسَهُ عَلَى شِقِّهِ وَجَرْجَرَ الْبَعِيرَ.

وَقَالَ الْقَعْقَاعُ لِمَنْ يَلِيهِ: أَنْتُمْ آمِنُونَ. وَاجْتَمَعَ هُوَ وَزُفَرُ عَلَى قَطْعِ بِطَانِ الْبَعِيرِ، وَحَمَلَا الْهَوْدَجَ فَوَضَعَاهُ، ثم أطافا به، وتفارَّ مَنْ وراء ذَلِكَ مِنَ النَّاسِ.

ولما أمسى الناسُ وتقدم عليٌّ وأحيطَ بالجملِ ومَنْ حولَه، وعقرَه بجيرُ بنُ دلجة، وَقَالَ: إنكم آمنون، كفَّ بعضُ الناسِ عن بعضٍ.

وَقَالَ عليٌّ فِي ذَلِكَ حين أمسى وانخنس عَنْهُمُ القتالُ:

إِلَيْكَ أَشْكُو عُجَرِي وَبُجَرِي ... وَمَعْشَرًا أَغْشَوْا عَلَيَّ بَصَرِي

قَتَلْتُ مِنْهُمْ مُضَرًا بِمُضَرِي ... شَفَيْتُ نَفْسِي وَقَتَلْتُ مَعْشَرِي

قَالَ طَلْحَةُ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ أَعْطِ عُثْمَانَ مِنِّي حَتَّى يَرْضَى، فَجَاءَ سَهْمُ غَرْبٍ وَهُوَ وَاقِفٌ، فَخَلَّ رُكْبَتَهُ بِالسَّرْجِ، وَثَبَتَ حَتَّى امْتَلأَ مَوْزَجُهُ دَمًا، فَلَمَّا ثَقُلَ قَالَ

لِمَوْلاهُ: أَرْدِفْنِي وَابْغِنِي مَكَانًا لا أُعْرَفُ فِيهِ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ شَيْخًا أَضْيَعَ دَمًا مِنِّي. فَرَكِبَ مَوْلاهُ وَأَمْسَكَهُ وَجَعَلَ يَقُولُ: قَدْ لَحِقْنَا الْقَوْمَ، حَتَّى انْتَهَى بِهِ إِلَى دَارٍ مِنْ دُورِ الْبَصْرَةِ خَرِبَةٍ، وَأَنْزَلَهُ فِي فَيْئِهَا، فَمَاتَ فِي تِلْكَ الْخَرِبَةِ، وَدُفِنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي بَنِي سَعْدٍ.

وكَانَتْ رَبِيعَةُ مع عليٍّ يومَ الجَمَل ثلثَ أهلِ الْكُوفَة، ونصفَ الناسِ يومَ الوقعة، وكانت تعبيتُهم مُضر ومُضر، وربيعة وربيعة، واليَمن واليَمن، فَقَالَ بنو صُوحان: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ائذن لنا نقفْ عن مضر، ففعلَ، فأتى زَيْدٌ[1]، فقيل لَهُ: مَا يوقِفك حيالَ الجَمَل وبحيالِ مُضر! الموتُ معكَ وبإزائك، فاعتزلْ إلينا، فَقَالَ: الْمَوْتَ نُرِيدُ. فأصيبوا يَوْمَئِذٍ، وأفلتَ صعصعةُ من بَيْنَهُمْ.

قال الصعبُ بنُ عطية: كَانَ رجلٌ منا يُدعى الحارث، فقال يومئذ: يالَ مُضر، علامَ يقتلُ بعضُكم بعضاً! تبادرون لا ندري إلا أنا إِلَى قضاءٍ، وما تكفون فِي ذَلِكَ.

وكانَ القتالُ يَوْمَئِذٍ فِي صدْرِ النهارِ مع طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ، فانهزم الناسُ وعائشةُ توقِّع الصلحَ، فلم يفجأها إلا الناسُ، فأحاطتْ بِهَا مُضر، ووقف الناسُ للقتالِ، فكان القتالُ نصفَ النهارِ مع عائشة ونصفه مع عليٍّ.

---

[1] زيد بن صوحان.

وأخذ كعبُ بنُ سُور مصحفَ عائشة فبدر بين الصَّفين يناشدُهم اللَّه عَزَّ وَجَلَّ فِي دمائهم، وأُعطِي دِرعَه فرَمَى بِهَا تحته، وأتى بترسِه فتنكَّبه، فرشقُوه رشقاً واحداً، فقتلُوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يُمهلوهم أن شَدُّوا عَلَيْهِم، والتحمَ القتالُ، فكان أولَ مقتولٍ بين يديْ عائشةَ مِنْ أهلِ الْكُوفَة.

قال والدُ مخلد بن كثير: أرسلْنا مسلمَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ يدعو بني أبينا، فرشقوه – كما صنع القلبُ بكعْبٍ[1] – رشقاً واحداً، فقتلُوه، فكان أولَ مَنْ قُتِل بين يديْ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ وعائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَتْ أمُّ مسلمٍ تَرثيه:

لاهُمَّ إنَّ مسلماً أتاهمْ مستسلماً للموتِ إذ دعاهمْ
إِلَى كتابِ اللَّه لا يخشاهمْ فرملوهُ من دمٍ إذ جاهمْ
وأمُّهمْ قائمةٌ تراهمْ يأتمرون الغيَّ لا تنهاهمْ

ولَمَّا انْهَزَمَتْ مُجَنِّبَتَا الْكُوفَةِ عَشِيَّةَ الْجَمَلِ، صَارُوا إِلَى الْقَلْبِ – وَكَانَ ابْنُ يَثْرِبِيٍّ قَاضِي الْبَصْرَةِ قَبْلَ كَعْبِ بْنِ سُورٍ، فَشَهِدَهُمْ هُوَ وَأَخُوهُ يَوْمَ الْجَمَلِ، وَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ وَعَمْرٌو، فَكَانَ وَاقِفًا أَمَامَ الْجَمَلِ عَلَى فَرَسٍ – فَقَالَ عَلِيٌّ: مَنْ رَجُلٌ يَحْمِلُ عَلَى الْجَمَلِ؟[2] فَانْتُدِبَ لَهُ هِنْدُ بْنُ عَمْرٍو الْمُرَادِيُّ، فَاعْتَرَضَهُ ابْنُ يَثْرِبِيٍّ،

---

[1] كعب بن سور.

[2] تظهر فراسة عليٍّ رضي الله عنه عندما أمر أصحابه بعقر الجمل حيث أراد القضاء على هذه الفتنة التي كانت ستستمر طالما يرون الجمل أمامهم.

فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ فَقَتَلَهُ ابْنُ يَثْرِبِيٍّ، ثُمَّ حَمَلَ سَيحانُ بنُ صُوحانَ، فَاعْتَرَضَهُ ابْنُ يَثْرِبِيٍّ، فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ فَقَتَلَهُ ابْنُ يَثْرِبِيٍّ، ثُمَّ حَمَلَ عِلْبَاءُ بْنُ الْهَيْثَمِ، فَاعْتَرَضَهُ ابْنُ يَثْرِبِيٍّ، فَقَتَلَهُ، ثُمَّ حَمَلَ صَعْصَعَةُ فَضَرَبَهُ، فَقُتِلَ ثَلاثَةٌ أُجْهِزَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَعْرَكَةِ: عِلْبَاءُ، وَهِنْدٌ، وَسَيْحَانُ، وَارْتَثَّ[1] صَعْصَعَةُ وَزَيْدٌ، فَمَاتَ أَحَدُهُمَا، وَبَقِيَ الآخَرُ[2].

وأخذَ الخطامَ يومَ الجملِ سبعونَ رجلاً من قريش، كلُّهم يُقتلُ وَهُوَ آخذٌ بالخطام، وحملَ[3] الأَشْتَرُ فاعترضَه عَبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ[4]، فاختلفا ضربتين، ضربه الأَشْتَرُ فأمَّه[5]، وواثبَه عَبْدُ اللَّهِ، فاعتنَقَه فخرَّ بِهِ، وجعل يقول: اقتلوني ومالكاً – وَكَانَ الناسُ لا يعرفونه بمالكٍ، ولو قال: والأشترَ وكانت له ألفُ نفسٍ مَا نجا منها شَيْء. وما زال يضطرب فِي يديْ عَبْدِ اللَّهِ حَتَّى أفلتَ، وَكَانَ الرجلُ إذا حملَ عَلَى الجملِ ثُمَّ نجا لم يَعُدْ.

وجُرِحَ يَوْمَئِذٍ مَرْوَانُ وعبدُ اللَّه بن الزُّبَيْرِ.

---

[1] أصيب.

[2] مات زيد بن صوحان وبقي أخوه صعصعة.

[3] هجم.

[4] من هنا حتى نهاية هذا الخبر يكرر سيف بن عمر ما ذكره سابقاً.

[5] ضربه بالسيف على رأسه.

وارتجز يومئذٍ ابنُ يثربي:

أنا لمنْ أنكرني ابنُ يثربي قاتلُ علباءَ وهندِ الجملي

وابنٍ لصُوحانَ على دينِ علي

وَقَالَ: من يبارز؟ فبرز لَهُ رجلٌ، فقتلَه، ثُمَّ برز له آخرُ فقتلَه، وارتجز وَقَالَ:

أقتلهمُ وَقَدْ أَرَى عَلِيًّا ... ولو أشأ أوجرتُهُ عمريا

فبرَزَ لَهُ عمارُ بنُ ياسرٍ، وإنه لأضعفُ مَنْ بارَزَه[1]، وإنَّ الناسَ ليسترجِعون حين قام عمارٌ، وأنا أقول لعمار من ضعفه: هَذَا وَاللَّهِ لاحقٌ بأَصْحَابِه، وَكَانَ قضيفاً، حمشَ الساقين، وعليه سيفٌ حمائلُه تشفُّ عنه قريبٌ من إبطه، فيضربُه ابن يثربي بسيفه، فنشبَ في جحفتِه، وضربه عمارٌ وأوهطه، ورمى أصحابُ عليٍّ ابنَ يثربي بالحجارة حَتَّى أثخنوه وارتَثُّوه[2].

ولما قال الضبيُّ يومَ الجَمَل:

نحن بنى ضبة أصحابُ الجملْ ... ننعى ابن عفان بأطراف الأسلْ

ردوا علينا شيخنا ثُمَّ بجلْ

قَالَ عميرٌ بن أبي الْحَارِث:

---

[1] قيل: كانت سنه يومها فوق التسعين.

[2] سحبوه وجروه.

كيف نردُّ شيخَكم وَقَدْ قحلْ ... نحن ضربنا صدرَه حَتَّى انجفلْ

ولما عَقَرَ الْجَمَلَ رَجُلٌ من بني ضَبَّة يقال لَهُ: ابنُ دلجة – عَمْرٌو أو بجيرٌ – وَقَالَ فِي ذَلِكَ الْحَارِثُ بنُ قيس – وَكَانَ من أَصْحَاب عَائِشَة:

نحن ضربْنا ساقَه فانجدلا من ضربة بالنفْرِ كَانَتْ فيصلا

لو لم نكون للرسولِ ثَقَلا وحُرمةً لاقتسمونا عجلا

وَقَدْ نحل ذَلِكَ المثنى بن مخرمة من أَصْحَاب عليٍّ.

صفة القتال يوم الجمل

وَقَالَ الْقَعْقَاعُ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِشَيْءٍ مِنْ قِتَالِ الْقَلْبِ يَوْمَ الْجَمَلِ بِقِتَالِ صِفِّينَ، لَقَدْ رَأَيْتُنَا نُدَافِعُهُمْ بَأَسِنَّتِنَا، وَنَتَّكِئُ عَلَى أَزِجَّتِنَا[1] وَهُمْ مِثْلُ ذَلِكَ، حَتَّى لَوْ أَنَّ الرِّجَالَ مَشَتْ عَلَيْهَا لَاسْتَقَلَّتْ بِهِمْ.

إنزال هودج عائشة

وأتى مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ عَائِشَةَ وَقَدْ عُقِرَ الْجَمَلُ، فَقَطَعَا غَرَضَةَ الرَّحْلِ، وَاحْتَمَلا الْهَوْدَجَ، فَنَحَّيَاهُ حَتَّى أَمَرَهُمَا عَلِيٌّ فِيهِ أَمْرَهُ بَعْدُ، قَالَ: أَدْخِلاهَا الْبَصْرَةَ، فَأَدْخَلاهَا دَارَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلَفٍ الْخُزَاعِيِّ.

---

[1] أطراف السهام.

وأَمَرَ عَلِيٌّ نَفَرًا بِحَمْلِ الْهَوْدَجِ مِنْ بَيْنِ الْقَتْلَى، وَقَدْ كَانَ الْقَعْقَاعُ وَزُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ أَنْزَلاهُ عَنْ ظَهْرِ الْبَعِيرِ، فَوَضَعَاهُ إِلَى جَنْبِ الْبَعِيرِ، فَأَقْبَلَ مُحَمَّدُ ابن أَبِي بَكْرٍ إِلَيْهِ وَمَعَهُ نَفَرٌ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ، فَقَالَتْ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَخُوكِ الْبَرُّ، قَالَتْ: عَقُوقٌ. وقَالَ: عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: كَيْفَ رَأَيْتِ ضَرْبَ بَنِيكِ الْيَوْمَ يَا أُمَّهْ؟ قَالَتْ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا ابْنُكِ الْبَارُّ عَمَّارٌ، قَالَتْ: لَسْتُ لَكَ بِأُمٍّ، قَالَ: بَلَى، وَإِنْ كَرِهْتِ. قَالَتْ: فَخَرْتُمْ أَنْ ظَفَرْتُمْ، وَأَتَيْتُمْ مِثْلَ مَا نَقِمْتُمْ، هَيْهَاتَ، وَاللَّهِ لَنْ يَظْفَرَ مَنْ كَانَ هَذَا دَأْبَهُ.

وَأَبْرَزُوهَا بِهَوْدَجِهَا مِنَ الْقَتْلَى، وَوَضَعُوهَا لَيْسَ قُرْبَهَا أَحَدٌ، وَكَأَنَّ هَوْدَجَهَا فَرْخٌ مقصَّبٌ مِمَّا فِيهِ مِنَ النَّبْلِ، وَجَاءَ أَعْيَنُ بْنُ ضُبَيْعَةَ الْمُجَاشِعِيُّ حَتَّى اطَّلَعَ فِي الْهَوْدَجِ، فَقَالَتْ: إِلَيْكَ لَعَنَكَ اللَّهُ! فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا أَرَى الا حميراء، قَالَتْ: هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَكَ، وَقَطَعَ يَدَكَ، وَأَبْدَى عَوْرَتَكَ! فَقُتِلَ بِالْبَصْرَةِ وَسُلِبَ، وَقُطِعَتْ يَدَهُ، وَرُمِيَ بِهِ عُرْيَانًا فِي خَرِبَةٍ مِنْ خَرِبَاتِ الأَزْدِ.

فَانْتَهَى إِلَيْهَا عَلِيٌّ، فَقَالَ: إِي أُمَّهْ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ، قَالَتْ: غَفَرَ اللَّهُ لَنَا وَلَكُمْ[1].

[1] هكذا كان أصحاب محمد يرعونه في أهله ويحترمون أمَّهم.

وفي رواية أخرى

انْتَهَى مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَمَعَهُ عَمَّارٌ، فَقَطَعَ الأَنْسَاعَ عَنِ الْهَوْدَجِ، وَاحْتَمَلاهُ، فَلَمَّا وَضَعَاهُ أَدْخَلَ مُحَمَّدٌ يَدَهُ وَقَالَ: أَخُوكِ مُحَمَّدٌ، فَقَالَتْ: مُذَمَّمٌ، قَالَ: يَا أُخَيَّةُ، هَلْ أَصَابَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: مَا أَنْتَ مِنْ ذَاكَ؟ قَالَ: فَمَنْ إِذًا! الضُّلالُ؟ قَالَتْ: بَلِ الْهُدَاةُ، وَانْتَهَى إِلَيْهَا عَلِيٌّ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا أُمَّهْ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ، قَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكِ قَالَتْ: وَلَكَ.

فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَدْخَلَهَا أَخُوهَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْبَصْرَةَ، فَأَنْزَلَهَا فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلَفٍ الْخُزَاعِيِّ عَلَى صَفِيَّةَ بِنْتِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ الدَّارِ، وَهِيَ أُمُّ طَلْحَةَ الطَّلْحَاتِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلَفٍ.

مقتل الزبير بن العوام

لَمَّا انْهَزَمَ النَّاسُ يَوْمَ الجَمَل عن طلحةَ والزبير، ومضى الزُّبَيْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى مَرَّ بِعَسْكَرِ الأَحْنَفِ، فَلَمَّا رَآهُ وَأَخْبَرَ بِهِ قَالَ: وَاللَّهِ مَا هَذَا بِخَيَارٍ، وَقَالَ لِلنَّاسِ: مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِهِ؟ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ جُرْمُوزٍ لأَصْحَابِهِ: أَنَا، فَاتَّبَعَهُ، فَلَمَّا لَحِقَهُ نَظَرَ إِلَيْهِ الزُّبَيْرُ وقَالَ: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: إِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ. فَقَالَ غُلامٌ لِلزُّبَيْرِ اسْمُهُ عَطِيَّةُ: إِنَّهُ مُعَدٌّ. قَالَ: مَا يَهُولُكَ مِنْ رَجُلٍ!

وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَالَ ابْنُ جُرْمُوزٍ: الصَّلَاةَ. فَقَالَ الزُّبَيْرُ: الصَّلَاةَ، فَلَمَّا نَزَلَا اسْتَدْبَرَهُ ابْنُ جُرْمُوزٍ فَطَعَنَهُ فِي جِرْبَانِ دِرْعِهِ[1] فَقَتَلَهُ، وَأَخَذَ فَرَسَهُ وَسِلَاحَهُ وَخَاتَمَهُ، وَخَلَّى عَنِ الْغُلَامِ، فَدَفَنَهُ بِوَادِي السِّبَاعِ، وَرَجَعَ إِلَى النَّاسِ بِالْخَبَرِ.

وَقَالَ الْأَحْنَفُ لِابْنِ جُرْمُوزٍ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي، أَحْسَنْتَ أَمْ أَسَأْتَ. ثم انحدر إلى عليٍّ وابنُ جُرموزٍ معه فدخلَ عليه فأخبرَه فدعا بالسيفِ فقال: سيفٌ طَالَمَا جَلَّى بِهِ الْكَرْبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –! وَبَعَثَ بِهِ إِلَى عَائِشَةَ.

ثم أقبلَ على الأحنفِ فقال: تَرَبَّصْتَ؟ فَقَالَ: مَا كُنْتُ أَرَانِي إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ، وَبِأَمْرِكَ كَانَ مَا كَانَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَارْفُقْ فَإِنَّ طَرِيقَكَ الَّذِي سَلَكْتَ بَعِيدٌ، وَأَنْتَ إِلَيَّ غَدًا أَحْوَجُ مِنْكَ أَمْسِ، فَاعْرِفْ إِحْسَانِي وَاسْتَصْفِ مَوَدَّتِي لِغَدٍ، وَلَا تَقُلْ مِثْلَ هَذَا، فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ لَكَ نَاصِحًا.

من انهزم يوم الجمل فاختفى ومضى في البلاد

مضى الزُّبَيْر فِي صدرِ يومِ الهزيمةِ راجلاً نحو الْمَدِينَة، فقتله ابنُ جُرموز، وخرج عتبةُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَيَحْيَى ابْنَا الْحَكَمِ، فَسَارُوا فِي الْبِلَادِ، فَلَقِيَهُمْ عِصْمَةُ بْنُ أُبَيْرٍ التَّيْمِيُّ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ فِي الْجِوَارِ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ. فَأَجَارَهُمْ

[1] الجِرِبَّانُ : جَيب القميص.

وَأَنْزَلَهُمْ حَتَّى بَرِأَتْ جِرَاحُهُمْ وَسَيَّرَهُمْ نَحْوَ الشَّامِ فِي أَرْبَعِمِائَةِ رَاكِبٍ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى دُومَةِ الْجَنْدَلِ قَالُوا: قَدْ وَفَّيْتَ ذِمَّتَكَ، وَقَضَيْتَ مَا عَلَيْكَ، فَرَجَعَ.

وفي ذَلِكَ يقولُ الشاعرُ:

وَفَى ابنُ أُبَيرٍ والرماحُ شوارعٌ ... بآلِ أبي العاصي وفاءً مذكَّرا

وأما ابنُ عَامِرٍ[1] فإنه خرج أَيْضًا مشجَّجاً، فتلقاه رجلٌ من بني حُرْقُوص يدعى مُرِّيّاً، فدعاه للجوارِ، فَقَالَ: نعمْ، فأجارَه وأقام عَلَيْهِ، وَقَالَ: أيَّ البلدان أحبُّ إليك؟ قَالَ: دمشق، فخرج بِهِ فِي ركب من بني حُرْقُوص حَتَّى بلغوا بِهِ دمشقَ.

وَقَالَ حَارِثَةُ بنُ بدر – وَكَانَ مع عَائِشَةَ، وأصيبَ فِي الوقعةِ ابنُه أو أخوه زراع:

أتاني مِنَ الأنباءِ أنَّ ابنَ عَامِرٍ ... أناخ وألقى فِي دمشقَ المراسيا

وأوَى مَرْوَانُ بنُ الحَكَم إِلَى أهل بيتٍ من عنزة يوم الهزيمة، فَقَالَ لَهُمْ: أَعلِموا مالكَ بنَ مسمَع بمكاني، فأتوا مالكاً فأخبروه بمكانه، فَقَالَ لأخيه مقاتل: كيف نصنع بهذا الرجل الَّذِي قَدْ بعث إلينا يُعلمنا بمكانه؟ قَالَ: ابعث ابن أخي فأجره، والتمسوا لَهُ الأمان من علي، فإن آمنه فذاك الَّذِي نحب وإن لم يؤمنه خرجنا بِهِ وبأسيافنا، فإن عرض لَهُ جالدنا دونه بأسيافنا، فإما إن نسلم، وإما أن نهلك كراما وَقَدِ استشار غيره من أهله من قبل فِي الَّذِي استشار فِيهِ مقاتلا، فنهاه، فأخذ برأي أخيه، وترك رأيهم، فأرسل إِلَيْهِ فأنزله

[1] عبدالله بن عامر بن كريز.

داره، وعزم عَلَى منعه إن اضطر إِلَى ذَلِكَ، وَقَالَ: الموت دون الجوار وفاء، وحفظ لَهُمْ بنو مَرْوَان ذَلِكَ بعد، وانتفعوا بِهِ عندهم، وشرفوهم بِذَلِكَ.

وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ نَزَلَ بِدَارِ رَجُلٍ مِنَ الْأَزْدِ يُدْعَى وَزِيرًا، فَقَالَ لَهُ: ائْتِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ فَأَعْلِمْهَا بِمَكَانِي، وَلَا يَعْلَمْ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ. فَأَتَى عَائِشَةَ فَأَخْبَرَهَا، فَقَالَتْ: عَلَيَّ بِمُحَمَّدٍ. فَقَالَ لَهَا: إِنَّهُ قَدْ نَهَانِي أَنْ يَعْلَمَ مُحَمَّدٌ. فَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ وَأَرْسَلَتْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَقَالَتْ: اذْهَبْ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِابْنِ أُخْتِكَ. فانطلَقَ مَعَهُ، فدخلَ بالأزدي عَلَى ابن الزُّبَيْر، قَالَ: جئتك وَاللَّهِ بِمَا كرهتَ، وأبتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ إلا ذَلِكَ، فخرج عَبْد اللَّهِ ومحمدٌ وهما يتشاتمان، فذكر مُحَمَّدٌ عُثْمَانَ فشتَمه، وشتمَ عَبْدُ اللَّهِ محمداً حَتَّى انتهى إِلَى عَائِشَة فِي دار عَبْد اللَّهِ بن خلف- وكان عبد الله ابن خلف قبل يوم الجمل مع عَائِشَة، وقُتِل عُثْمَانُ أخوه مع عليٍّ.

وأرسلتْ عَائِشَةُ فِي طلبِ مَنْ كَانَ جريحاً فضمت مِنْهُمْ ناساً، وضمتْ مَرْوَانَ فيمن ضمتْ، فكانوا فِي بيوت الدار.

وَغَشِيَ الْوُجُوهُ عَائِشَةَ وَعَلِيٌّ فِي عَسْكَرِهِ، وَدَخَلَ الْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو عَلَى عَائِشَةَ فِي أَوَّلِ مَنْ دَخَلَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي رَأَيْتُ رَجُلَيْنِ بِالأَمْسِ اجْتَلَدَا بَيْنَ يَدَيَّ وَارْتَجَزَا بِكَذَا، فَهَلْ تَعْرِفُ كُوفِيَّكَ مِنْهُمَا؟ قَالَ: نَعَمْ، ذَاكَ الَّذِي قَالَ: أَعَقَّ أُمٍّ نَعْلَمُ، وَكَذَبَ وَاللَّهِ، إِنَّكِ لأَبَرُّ أُمٍّ نَعْلَمُ، وَلَكِنْ لَمْ تُطَاعِي. فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَوَدَدْتُ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ بِعِشْرِينَ سَنة. وخرج فأتى علياً

فَأَخْبَرَهُ أَنَّ عَائِشَةَ سَأَلَتْهُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ! مَنِ الرَّجُلانِ؟ قَالَ: ذَلِكَ أَبُو هَالَةَ الَّذِي يَقُولُ: كَيْمَا أَرَى صَاحِبُهُ عَلِيًّا. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوَدَدْتُ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ بِعِشْرِينَ سَنَةً، فَكَانَ قَوْلُهُمَا وَاحِدًا.

وَتَسَلَّلَ الْجَرْحَى فِي جَوْفِ اللَّيْلِ، وَدَخَلَ الْبَصْرَةُ مَنْ كَانَ يُطِيقُ الانْبِعَاثَ مِنْهُمْ، وَسَأَلَتْ عَائِشَةُ يَوْمَئِذٍ عَنْ عِدَّةٍ مِنَ النَّاسِ، مِنْهُمْ مَنْ كَانَ مَعَهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا، وَقَدْ غَشِيَهَا النَّاسُ، وَهِيَ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلَفٍ، فَكُلَّمَا نُعِيَ لَهَا مِنْهُمْ وَاحِدٌ قَالَتْ: يَرْحَمُهُ اللَّهُ، فَقَالَ لَهَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهَا: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: كَذَلِكَ قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: فُلانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَفُلانٌ فِي الْجَنَّةِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَوْمَئِذٍ: إِنِّي لأَرْجُو أَلا يَكُونَ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلاءِ نَقَّى قَلْبَهُ إِلا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ.

وقال عليٌّ: مَا نَزَلَ على النبي صلى الله عليه وسلم آيَةً أَفْرَحُ لَهُ مِنْ قول الله عز وجل: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "مَا أَصَابَ الْمُسْلِمَ فِي الدُّنْيَا مِنْ مُصِيبَةٍ فِي نَفْسِهِ فَبِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ أَكْثَرُ، وَمَا أَصَابَهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَعَفْوٌ مِنْهُ، لا يُعْتَدُّ عَلَيْهِ فِيهِ عُقُوبَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَا عَفَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ عَفَا عَنْهُ، وَاللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي عَفْوِهِ".

دفن القتلى وتوجُّع عليٍّ عليهم

وَأَقَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي عَسْكَرِهِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا يَدْخُلُ الْبَصْرَةَ، وَنَدَبَ النَّاسَ إِلَى مَوْتَاهُمْ، فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ فَدَفَنُوهُمْ، فَطَافَ عَلِيٌّ مَعَهُمْ فِي الْقَتْلَى، فَلَمَّا أُتِيَ بِكَعْبِ بْنِ سُورٍ قَالَ: زَعَمْتُمْ أَنَّمَا خَرَجَ مَعَهُمُ السُّفَهَاءُ، وَهَذَا الْحَبْرُ قَدْ تَرَوْنَ.

وَأَتَى عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتَّابٍ فَقَالَ: هَذَا يَعْسُوبُ الْقَوْمِ – يَقُولُ الَّذِي كَانُوا يُطِيفُونَ بِهِ – يَعْنِي أَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ، وَرَضَوْا بِهِ لِصَلاتِهِمْ.

وَجَعَلَ عَلِيٌّ كُلَّمَا مَرَّ بِرَجُلٍ فِيهِ خَيْرٌ قَالَ: زَعَمَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ إِلَيْنَا إِلا الْغَوْغَاءُ، هَذَا الْعَابِدُ الْمُجْتَهِدُ.

وَصَلَّى عَلَى قَتْلاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، وَعَلَى قَتْلاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، وَصَلَّى عَلَى قُرَيْشٍ مِنْ هؤلاءِ وهؤلاءِ، فكانوا مَدَنِيِّينَ وَمَكِّيِّينَ، وَدَفَنَ عَلِيٌّ الأَطْرَافَ فِي قَبْرٍ عظيمٍ، وجَمَعَ ما كان في العسكرِ من شَيْءٍ، ثُمَّ بَعَثَ بِهِ إِلَى مَسْجِدِ الْبَصْرَةِ، أَنَّ مَنْ عَرَفَ شَيْئًا فَلْيَأْخُذْهُ، إِلا سِلاحًا كَانَ فِي الْخَزَائِنِ عَلَيْهِ سِمَةُ السُّلْطَانِ، فَإِنَّهُ لما بَقِيَ لَمْ يُعْرَفْ، خُذُوا مَا أَجْلَبُوا بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لا يحلُ لمسلمٍ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِ الْمُتَوَفَّى شَيْءٍ، وَإِنَّمَا كَانَ ذلك السلاحُ في أيديهم من غيرِ تنفيلٍ مِنَ السُّلْطَانِ[1].

---

[1] رحمك الله أبا الحسن ما كان أفقهك وأعلمك. وكم من قضية ولا أبا حسنٍ لها.

عدد قتلى الجمل

وَكَانَ قَتْلَى الجملِ عَشَرَةَ آلَافٍ، نِصْفُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ، وَنِصْفُهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَائِشَةَ ، من الأزدِ ألفانِ، ومن سائرِ اليمنِ خمسمائة، ومن مُضر ألفان، وخمسمائة من قيس، وخمسمائة من تميم، وألف من بني ضَبة، وخمسمائة من بكر بن وائل. وقيل: قتل من أهل الْبَصْرَة فِي المعركة الأولى خمسة آلاف، وقتل من أهل الْبَصْرَة فِي المعركة الثانية خمسة آلاف، فذلك عشرة آلاف قتيلٍ من أهل الْبَصْرَة، ومن أهل الْكُوفَة خمسة آلاف.

وقتل من أهل الْبَصْرَة فِي المعركة الثانية خمسة آلاف، فذلك عشرة آلاف قتيلٍ من أهل الْبَصْرَة، ومن أهل الْكُوفَة خمسة آلاف.

وقتل من بني عدي يَوْمَئِذٍ سبعون شيخاً، كلُّهم قَدْ قرأ القرآن، سوى الشباب ومن لم يقرأ القرآن.

وقالت عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا زلتُ أرجو النصرَ حَتَّى خفيتْ أصواتُ بني عدي.

دخول علي على عائشة ومعاقبته من أساء إليها

وَدَخَلَ عَلِيٌّ الْبَصْرَةَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ، فَانْتَهَى إِلَى الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى فِيهِ، ثُمَّ دَخَلَ الْبَصْرَةَ، فَأَتَاهُ النَّاسُ، ثُمَّ رَاحَ إِلَى عَائِشَةَ عَلَى بَغْلَتِهِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلَفٍ وَهِيَ أَعْظَمُ دَارٍ بِالْبَصْرَةِ، وَجَدَ النِّسَاءَ يَبْكِينَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ

وَعُثْمَانَ ابْنَيْ خَلَفٍ مَعَ عَائِشَةَ، وَصَفِيَّةُ ابْنَةُ الْحَارِثِ مُخْتَمِرَةٌ تَبْكِي، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: يَا عَلِيُّ، يَا قَاتِلَ الأَحِبَّةِ، يَا مُفَرِّقَ الْجَمْعِ، أَيْتَمَ اللَّهُ بَنِيكَ مِنْكَ كَمَا أَيْتَمْتَ وَلَدَ عَبْدِ اللَّهِ مِنْهُ! فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهَا شَيْئًا، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى حَالِهِ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا، وَقَعَدَ عِنْدَهَا، وَقَالَ لَهَا: جَبَهَتْنَا صَفِيَّةُ، أَمَا إِنِّي لَمْ أَرَهَا مُنْذُ كَانَتْ جَارِيَةً حَتَّى الْيَوْمَ، فَلَمَّا خَرَجَ عَلِيٌّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ فَأَعَادَتْ عَلَيْهِ الْكَلامَ، فَكَفَّ بَغْلَتَهُ وَقَالَ: أَمَا لَهَمَمْتُ – وَأَشَارَ إِلَى الأَبْوَابِ مِنَ الدَّارِ – أَنْ أَفْتَحَ هَذَا الْبَابَ وَأَقْتُلَ مَنْ فِيهِ، ثُمَّ هَذَا فَأَقْتُلَ مَنْ فِيهِ، ثُمَّ هَذَا فَأَقْتُلَ مَنْ فِيهِ[1].

وَكَانَ أُنَاسٌ مِنَ الْجَرْحَى قَدْ لَجَئُوا إِلَى عَائِشَةَ، فَأُخْبِرَ عَلِيٌّ بِمَكَانِهِمْ عِنْدَهَا، فَتَغَافَلَ عَنْهُمْ – فَسَكَتَتْ فَخَرَجَ عَلِيٌّ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَزْدِ: وَاللَّهِ لا تَفْلِتَنَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ، فَغَضِبَ وَقَالَ: صه! لا تَهْتِكُنَّ سِتْرًا، وَلا تَدْخُلُنَّ دَارًا، وَلا تُهَيِّجُنَّ امْرَأَةً بِأَذًى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وسفَّهنَ أمراءكم وصُلحاءكم، فإنهنَّ ضِعَافٌ، وَلَقَدْ كُنَّا نُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ، وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُكَافِئَ الْمَرْأَةَ وَيَتَنَاوَلَهَا بِالضَّرْبِ فَيُعَيَّرَ بِهَا عَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَلا يَبْلُغَنِّي عَنْ أَحَدٍ عَرَضَ لامْرَأَةٍ فَأُنَكِّلَ بِهِ شِرَارَ النَّاسِ.

---

[1] همَّ ولم يفعل لأنه صاحب دين.

وَمَضَى عَلِيٌّ، فَلَحِقَ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَامَ رَجُلانِ مِمَّنْ لَقِيتَ عَلَى الْبَابِ، فَتَنَاوَلا مَنْ هُوَ أَمضُّ لَكَ شَتِيمَةً مِنْ صَفِيَّةَ، قَالَ: وَيْحَكَ! لَعَلَّهَا عَائِشَةُ[1] قَالَ: نَعَمْ، قَامَ رَجُلانِ مِنْهُمْ عَلَى بَابِ الدار فقالَ أحدهما:

جزيتِ عنّا أمَّنا عَقُوقا

وَقَالَ الآخَرُ:

يَا أُمَّنَا تُوبِي فَقَدْ خَطِيتِ

فَبَعَثَ الْقَعْقَاعَ بْنَ عَمْرٍو إِلَى الْبَابِ، فَأَقْبَلَ بِمَنْ كَانَ عَلَيْهِ، فَأَحَالُوا عَلَى رَجُلَيْنِ، فَقَالَ: أَضْرِبُ أَعْنَاقَهُمَا، ثُمَّ قَالَ: لأُنْهِكَنَّهُمَا عُقُوبَةً فَضَرَبَهُمَا مِائَةً مِائَةً، وَأَخْرَجَهُمَا مِنْ ثِيَابِهِمَا. وهما رجلان من أزدِ الْكُوفَة يقالُ لهما عجلٌ وسعدٌ ابنا عَبْد اللَّهِ.

بيعة أهل البصرة علياً وقَسْمُه ما في بيت المال عليهم

بايعَ الأحنفُ مِن العشي لأنه كَانَ خارجاً هُوَ وبنو سعدٍ، ثُمَّ دخلوا جميعاً الْبَصْرَةَ، فبايعَ أهلُ الْبَصْرَة عَلَى راياتهم، وبايع عليٌّ أهل الْبَصْرَة حَتَّى الجرحى والمستأمِنة، فلما رجع مَرْوَانُ لحقَ بمعاوية وَقَالَ قائلون: لم يبرحِ الْمَدِينَة حَتَّى فرغ من صفِّين.

---

[1] يعني كانا شتما عائشة.

وَلَمَّا فَرَغَ عَلِيٌّ مِنْ بَيْعَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ نَظَرَ فِي بَيْتِ الْمَالِ، فَرَأَى فِيهِ سِتَّمِائَةِ أَلْفٍ وَزِيَادَةً، فَقَسَمَهَا عَلَى مَنْ شَهِدَ مَعَهُ، فَأَصَابَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ خَمْسَمِائَةٍ خَمْسَمِائَةٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنْ أَظْفَرَكُمُ اللَّهُ بِالشَّامِ فَلَكُمْ مَثَلُهَا إِلَى أُعْطِيَاتِكُمْ. فَخَاضَ فِي ذَلِكَ السَّبَئِيَّةُ، وَطَعَنُوا عَلَى عَلِيٍّ مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ.

سيرة عليٍّ فيمن قاتل يوم الجمل

وَكَانَ مَذْهَبُهُ أَنْ لَا يَقْتُلَ مُدْبِرًا، وَلَا يُذَفِّفُ عَلَى جَرِيحٍ، وَلَا يَكْشِفُ سِتْرًا، وَلَا يَأْخُذُ مَالًا[1]، فَقَالَ قومٌ يَوْمَئِذٍ: مَا يحِلُّ لنا دماءهم، ويحرم علينا أموالهم؟ فَقَالَ عليٌّ: القومُ أمثالُكم، مَنْ صَفَحَ عنا فهو منا، ونحن مِنْهُ، ومن لجَّ حَتَّى يصاب فقتالُه مني عَلَى الصدْر والنَّحر، وإنَّ لكم فِي خمسِه لغنى، فيومئذ تكلمتِ الخوارج.

خروج عائشة من البصرة إلى مكة

قَصَدَتْ عَائِشَةُ مَكَّةَ فَكَانَ وَجْهَهَا مِنَ الْبَصْرَةِ، وَانْصَرَفَ مَرْوَانُ وَالأَسْوَدُ بْنُ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنَ الطَّرِيقِ، وَأَقَامَتْ عَائِشَةُ بِمَكَّةَ إِلَى الْحَجِّ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ.

---

[1] ولم لا وهو تلميذ محمد.

كتابة عليٍّ إلى عامله بالكوفة

وَكَتَبَ عَلِيٌّ بِالْفَتْحِ إِلَى عَامِلِهِ بِالْكُوفَةِ حِينَ كَتَبَ فِي أَمْرِهَا وَهُوَ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ:

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا الْتَقَيْنَا فِي النِّصْفِ مِنْ جُمَادَى الآخِرَةِ بِالْخُرَيْبَةِ – فِنَاءٌ مِنْ أَفْنِيَةِ الْبَصْرَةِ – فَأَعْطَاهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سُنَّةَ الْمُسْلِمِينَ، وَقَتَلَ مِنَّا وَمِنْهُمْ قَتْلَى كَثِيرَةً، وَأُصِيبَ مِمَّنْ أُصِيبَ مِنَّا ثُمَامَةُ بْنُ الْمُثَنَّى، وَهِنْدُ بْنُ عَمْرٍو، وَعِلْبَاءُ بْنُ الْهَيْثَمِ، وَسَيْحَانُ وَزَيْدٌ ابْنَا صُوحَانَ، وَمَحْدُوجٌ.

وَكَتَبَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ رَافِعٍ وَكَانَ الرَّسُولَ زُفَرُ بْنُ قَيْسٍ إِلَى الْكُوفَةِ بِالْبِشَارَةِ فِي جُمَادَى الآخِرَةِ.

وَقد عَلِمَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ بِالْوَقْعَةِ يَوْمَ الْحَرْبِ قَبْلَ أَنْ تَغْرُبَ الشَّمْسُ مِنْ نَسْرٍ مَرَّ بِمَاءٍ حَوْلَ الْمَدِينَةِ، وَمَعَهُ شَيْءٌ مُعَلَّقٌ، فَسَقَطَ مِنْهُ، فَإِذَا كَفٌّ فِيهِ خَاتَمٌ نَقْشُهُ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَتَّابٍ. وَعَلِمَ مَنْ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ بِالْوَقْعَةِ بِمَا يَنْقِلُ إِلَيْهِمُ النُّسُورُ مِنَ الْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ[1].

تجهيز عليٍّ عائشةَ وإرسالُها إلى المدينة

وجَهَّزَ عليٌّ عائشةَ بِكُلِّ شَيْءٍ يَنْبَغِي لَهَا مِنْ مَرْكَبٍ أَوْ زَادٍ أَوْ مَتَاعٍ، وَأَخْرَجَ مَعَهَا كُلَّ مَنْ نَجَا مِمَّنْ خَرَجَ مَعَهَا، إِلا مَنْ أَحَبَّ الْمُقَامَ، وَاخْتَارَ لَهَا أَرْبَعِينَ

[1] يا لها من مصيبة.

امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ الْمَعْرُوفَاتِ، وَقَالَ: تَجَهَّزْ يَا مُحَمَّدُ، فَبَلِّغْهَا، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي تَرْتَحِلُ فِيهِ، جَاءَهَا حَتَّى وَقَفَ لَهَا، وَحَضَرَ النَّاسُ، فَخَرَجَتْ عَلَى النَّاسِ وَوَدَّعُوهَا وَوَدَّعَتْهُمْ، وَقَالَتْ: يَا بَنِيَّ، تَعَتَّبُ بَعْضُنا عَلَى بَعْضٍ اسْتِبْطَاءً وَاسْتِزَادَةً، فَلا يَعْتَدَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَلَى أَحَدٍ بِشَيْءٍ بَلَغَهُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا كَانَ بَيْنِي وبين عليٍّ في القديم إلا مَا يَكُونُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَأَحْمَائِهَا، وَإِنَّهُ عندي على مَعْتَبَتِي مِنَ الأخيار.

وَقَالَ عَلِيٌّ: صَدَقْتِ، وَاللَّهِ مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا إِلَّا ذَاكَ، وَإِنَّهَا لَزَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وخَرَجَتْ يَوْمَ السَّبْتِ غُرَّةَ رَجَبٍ، وَشَيَّعَهَا أَمْيَالًا وَسَرَّحَ بَنِيهِ مَعَهَا يَوْمًا[1].

[تمت نصوصُ روايةِ سيفِ بنِ عمرَ المتعلقة بمقتل عثمان ووقعة الجمل]

[1] وَقَالَ لَهَا عَمَّارٌ حِينَ وَدَّعَهَا: مَا أَبْعَدَ هَذَا الْمَسِيرَ مِنَ الْعَهْدِ الَّذِي عُهِدَ إِلَيْكِ! قَالَتْ: وَاللَّهِ إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ لَقَوَّالٌ بِالْحَقِّ. قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَضَى عَلَى لِسَانِكِ لِي.

الخلاصة

وهذه خلاصة ما كان في هذه الأحداث:

أولاً: بويع عليٌّ رضي الله عنه بالخلافة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وكان كارهاً لهذه البيعة رافضاً لها، وما قبِلها إلا لإلحاح الصحابة عليه، وفي ذلك يقول رضي الله عنه: (ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي، وجاءوني للبيعة فقلت: والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة"، وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمانُ قتيل على الأرض لم يدفن بعد، فانصرِفوا، فلما دُفن رجع الناس فسألوني البيعةَ، فقلت: اللهم إني مشفق مما أقدَمُ عليه، ثم جاءت عزيمةٌ فبايعت، فلقد قالوا: يا أمير المؤمنين، فكأنما صدع قلبين، وقلت: اللهم خذ مني لعثمان حتى ترضى). رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

ثانياً: لم يكن عليٌّ رضي الله عنه قادراً على تنفيذ القصاص في قتلة عثمان رضي الله عنه لعدم علمه بأعيانهم، ولاختلاط هؤلاء الخوارج بجيشه، مع كثرتهم واستعدادهم للقتال، وقد بلغ عددُهم ألفي مقاتل كما في بعض الروايات، كما أن بعضهم ترك المدينة إلى الأمصار عقب بيعة علي.

وقد كان كثير من الصحابة خارج المدينة في ذلك الوقت، ومنهم أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، لانشغال الجميع بالحج.

ثالثاً: لما مضت أربعة أشهر على بيعة عليٍّ دون أن ينفذ القصاص خرج طلحة والزبير إلى مكة، والتقوا بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، واتفق رأيهم على الخروج إلى البصرة ليقفوا بمن فيها من الخيل والرجال، ليس لهم غرض في القتال، وذلك تمهيداً للقبض على قتلة عثمان رضي الله عنه، وإنفاذ القصاص فيهم.

ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد في المسند والحاكم في المستدرك: أن عائشة رضي الله عنها لما بلغت مياه بني عامر ليلاً نبحت الكلابُ، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب، قالت: ما أظنني إلا راجعة، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا: "كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب". فقال لها الزبير: ترجعين! عسى الله عز وجل أن يصلح بك بين الناس.

رواه ابن حبان، والحاكم، والذهبي، وابن كثير، وابن حجر (انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٤٧٤).

رابعاً: اعتبر عليٌّ رضي الله عنه خروجَهم إلى البصرة واستيلاءهم عليها نوعاً من الخروج عن الطاعة، وخشي تمزق الدولة الإسلامية فسار إليهم رضي الله عنه (وكان أمرُ الله قدراً مقدوراً).

خامساً: أرسل عليٌّ رضي الله عنه القعقاع بن عمرو إلى طلحة والزبير يدعوهما إلى الألفة والجماعة، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال: أي أمّاه، ما أقدمك هذا البلد؟ فقالت: أي بني الإصلاح بين الناس.

قال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية: فرجع إلى عليٍّ فأخبره، فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كرهه، ورضيه من رضيه، وأرسلت عائشة إلى عليٍّ تعلِمه أنها إنما جاءت للصلح، ففرح هؤلاء وهؤلاء، وقام عليٌّ في الناس خطيباً، فذكر الجاهليةَ وشقاءها وأعمالَها، وذكر الإسلام وسعادةَ أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيه صلى الله عليه وسلم على الخليفة أبي بكر الصديق، ثم بعده على عمر بن الخطاب، ثم على عثمان، ثم حدث هذا الحدث الذي جرى على الأمة، أقوام طلبوا الدنيا وحسدوا من أنعم اللهُ عليه بها، وعلى الفضيلة التي منَّ الله بها، وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها، والله بالغُ أمره، ثم قال: ألا إني مرتحلٌ غداً فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس، فلما قال هذا اجتمع من رؤوسهم (قتلة عثمان) جماعةٌ كالأشتر النخعي، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء وغيرهم في ألفين وخمسمائة، وليس فيهم صحابي ولله الحمد، فقالوا: ما هذا الرأي؟ وعليٌّ والله أعلمُ بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان، وأقربُ إلى العمل بذلك، وقد قال

ما سمعتم، غداً يجمع عليكم الناسَ، وإنما يريد القوم كلهم أنتم، فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم؟

فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا، وأما رأي عليٍّ فلم نعرفه إلا اليوم، فإن كان قد اصطلح معهم، فإنما اصطلح على دمائنا. ثم قال ابن السوداء قبَّحه الله: يا قوم إن عيركم في خلطة الناس، فإذا التقى الناس فأنشِبوا الحرب والقتال بين الناس، ولا تَدَعوهم يجتمعون.) انتهى كلام ابن كثير.

وذكر ابن كثير أن علياً وصل إلى البصرة، ومكث ثلاثة أيام، والرسل بينه وبين طلحة والزبير، وأشار بعض الناس على طلحة والزبير بانتهاز الفرصة من قتلة عثمان فقالا: إن علياً أشار بتسكين هذا الأمر، وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك.

ثم قال ابن كثير: (وبات الناس بخيرِ ليلةٍ، وبات قتلة عثمان بشرِّ ليلة، وباتوا يتشاورن، وأجمعوا على أن يثيروا الحرب من الغلس، فنهضوا من قبل طلوع الفجر، وهم قريب من ألفي رجل، فانصرف كل فريق إلى قراباتهم، فهجموا عليهم بالسيوف، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم، وقام الناس من منامهم إلى السلاح، فقالوا: طرقتْنا أهل الكوفة ليلاً، وبيَّتونا وغدروا بنا، وظنوا أن هذا عن ملأ من أصحاب عليٍّ، فبلغ الأمرُ علياً فقال: ما للناس؟ فقالوا: بيَّتنا أهلُ البصرة، فثار كل فريق إلى سلاحه، ولبسوا اللأمة، وركبوا الخيول، ولا يشعر أحدٌ منهم بما وقع الأمر عليه في نفس الأمر، وكان أمر

الله قدَراً مقدوراً، وقامت الحربُ على ساق وقدم، وتبارز الفرسان، وجالت الشجعان، فنشبت الحرب، وتواقف الفريقان، وقد اجتمع مع عليٍّ عشرون ألفاً، والتف على عائشة ومن معها نحوٌ من ثلاثين ألفاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون، والسابئة أصحاب ابن السوداء قبَّحه الله لا يفترون عن القتل، ومنادي عليٍّ ينادي: ألا كفُّوا ألا كفُّوا، فلا يسمع أحد...) انتهى كلام ابن كثير رحمه الله.

سادساً: وإن أهم ما ينبغي بيانه هنا، ما كان عليه هؤلاء الصحابة الأخيار من الصدق والوفاء والحب لله عز وجل رغم اقتتالهم، وإليك بعض النماذج الدالة على ذلك:

١- روى ابن أبي شيبة في مصنفه بسند صحيح عن الحَسَن بن علي قال: (لقد رأيته - يعني علياً - حين اشتد القتال يلوذ بي ويقول: يا حَسَن، لوددت أني مت قبل هذا بعشرين حَجة).

٢- وقد ترك الزبير القتال ونزل وادياً فتبعه عمرو بن جرموز فقتله وهو نائمٌ غيلةً، وحين جاء الخبر إلى عليٍّ رضي الله عنه قال: بشِّر قاتل ابن صفية بالنار. وجاء ابن جرموز معه سيف الزبير، فقال عليٌّ: إن هذا السيف طالما فرَّج الكربَ عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٣- وأما طلحةُ رضي الله عنه، فقد أصيب بسهم في ركبته فمات منه، وقد وقف عليه عليٌّ رضي الله عنه، فجعل يمسح عن وجهه التراب، وقال: (رحمة الله عليك أبا محمد، يعز عليَّ أن أراك مجدولاً تحت نجوم السماء، ثم قال: إلى الله أشكو عجري وبجري، والله لوددت أني كنت مت قبل لهذا اليوم بعشرين سنة).

وقد روي عن علي من غير وجه أن قال: إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان ممن قال الله فيهم: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ).

٤- وقيل لعلي: إن على الباب رجلين ينالان من عائشة، فأمر القعقاعَ بن عمرو أن يجلد كل واحد منهما مائة، وأن يخرجَهما من ثيابهما.

٥- وقد سألت عائشُة رضي الله عنه عمن قُتل معها من المسلمين، ومن قُتل من عسكر علي، فجعلت كلما ذُكر لها واحدٌ منهم ترحمت عليه ودعت له.

٦- ولما أرادت الخروج من البصرة، بعث إليها عليٌّ بكل ما ينبغي من مَركب وزاد ومتاع، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسيرَّ معها أخاها محمد بن أبي بكر - وكان في جيش علي - وسار عليٌّ معها مودِّعاً ومشيِّعاً أميالاً، وسرَّح بَنِيه معها بقية ذلك اليوم.

٧- وودعت عائشةُ الناس وقالت: يا بَنِيَّ لا يعتب بعضُنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين عليٍّ في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمِنَ الأخيار، فقال عليٌّ: صدقتِ، والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجةُ نبيِّكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة.

٨- ونادى مناد لعليٍّ: (لا يُقتلْ مُدبر، ولا يدففْ على جريح، ومن أغلق باب داره فهو آمن، ومن طرح السلاح فهو آمن). وأمر عليٌّ بجمع ما وجد لأصحاب عائشة رضي الله عنها في العسكر، وأن يُحمل إلى مسجد البصرة، فمن عرف شيئاً هو لأهلهم فليأخذه.

فهذا - وغيره - يدل على فضل هؤلاء الصحابة الأخيار ونبلهم واجتهادهم في طلب الحق، وسلامة صدورهم من الغل والحقد والهوى، فرضي الله عنهم أجمعين[١].

---

[١] منقول – بتصرف – من موقع إسلام ويب islamweb.net من مقالة بعنوان (حقائق حول معركة الجمل) تاريخ النشر: الأربعاء ١٦ رجب ١٤٢٢ هـ - ٣-١٠-٢٠٠١ م.

المراجع

وهي منثورة في الهوامش من هذا الكتاب

وقد اعتمدتُ في عملي هذا على نسخة المكتبة الشاملة – عن طبعة دار النفائس بتحقيق أحمد راتب عرموش

[ترقيم الكتاب موافق للمطبوع]

للمراسلة والتواصل:

محمد علي حسين

mali_111@hotmail.com

الكويت تليفون 98866903

مصر تليفون 01099694140

تعريف

- محمد علي حسين (أبو زهرة)
- لغوي وباحث في التراث الإسلامي
- موجِّه للغة العربية – مواليد نبروه – مصر ١٩٦٢م
- مهتم بنشر التراث في سلسلة صدر منها ثلاثة عشر عملاً، جمعاً ودراسة واختصاراً وتحقيقاً، هي: (التعازي والمراثي للمبرِّد – محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني – الداء والدواء لابن القيم – أخبار الحمقى والمغفَّلين لابن الجوزي – النساء لابن قتيبة – بهجة المجالس لابن عبد البر – تهذيب تاريخ ابن خياط – مختصر زاد المعاد – قصة الإيمان منذ آدم حتى محمد – العواصم من القواصم لابن العربي – حقوق آل البيت في مفهوم ابن تيمية – الشواهد الشعرية في معجم البلدان لياقوت الحموي – مختصر فضائل القرآن لأبي عبيد) إضافة إلى كتابين آخرين خارج السلسلة هما: علماء معاصرون نصروا الإسلام، وكتاب "غرباء".

وكلها كتب منشورة على مواقع نشر الكتب الإلكترونية مثل موقع: نور، وموقع فولة بوك (في صفحة: محمد علي أبو زهرة).